الايمان المصلح للقرن الحادي والعشرين

بقلم

القس سهيل سعود

اهداء

الى من شعرت بقساوة الدهر، وعدم عدالة الحياة
الى من تألمت، فأبت الا أن تشكر الله وسط الألم
الى من بابتساماتك المشرقة، أنرت حياة الكثيرين
الى من دخلت الحياة في ربيع العمر
اليك يا ابنتي وغاليتي غريس، أهدي كتابي:

"الايمان المصلح للقرن الحادي والعشرين"

كلمة شكر وتقدير

لا بد من تقديم الشكر الجزيل، لكل الذين ساهموا في اعداد وانجاز هذا الكتاب. وأخص بالذكر الأستاذ الجليل عبود فضول، الذي قام بالتصحيح والضبط اللغوي. والأخت السيدة نورما توما، التي عملت على طباعة الكتاب. كما أشكر القس الدكتور فيكتور عطاالله مؤسّس خدمة ميرف على تقديمه للكتاب. وأخيرا أشكر

للنشر، على طباعتهم للكتاب، وكل فريق العمل الذي عمل على اعداد الكتاب في صيغته النهائية. 500 Plus

اهداء الكتاب

الفهرس

تقديم الكتاب
مقدمة
الفصل الأول: العقل ما قبل الايمان وبعده
الفصل الثاني: الدوافع اللاهوتية لانتربولوجيا المصلحين
الفصل الثالث: المفهوم الانجيلي للروحانية
الفصل الرابع: رحلة الايمان: تبرير وتقديس
الفصل الخامس: الفلسفة الأخلاقية المصلحة
الفصل السادس: لاهوت جان كلفن، والنزعة الى الصوفية
الفصل السابع: المصلحون ما بين علم الفلك والتنجيم
الفصل الثامن: منهج المصلحين في مواجهة الأمراض والأوبئة
الفصل التاسع: أدبيات لوثر للاستعداد للموت
الفصل العاشر: نظرة المصلحين الى العجائب
الفصل الحادي عشر: الطب هبة الله للبشرية
الفصل الثاني عشر: دعوة المصلحين الى تشكيل العالم

مقدمة الكتاب

ما يميّز الايمان الانجيلي المصلح هو عملانيته. انه يخاطب كل تفاصيل الحياة اليومية االتي نعيشها. لم يترك المصلحون الانجيليون الأساسيون شأنا في الحياة دون أن يفكّروا فيه من منظار الكتاب المقدس. لم يكن ايمانهم شأنًا داخليًا أو صوفيًا. فهموا أن الايمان، ليس فقط اختبار تبّرير الله للانسان بالنعمة وحدها بواسطة الايمان وحده، لكنهم آمنوا وتيقّنوا أن الانجيل قوة تغيرية كبيرة، تغيّر كل شيء، وتلامس كل شيء لكن بعد أن يتغيّروا أولاً بقوة الروح القدس.هذا الكتاب، "الايمان المصلح للقرن الحادي والعشرين"، هو حاجة شديدة لأنه يدخلنا الى فكر وعالم المصلحين الكتابي لنتعلّم منهم عن مسائل عملية حياتية تواجهنا كل يوم. نتناول في الكتاب أربعة مصلحين، هم: مارتن لوثر، جان كلفن، فيليب ميلنكثون، ووليم بيركينس. يتضمّن الكتاب اثني عشر فصلاً، نتوقف فيها عند مفاهيم المصلحين حول مواضيع متنوعة.

نتعرّف في الفصل الاول، على نظرة المصلحين الى العقل ما قبل الايمان وما بعده. آمن المصلحون أن العقل لا يستطيع، اذا ما كان مستقلاً عن الايمان، أن يوصلنا الى الله الذي أعلن عن نفسه في ابنه يسوع المسيح. اعتقد لوثر أن العقل قبل الايمان هو بمثابة عروس ابليس، لكن بعد أن يتجدّد العقل بقوّة الروح القدس، فانه يصبح خادمًا لله.

في الفصل الثاني، نرى كيف أن مفاهيم المصلحين اللاهوتية كان لها تأثيرًا مباشرًا على مفاهيمهم الأنتربولوجية التي كوّنت نظرتهم الى الانسان. توقّفوا عند نتائج التدمير الذي أجرته الخطية في قوى الانسان وما بقي من قواه المتنوعة بالفطرة. آمنوا أن المفهوم اللاهوتي الصحيح يقود الى المفهوم الأنتربولوجي الصحيح الذي يؤدي الى تكريس الانسان بكلّيته لله.

في الفصل الثالث، نتعرّف على المفهوم الانجيلي للروحانية . لم يحبّذ المصلحون استخدام مصطلح "الروحانية" لارتباطه بممارسات كنسية لا تنسجم مع فكر الانجيل، بل فضّلوا مصطلح "التقوى" الذي يعبّر عن نقاء العبادة وقداسة الحياة المسيحية. نتوقف في هذا الفصل عند مفهوم التقوى لدى المصلح جان كلفن بشكل خاص.

في الفصل الرابع، نعالج الموضوع اللاهوتي الأساسي في حركة الاصلاح الانجيلي، ألا وهو عقيدة "التبرير بالايمان وحده". قال المصلح مارتن لوثر، "تثبت الكنيسة أو تسقط بنوعية موقفها من هذا الموضوع". نشرح في هذا الفصل العلاقة بين عقيدتي: التبرير والتقديس، وتلاصقهما ببعضهما البعض، كما فهم المصلحون تلك العلاقة.

في الفصل الخامس، نتوقّف عند الفلسفة الأخلاقية التي اعتمدها المصلحون. نتوقف بشكل خاص مع المصلح فيليب ميلنكثون، الذي دعا الى الاستفادة من الفلسفة بأفضل ما فيها من قيم أخلاقية، وتعميدها بمياه الانجيل المطهّرة، الأمر الذي ينتج فلسفة اخلاقية انجيلية مصلحة، وصالحة لحياة الانسان والمجتمع الذي يعيش فيه.

في الفصل السادس، نتناول موضوع النزعة الحديثة لدى بعض اللاهوتيين الانجيليين نحو التصوّف وتبنّي لاهوت التألّه، الأمر الذي رفضه المصلح جان كلفن بشدة. نتوقّف مع صدام كلفن اللاهوتي والفكري مع ما سمّي "البدعة الأزيندرية"، التي أخذت اسمها من المصلح السابق أندرياس أوزياندر الذي شيّع هكذا أفكار في زمن الاصلاح. ونتعرّف على مفهوم كلفن المميّز لاتحاد المؤمن السرّي بالمسيح.

في الفصل السابع، نتعرّف على موقف المصلحين من علم الفلك، والمزج بين علم الفلك والتنجيم. نتوقّف في هذا الفصل عند الأسس التي اعتمدها المصلحون، للتمييز بين علم الفلك والتنجيم أو قراءة النجوم. اذ أنهم قبلوا بعلم الفلك لأنه علم استند على معطيات علمية، ورفضوا الاعتماد على التنجيم والأبراج. ودعوا جماعة الايمان الى وضع حياتهم ومستقبلهم في يد الله الذي يسود على الحياة.

في الفصل الثامن، نتوقّف مع الموضوع الذي يشغل اليوم فكر وحياة العالم، هو موضوع الأوبئة والأمراض القاتلة، لنرى النهج الذي انتهجه المصلحون في التعاطي مع مرض الطاعون أو "الموت الاسود". نتعرّف في هذا الفصل على المساهمة اللافتة للمصلح مارتن لوثر في هذا المجال. والارشادات التي قدّمها للوقاية من عدوى الوباء. ودعوته للذين التقطوا العدوى التحلّي بالمسؤولية وعدم اخفاء اصابتهم، لكي لا ينقلوا العدوى للآخرين.

في الفصل التاسع، نتوقف عند الأدبيات التي انتشرت أثناء استشراء وباء الطاعون في زمن الاصلاح الأمر الذي أدّى الى موت عدد كبير من الناس. نتوقف عند مساهمة مارتن لوثر المميّزة في ما كتبه حول "فن الموت" بمعنى كيفية الاستعداد للموت. كما نتعرّف على التعزيات الأربع عشرة التي كتبها للمرضى، لتشجيعهم على الثبات على ايمانهم . أيضا نتوقف عند البعض من رسائله المعزّية التي أرسلها للحزانى الذين فقدوا أفرادا من عائلاتهم بسبب المرض.

في الفصل العاشر، نتوقف عند نظرة المصلحين الى العجائب، وتفسيرهم لغياب العجائب فوق الطبيعية. كما نتعرف على أسباب شكوكهم في العجائب السائدة. ومفهومهم أن العجائب الحقيقية هي عجائب التغيير الذي يجريه الله في الحياة وعجائب العناية الالهية.

في الفصل الحادي عشر، نتوقف عند موقف المصلحين النوعي حول الطب، إذ بفضل مواقفهم الايجابية والمشجّعة، خطى الطب خطوات عملاقة. نتناول في هذا الفصل، دعوة المصلحين المرضى الى عدم الاستسلام لمرضهم والتذرع أنها ارادة الله، أو اللهث وراء المواقع المقدّسة لطلب الشفاء، أو الذهاب الى ما سمّي "أطباء الفلك"، وانما الذهاب الى الأطباء لتشخيص أمراضهم وتقديم العلاجات، فالمصلحون آمنوا أن الطبّ هو هبة الله للبشيرية.

في الفصل الثاني عشر والأخير، نتوقف عند دعوة المصلحين، لا للإنعزال والانكفاء عن العالم في الأديرة، وإنما المشاركة في اعطاء شكل للعالم. رأى المصلح مارتن لوثر في قصة الخلق، وتكليف الله آدم بإعطاء أسماء للحيوانات، دعوة الله أولاده للمشاركة في تشكيل العالم. فهموا أن المشاركة هي ليست فقط المشاركة في كلمة الله التي تغيّر الحياة، وانما أيضا اعطاء شكل للعالم من خلال العمل على تحسينه بكلمة الله ومحاربة الظلم والفساد.

القس سهيل سعود

الفصل الأول

عجز العقل عن اقتحام الأبدية

ميّز مارتن لوثر بين توجّهين اثنين في اللاهوت المسيحي: الأول، اللاهوت الاستقصائي الفلسفي، الذي يحاول معرفة الله من خلال سبر غور كيانه. والثاني، لاهوت الوحي، الذي يستند على الايمان والنعمة والكلمة وسرّي الكنيسة. إحدى تعريفات لوثر لعلم اللاهوت، هو "القيام بالتمييز الصحيح، بين: سمو الله السماوي الذي يتحقّق بالأبحاث والتكهنات اللاهوتية والفلسفية، وسمو الله المحجوب في موت وقيامة المسيح والمتاح فقط للايمان. تأثّر لوثر كما باقي المصلحين، بالقديس أوغسطينوس في تمييزه الزمن عن الابدية، لتمييز الخالق عن خليقته. قال أوغسطينوس: "لقد خلق الله الزمن الذي هو بحكم التعريف، يسمح بالتغيير وتتابع الأمور المخلوقة. وُجد الزمن في سياق الخلق لأن الله بطبيعته لا يتغيّر ولا يخضع لتأثير الزمن، لأنه لا يمكن أن يكون أبديًا ما قد يخضع للتغيير". صلّى الى الله، قائلاً: "في سمو الابدية الدائمة في الحاضر، أنت هو قبل كل الاشياء الماضية. وتتسامى على كل الامور المستقبلية. فكل سنيك متزامنة في وقت واحد"، كما قال المرنم، "لأن ألف سنة في عينيك، مثل يوم أمس بعد ما غبر" (مزمور90: 4). خاطب أوغسطينوس الله قائلا: "سنيك هي يوم، ويومك هو اليوم. لا يخضع يومك للغد، ولا يتبع البارحة. فيومك هو الابدية". اعتقد القديس أوغسطينوس أن الله ينظر الى الكون فيرى كل شيء في لحظة واحدة. يفهم كل ما يحدث في الزمن، في حاضر سرمدي ثابت: إن كان سيحدث في المستقبل، أو ان كان قد حدث في الماضي، لأنه ليس لدى الله سوى ما هو. فسّر أبدية الله على انها الفهم التلقائي للماضي والحاضر والمستقبل. أبدية الله هي الحاضر الابدي، الذي يعلو فوق الزمن. بالرغم من تفسيرات أوغسطينوس المحدودة هذه، أقرّ قائلاً: "لا زلت أجهل ما هو الزمن. فلا يمكن قياس الزمن، ممّا لم يوجد بعد. يقلّ المستقبل عندما يتمدّد الماضي، الى أن يكتمل المستقبل وكل شيء في الماضي".

عندما تحدّث مارتن لوثر عن تجسّد "الكلمة" التي كانت عند الله (يسوع المسيح)، "في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله" (يوحنا1: 1)، في سياق ردّه على البدعة الأرسوسية التي انكرت أزلية المسيح، قال: "لا يمكن تصنيف الكلمة (اللوغوس باليونانية) ضمن تصنيف الزمن والخليقة، لأن كل ما هو غير مؤقت وغير زمني، لهذا يجب تصنيف الكلمة على أنها من طبيعة أزلية. كل ما لا بداية له، لا يمكن أن يكون في الزمن". أكمل لوثر قائلا، "أقام الله في الازل حوارًا مع الكلمة، أي مع نفسه. لهذا، تبقى الكلمة ضمن الله ولا تنفصل عنه أبدًا. فالكلمة التي وجدت قبل بداية الزمن، ليست مجرّد صوت مزعج، لكنّها تحمل في كيانها طبيعة الجوهر الالهي، ككائن روحي خارج الزمن". تبنّى لوثر معتقد أوغسطينوس، أنه ليس هناك ماضٍ أو مستقبل لدى الله الابدي، وأن كل شيء حاضرٌ دائم أمامه. من خلال هذا المفهوم، فسّر لوثر قول المرنّم: "إني اخبر من جهة قضاء الرب. قال لي "أنت ابني، أنا اليوم ولدتك" (مزمور2: 7). قال لوثر: "يسوع الابن الازلي، الذي لا بداية ولا نهاية له، وُلد في اليوم الابدي. ولادة الابن لها وجهان: خارج الزمن أي وجه أبدي، وداخل الزمن أي في التاريخ. اعتقد لوثر، أن العقل الانساني يجد صعوبة كبيرة في فهم تجسّد الله في الزمن في ابنه يسوع المسيح، وصيرورة الكلمة جسدًا، لأن العقل لا يستطيع اقتحام الابدية وفهمها". علّق على كلمات المرنّم، "أنت ابني، أنا اليوم ولدتك"، بقوله :"هذه الكلمات القليلة لها قيمة وثقل كبير جدًا ولا يمكن فهمها من خلال العقل، لأن العقل لا يمكنه أن يفقه ما هو وراء الزمن والامور غير الزمنية. لا يستطيع العقل أن يرى شيئا من الأبدية أو يشعر بشيء". كان

لوثر، يردّد قصة راهب الصحراء الذي قدّم نصيحة الى المعتنقين الجدد الذين يثقون بقدرة عقلهم على فهم السمو الالهي، فكان يقول لهم: "إذا ما رأيت أحدهم يضع رجله في السماء أرجعه، لأنه بهذه الطريقة يحاول المعتنقون الجدد الذين يظنون انهم يستطيعون فهم سمو الله، أن يصعدوا الى السماء ليضعوا أرجلهم هناك. إلاّ انهم فجأة يسقطون في الجحيم. انهم لا يدركون أنه من غير الممكن أن يفهموا سمو أبدية الله، وأن عقولنا ليست مؤهلة لمعالجة هكذا مواضيع تتجاوز فهمنا. نظر لوثر، الى التكهنات والاستقصاءات العقلية في سرّ عمق كيان الله، على أنها مؤسسة على البرّ البشري ومحاولة الانسان أن يكون مثل الله. رآها تعدّيا على الوصية الأولى من الوصايا العشرة، التي قال فيها الله: "أنا الرب الهك. لا يكن لك آلهة أخرى أمامي" (خروج20: 2-3). قال، "ان ثقة الانسان الزائدة في نفسه، تجعله يحاول باستمرار سبر غور جلال الله بعقله، لكن عليه أن يشغل نفسه بالله المتجسّد في المسيح واياه مصلوبًا.

اعتقد لوثر، أن الله لم يكن مفهومًا قبل خلقه العالم، لأن الله لا يعلن عن نفسه إلاّ من خلال أعماله وكلمته. قال:"من الجهالة، لنا أن نجادل حول الله، الذي هو خارج الزمن وقبل الزمن. فلقاؤنا مع الله الأبدي متموضع في حقائق زمنية". عرّف الحقائق الزمنية، على انها: الانجيل الموعوظ، وسرّا الكنيسة. قال، "هذه الحقائق، تخترق الله الأزلي، وتعرّفنا بجوهر طبيعته الثالوثية. حذّر المتّكلين على ذكائهم وقدراتهم العقلية بأن جهودهم الفكرية لمحاولة فهم الله الثالوثي، لن توصلهم الى شيء. قال، "إذا ما خرجنا، خارج الكتاب المقدس لنفهم الله، فإننا قد نصل الى مكان حيث: لا زمن ولا قياس ولا مساحة له، وإنما فقط العدم". أعلن لوثر، أن الله يحب الحكمة السماوية الخفيّة. اقتبس قول النبي داود: "ففي السريرة، تعرّفني حكمة" (مزمور51: 6). آمن أن حكمة الله هي مخبّأة في جلاله، كما يقول المرنم: "أعطوا عزّا لله. على اسرائيل جلاله، وقوّته على الغمام" (مزمور 68: 34). اعتقد أن العقل لا يستطيع استيعاب الأسئلة الروحية العميقة، ولا يستطيع أن يرى ما يتجاوز التكهنات الفلسفية. قال، "لا يستطيع العقل فهم حكمة الله، إلاّ عندما ينيره الروح القدس، فيقبل بالايمان، ما تحاول التكهنات الفلسفية باطلاً تحقيقه من خلال الجهود العقلية. آمن، أن أبدية الله هي من مكوّنات سموّه الالهي. وقد ظهر هذا السمو، من خلال المسيح الكلمة الذي كشف أبدية الله، وجلاله الخفيّ بتجسّده في الزمن. قال، "إن صوت المسيح المرئي، هو صوت الآب غير المرئي. نتواجه في المسيح مع الله الذي لا يتغيّر". آمن لوثر، أن الله الذي بطبيعته لا يُرى ولا يفهم، قد أعلن عن نفسه في يسوع المسيح الذي هو سرّ الله النهائي. وأن موت وقيامة المسيح، هما المحطتان التي تبدأ منهما انكشاف حقيقة الله المحجوب، والمعلن بالانجيل. قال، "لم يتحقّق خلاصنا من خلال الاستقصاءات والتكهنات الفلسفية لما هو قبل الزمن، وإنما بمواجهة خاصة مع يسوع الكلمة. فالذين ينشغفون باستقصاءاتهم وتكهناتهم عن الله، خارج المسيح وارادة الله، فإنهم يخسرون الله نفسه. لهذا، فالانسان المبرّر بالايمان، يتمسّك بما يعطيه اياه الله في المسيح".

الإيمان يضع الأطر الصحيحة للعقل

في كتابه "من الدين إلى الفلسفة" سرد الكاتب ن. م. كورنفورد، قصة نشوء الفلسفة في العصور القديمة، التي سبقت الحضارة اليونانية، مظهرا أن هناك استمرارية ، بين: البحث العقلي الباكر، والايمان الديني الذي كان يقف وراءه. قال كورنفورد، "ورثت الفلسفة عن الدين، بعض المفاهيم والأفكار العظيمة، حول: الله، النفس، المصير، الشرائع، والتي وضعت قيودا، على تحركات العقل وحدّدت توجّهاته الأساسية وبذلت الجهود، لإيجاد العلاقة بين العقل والايمان. هذه العلاقة بين العقل والإيمان، لا تزال متداولة في الفكر المسيحي، منذ أن خاطب الرسول بولس، الفلاسفة الأبيقوريين والرواقيين في مدينة أثينا اليونانية،

في موقع "أريوس باغوس" (أعمال الرسل17: 16-34). منذ القرن الأول للميلاد، وحتى اليوم، لا يزال اللاهوتيون المسيحيون، يفكّرون بوسائل خلاّقة، لصياغة هذه العلاقة.

برز في تاريخ الفكر المسيحي، توجّهان: الأول، الالتزام بالايمان بشكل أعمى، وانكار أيّة إيجابية أو قدرة للعقل، للوصول إلى أية حقيقة، لا سيّما في مسائل الإيمان. وعليه، رفض كل انواع التساؤلات والشكوك في مسائل الايمان، واعتمد بشكل مطلق على يقينية الإيمان وحده. اما التوجه الثاني، فقد أعطى للعقل دورًا إيجابيًا في البحث عن الحقيقة، الى جانب الايمان. من أصحاب التوجه الثاني، القديس أوغسطينوس، والمصلحين الانجيليين، وغيرهم. قال القديس أوغسطينوس: "نحن أولاً مدعوون من خلال وحي الروح القدس إلى الإيمان، لأنه إن لم نؤمن أولاً، لن نفهم". بتصريحه هذا، كان يقوّم أوغسطينوس بتغيير كبير في شكل ومضمون الفلسفة اليونانية، التي دعت أولاً إلى استخدام العقل للفهم، وإتّخاذ المواقف المناسبة في الحياة على أساس العقل. علّق أحد اللاهوتيين على تصريح أوغسطينوس، بالقول: "إن مفهوم القديس أوغسطينوس، حول العلاقة بين الإيمان والعقل، يظهر أن الفهم هو مكافأة الإيمان. لهذا، إسع ألاّ تفهم كيما تؤمن، بل آمن كيما تفهم".

إعتقد المصلح فيليبب ميلنكثون، أن الإيمان يضع الأطر الصحيحة للعقل ولفهم الفلسفات. إعتبر أن خطأ السكولاستيين، هي الثقة الزائدة في العقل. أصرّ على "عدم يقينيّة أيّة فلسفة، تؤسّس على العقل الإنساني وحده"، مقرا بحدود ومحدودية العقل، وذلك بسبب الظلمة التي سبّبتها الخطيئة في الذهن الانساني". قال ميلنكثون، "مع أن الفلاسفة اليونانيين أحبّوا الحكمة، لكنّهم لم يفهموها، لأن الله قدّمها للعالم، كوسيلة للخلاص بالإيمان. أقتبس قول الرسول بولس، "لأن أموره (الله) غير المنظورة ترى منذ خلق العالم، مدركة بالمصنوعات قدرته السرمدية ولاهوته، حتى أنهم بلا عذر. لأنهم لما عرفوا الله لم يمجدوه أو يشكروه كاله، بل حمقوا في أفكارهم، وأظلم قلبهم الغبي. وبينما هم يزعمون أنهم حكماء، صاروا جهلاء" (رومية 1: 20-22). حذّر المسيحيين من هجر العقل، قال لهم، "مع أن هجر العقل خيار يجب ألا يتخذه المسيحي، إلاّ أنهم يجب أن يعلموا أن العقل، لا يمنح يقينية الخلاص الروحي للإنسان". قال ، "لا أحد يستطيع أن يكون لاهوتيا مسيحيا دون يقينيّة شخصيّة، لأن اليقينيّة هي من جوهر الإيمان المسيحي". آمن أن اليقينيّة هي ضرورية حتى لا يضلّل الانسان المؤمن، برياح تعاليم غريبة عن الفكر المسيحي. قال: "أنه من عدم التقوى وعدم الأمانة، أن يكون المسيحيّ متزعزعًا ومتقلّقلاً، في إيمانه بالمسيح".

حيرة العقل أمام الصليب

قال مارتن لوثر، "لم يعلن الله عن نفسه من خلال العقل والفلسفة أو بإظهار نوعمن القوة، وانما بطريقة معاكسة لتلك الأمور. لقد أعلن عن نفسه في طريقة غير متوقّعة، هي الصليب. وفي مكان غير متوقّع، هو الجلجثة. الاّ أن الأمر الغريب جدًا حول هذا الاعلان الالهي، أنه ليست الطريقة ولا المكان الذي نتوقّع أن نجد فيه الله القدير صانع السماء والأرض". من الآيات التي توقّف عندها وفكّر فيها كثيرا لوثر، قول النبي إشعياء، "حقًا أنت إله محتجب يا إله إسرائيل المخلّص" (إشعياء45: 15). قال لوثر، "الله، غير المرئي، مغلّف بظاهرة الصليب الخفية على العقل". آمن ، أن الجلجثة، هي موقع تجلّي الله المحجوب وسرّ الحقيقة النهائية. قال، "لا نجد السموّ الالهيّ في الأعلى في السماء، وانما في الأسفل في خزي الصليب. ولا يبدأ الايمان المسيحي من أعلى القمة، لكن من أسفل القعر. فلا أحد يستطيع تجاوز الصليب، ليكتشف الله المجرّد. فالاعتراف بالسموّ الالهيّ في الصليب، يختلف عمّا قد يكون صحيحًا حول الله، خارج الزمن والتاريخ. فلا شأن للايمان المسيحي، بالله خارج سياق حدث الصليب ويسوع المسيح

واياه مصلوبًا. فإعلان الله الحقيقي، يظهر محجوبًا في ما يبدو معاكسا له". وأضاف، "يعلن الله عن نفسه، في ما يبدو معاكسًا لحقيقته، لأنه لا يوجّهنا الى ما هو، وإنما الى ما سوف يأتي. لهذا، يقف العقل مرتبكًا أمام الصليب، كيما يتبرّر الانسان بالايمان وحده، وليس بالعقل".

آمن لوثر، أن الله لم يحتجب فقط في الصليب وفي ضعف ابنه المصلوب، لكنه احتجب أيضًا خارج اعلانه عن نفسه في المسيح. وهذا الاحتجاب الثاني، هو الذي يدفعنا لطرح الكثير من الأسئلة التي لا نفهمها في هذه الحياة، منها: لماذا يؤمن البعض والبعض الآخر لا يؤمن؟ لماذا يستفيد البعض من عمل الله الخلاصي، ولا يستفيد البعض الآخر؟ هذا بالاضافة الى أسئلة الآلام والأمراض والظلم والموت، وغيرها من الأسئلة الشائكة التي نرى فيها الله محتجبا عنّا، ولم نعطَ سرّ إدراكها وفهمها". قال لوثر، "في الاحتجاب الثاني، لا نرى الله في كلمته الموحى بها، وإنما ما وراء كلمته. الاحتجاب الثاني، يشكّل الإشكالية الكبرى للبشر في فهمهم طرق الله، والأسلوب الذي يحكم فيها الكون. وقف لوثر في حيرة، قائلا: " إذا ما كان الإله المحتجب خارج كلمته هو إله حقيقي وحرّ ومجهول لنا، فإنه يبدو وكأنه إله آخر مختلف عن الإله الذي أعلن عن نفسه في الصليب. فالله المحتجب في الصليب هو إله رحوم منعم يدعو الجميع الى معرفته واختبار خلاصه في ابنه المصلوب. لكن، يبدو لنا أن هناك نوعًا من عدم الانسجام بين الله المحتجب في الصليب المعلن في الكتاب المقدس، والله المحتجب خارج الكتاب المقدس. فالله المتجسّد في يسوع المسيح، يبكي ويحزن بسبب هلاك غير المؤمنين، بينما الله المحتجب خارج الكتاب المقدس، يسمح بحدوث هذا. الله المتجسد في يسوع المسيح، يفتّش عن الضال، بينما الله المحتجب يسمح بضلاله". ثم يسأل لوثر: "هل احتجاب الله في الصليب، هو قناع يحجب الله الحقيقي المحتجب خارج الصليب، أم بالعكس؟

يدين لوثر مساءلة مقاصد الله المحتجبة عن ادراكنا، ويعتبر أن البقاء في المساءلة يتحوّل الى شكل من أشكال الوثنية. سأل: لماذا لا نتّهم الله بالظلم، عندما يبرّر الانسان الخاطىء بالرغم من أنه لا يملك أي استحقاق يؤهله لتبريره له، بينما نتّهمه بالظلم عندما يقوم بالعكس ؟ آمن، أن الله حرّ الارادة ولا أحد يقيّد ارادته. قال، "لله أهداف سريّة يحقّقها، ربما تختلف عن اعلانه المنعم عن نفسه في يسوع المسيح". وأضاف: "أمام ما نراه، ليس لدينا اجابة، لأن هذا الأمر يبقى سرًا علينا، لكن علينا أن نقف في وقار واحترام أمام الله. ينبغي علينا ببساطة أن نعبد الرب من أجل طرقه السريّة، لأن أحكامه بعيدة عن الفهم والاستقصاء . لهذا يجب أن يكون موقفنا، لتكن ارادتك يا رب". حذّر لوثر من استقصاء طبيعة الله قائلاً: "يجب أن نترك الله وشأنه، في طبيعته وجلاله. لن نفهم هذه الأمور إلاّ في الدهر الآتي عندما نلتقي بالمسيح، إذ ما يبدو متناقضًا لنا اليوم سيقوم المسيح بتوضيحه في نور المجد. سنفهم في الدهر الآتي عدالة الله الأكثر صلاحًا، عندما يفسّر لنا هذا اللغز. الاّ أنه علينا أن نؤمن بإله عادل، بالرغم من كل الامور التي تبدو غير عادلة". قال لوثر: "يصبح الانسان لاهوتيًا بالانكسار والموت، وليس بالفلسفة والاستقصاء وسبر غور الأمور التي لا تفهم. فحتى يكون الايمان مبرّرًا، من الضروري أن يبقى محجوبًا. ولن يكون محجوبًا، إلاّ عندما يظهر في مفهوم معاكس لما يبدو". آمن لوثر ان اللقاء مع الله المثلّث الأقانيم، تحقّق في الصليب والقيامة. لهذا، تصبح كلمة "الصليب"، هي كلمة الوعد الاسكتولوجية الخلاّقة. وعليه، دعا المسيحيين الى الاستناد، فقط على كلمة الله الموحى بها في الكتاب المقدس، لأنها تكشف لنا حقيقة طبيعة الله.

تحدّث لوثر عن طبيعة الايمان في كتابه، "عبودية الإرادة". قال: "كل ما يجب أن نؤمن به، يجب أن يكون غير مرئي، بل محتجبًا ليكون هناك مساحة للإيمان. يحجب الله رحمته الأبدية، تحت غضبه الأبدي. ويحجب صلاحه، تحت عدم صلاحه". وأضاف: "إذا ما استطعت بكل الوسائل المتاحة، أن أفهم كيف أن نفس الله الرحوم والعادل، يمكن أن يظهر غضبه ويبدو لنا انه غير صالح وغير عادل، فلن يكون هناك حاجة للايمان. الايمان محوري، ليس فقط لرؤية الله محتجبا في الصليب، ولكن أيضًا محتجبا خارج

الصليب". قال، "ما قد يبدو معاكسًا لرحمة الله، ربما يكون المساحة والحقل الذي يعمل فيه الايمان". اعتقد لوثر، أن الايمان يكون ايمانًا، عندما يرى محور عبادته الله، محتجبًا خلف ما هو عكسه لكي لا يكون هناك مجال للإفتخار. فإنه بهذه الطريقة، تبدو النعمة منعمة بشكل كامل، ومقدّمة بشكل إلهي كامل. فنحن في نهاية المطاف نحتضن الكتاب المقدس بالايمان". دعا لوثر جماعة الايمان، الى التفريق بين: الله الذي نعظ به، والله المحتجب. بين الله في الكلمة، والله خارج الكلمة. قال، "نحن مسؤولون عن الكرازة بما أعلن الله عن نفسه لنا في الكتاب المقدس، اذ أعلن أنه لا يشاء موت الخاطىء بل يريد أن جميع الناس يخلصون والى معرفة الحق يقبلون. الاّ أننا لا نستطيع سبر غور ارادة الله خارج الكتاب المقدس ، لأنه محتجب ولا يمكن الوصول اليه". أضاف: "لو لم يعلن الله عن نفسه لنا في الكتاب المقدس، لما كان لنا ايمان ولا كلمة ولا معرفة، لكن لا نستطيع أن نتساءل الى ما لا نهاية". أخبرنا لوثر عن القاعدة التي يعتمدها في حياته، فقال "أنا أتبع هذه القاعدة العامة: أتجنّب بقدر الامكان أية اسئلة تحملنا الى عرش سيادة الله المطلقة، لأنه يجب ألاّ يكون لدينا فضولية كبيرة، لمعرفة أسرار مقاصد الله. فإنه من الأفضل لنا أن نبقى عند مذود المسيح الانسان، لأن هناك خطرًا كبيرًا في زجّ نفوسنا في أسرار الكيان الالهي. فبالرغم من أننا لا نستطيع أن نفهم الله المحتجب عنا، إلاّ أننا نحبه في المسيح. فإذا ما آمنا في الله المعلن في الكتاب المقدس وقبلنا كلمته، فإنه يعلن عن نفسه تدريجيًا لنا، لأن المسيح قال: "الذي رآني، فقد رأى الآب" (يوحنا 14: 9). لم يفسّر لوثر، كيف نصل الى معرفة الله المحتجب، لكنه يضع هذا الموضوع عند اقدام الايمان. اعتقد ان الله المحتجب خارج اعلانه في الكتاب المقدس، هو الذي يدفعنا للايمان بالله الذي أعلن نفسه بالمسيح المحتجب في الصليب. قال: "إذا ما كان لك المسيح، سيكون لك الله المحتجب. لهذا، اقبل الوعد. آمن بالله المعلن في المسيح. فالايمان هو المفتاح الذي يفتح اسرار الكون وصراعات الوجود المسيحي".

حين يصبح العقل خادما للايمان

تفاوتت نظرة مارتن لوثر كثيرا الى العقل بين مرحلة: ما قبل الايمان، وما بعده. نظر الى العقل قبل الايمان نظرة سلبية جدا. نعته أنه: عروس الشيطان، زانية ابليس، أعمى، متوحش، ومجنون. تأثرت نظرته السلبية الى العقل بقناعته بالدمار الكبير الذي سبّبته الخطية في كل قوى الانسان: الارادية، والنفسية، والعاطفية، ومنها العقلية. لهذا، وجد العقل قوة تناقض الله. نجد نظرته السلبية الى العقل، عند تفسيره قول الرسول بولس للغلاطيين، "كما آمن ابراهيم بالله، فحسب له برًا" (غلاطية3: 6). رجع لوثر الى قصة ابراهيم في سفر التكوين، عندما استلم وعد الله بأنه سيكون له ابن من لدنه، بالرغم من تقدّمه وزوجته سارة بالسنّ، إذ كان قد بلغ من العمر بحدود المئة سنة. قال لوثر: "يعلّم العقل والاختبارات البشرية، أنه من غير الممكن أن يلد زوج وزوجة مسنّة ولدًا. لكن، بعكس استنتاجات العقل، فقد آمن ابراهيم ووثق بوعد الله له، بأنه سيكون له إبن". وأضاف: "عندما ضحكت زوجته سارة، من الخبر الذي اعتبرته غير ممكن التحقيق، قال الله ِلإبراهيم: "لماذا ضحكت سارة قائلة: أبالحقيقة ألد وأنا قد شخت؟ هل يستحيل على الله شيء"؟ (تكوين18: 13-14). بعدها علّق لوثر قائلا: "يؤمن المسيحي بالإله الذي يتكلّم ويعد بتحقيق ما يبدو للإنسان العادي، غير ممكن وجنون ومعاكس للعقل. نظر الله الى إيمان إبراهيم وبرّره، كما قال الكتاب: "آمن ابراهيم بالله، فحسب له برّا" (غلاطية3: 6). فإبراهيم قدّم لله، الثقة الواجبة التي يستحقّها". أكمل لوثر قائلاً، "الايمان يكرّم الله. الايمان يرى الله على حقيقته كونه قادرا على كل شيء، لكن العقل لا يستطيع أن يفعل هذا. لهذا، يصبح العقل عدوًا لله، لأنه ينكر ألوهيته وحكمته وقوته ورحمته وجلاله". اقتبس لوثر قول الرسول بولس، "إذ معرفة الله ظاهرة فيهم، لأن الله أظهرها لهم. لأن أموره غير المنظورة

ترى منذ خلق العالم، مدركة بالمصنوعات قدرته السرمدية ولاهوته، حتى أنهم بلا عذر. لأنهم لما عرفوا الله لم يمجدّوه أو يشكروه كإله، بل حمقوا في افكارهم وأظلم قلبهم الغبي. وبينما هم يزعمون أنهم حكماء، صاروا جهلاء" (روميه1: 19-22). علّق قائلا: "هناك من يستخدمون العقل والحكمة من أجل مصلحتهم الشخصية ومجدهم، ويقومون بذلك خارج النعمة. بالرغم من أن الله أظهر أموره غير المنظورة منذ خلق العالم بقدرته السرمدية، لكن هناك من يدّعي معرفة الله، لكنه لا يريد أن يشكره ويمجدّه. لهذا، حكمتهم هذه قد صارت جهالة. فالعقل والحكمة التي لا تمجّد الله تصبح جهالة".

آمن لوثر، أنه من غير الممكن معرفة الله من خلال العقل والفلسفة، وانما فقط من خلال اعلان الله عن نفسه في يسوع المسيح، في الانجيل. اعتقد، أن معرفة الله تصبح معرفة حقيقية، عندما تغيّر هذه المعرفة حياة العارف. وهكذا يتحسّن عمل العقل عندما يتواجه الانسان بالمسيح المصلوب، لأن هذه المواجهة هي التي تغيّر عقله وتجدّد ذهنه. آمن لوثر ، أن اللاهوت الحقيقي ومعرفة الله الحقيقية هي في المسيح المصلوب. قال، "فقط في المصلوب، نستطيع أن نرى الفرق بين العقل ما قبل الايمان، وما بعده". وجد لوثر، أن اختبار ابراهيم بالايمان الذي لم يكن مقبولا بالعقل، قد ذبح العقل. قال: "عندما ينشأ صراع بين العقل والايمان، مثلما حدث في قصة ابراهيم، فإنه فقط الروح القدس، يمكنه أن يحلّ الصراع لصالح الايمان. في تلك الحالة، يحتضن الروح القدس العقل، ويحتويه ليكون أداة من اجل خدمة الكلمة وتفسير الكتاب المقدس". وأضاف، "لا ينشأ العقل من تلقاء نفسه. وليس هو كيانا مستقلا، لكنه من قوى الانسان التي تعمل بحسب توجّهاته". عرّف لوثر العقل فلسفيًا، على أنه قبول الواقع. رأى انه في مثل تلك الصراعات، فإن الامر الوحيد الذي لا يستطيع ان يفعله العقل، هو التعلّم من كلمة الله. رأى ، أن إحدى مهمات اللاهوت أن يتناقش مع الخطية حول من يمتلك العقل. وهنا تكمن ميّزة اللاهوت، في قدرته على تكييف العقل والمعرفة الفلسفية الاخلاقية، لصالح الايمان".

لم يكن لوثر ضد العقل. يرى مؤرخون أن انتقاد لوثر للعقل ما قبل الايمان، لا يعني رفضه العقل على أسس لاهوتية، وإنما الاقرار بحدوده من خلال التمييز بين اللاهوت والفلسفة، ليصبح العقل أداة لخدمة الله. رفض لوثر استبدال العقل بالوحي. لم يعتقد انه من الممكن الوصول الى الله الذي أعلن عن نفسه في يسوع المسيح من خلال العقلنة والتحليل. ولا يمكن سبر غور أعماق جلال الله من خلال العقل، وانما فقط من خلال الانجيل. رأى الحاجة القصوى الى العقل في سياق بناء المجتمع. قال: "للعقل المرتبة الأعلى بين كل الاشياء. إنه مخترع: الطب والقوانين والفنون، وكل حكمة وعدالة في الحياة. الاّ أنه يخضع للبطل، كما تخضع كل خلائق الله الأخرى للبطل". اعتقد، أن الايمان هو الذي يفصل بين ما هو جوهري وما هو ثانوي، وبين ما هو أبدي، وما هو باطل. لهذا، فالسؤال الأساسي بالنسبة للوثر هو كيفية استخدام عقولنا: هل لمجد الله أم لمجد أنفسنا"؟ قدّم لوثر مثلاً، شبّه فيه العقل بقلادة الذهب. قال: "إن كانت تضع زانية أم شريفة قلادة الذهب، ففي كلا الحالتين، يبقى الذهب ذهبًا. لكن الأمر الذي يفرق هو من وكيف يستخدم العقل".

أعطى لوثر لعقل ما بعد الايمان، مكانة لاهوتية هامة. نظر اليه كإحدى قوى الانسان الأساسية القادرة أن تحكم على صحة العقيدة والتعليم. كتب عام 1518، الى استاذه في الفلسفة، جودكوس تروتفتير، قائلاً له: " تعلّمت منك، قبل كل شيء، أن الايمان هو ضروري لقبول الكتب القانونية الموصى بها من الله في الكتاب المقدس، والحكم بشكل صائب وتقوي لتمييز الكتب غير القانونية". اعتقد، أن تفسير كلمة الله هي مهمة العقل. قال: "عندما يرسل الله انجيله المقدس، فإنه يتعامل معنا بطريقتين: الاولى خارجية، والثانية داخلية. خارجيا، من خلال كلمة الله والأسرار المرئية: العشاء الرباني، والمعمودية. وداخليا، من خلال الاختبار الروحي". وأضاف: "يجب أن يتبع الكلمة الخارجية، الاختبار الروحي الداخلي.

فقد صمّم الله بحكمته أن يمنحنا الاختبار الروحي الداخلي، حصريًا من خلال الكلمة الخارجية والعلامات المرئية. فلا يستطيع البشر ان يستدلّوا على ما يقوله الروح القدس إلاّ من خلال الكلمة الخارجية". شدّد لوثر، على ضرورة ان يأخذ اللاهوتي جديًا قوى العقل بعين الاعتبار، كقاعدة للتواصل الاكاديمي والمناقشة والفهم. قال: "إذا ما أعلن الله عن نفسه من خلال الكلمة الخارجية ووسيلة اللغة، واستخدم معرفة البشر للغة والتقنيات التفسيرية كمقياس لفهم الكلمة، علينا أن نفهمها من خلال هذه الوسيلة التي يفسّرها العقل". وأضاف: "تأتي الينا الكلمة الخارجية عبر وسيلة اللغة. وتنتشر، ويحافظ عليها بنفس وسيلة اللغة. فعلم اللغة والقدرة التفسيرية، هي قوى تنتمي الى العقل. وبهذا المعنى، ينتمي الروح القدس والعقل الى بعضهما البعض، لأنه لا يأتي الينا دون أن نفهم الكلمة، التي هي مهمة العقل". شدّد لوثر على ضرورة أن ننطق بأعمال المسيح من خلال استخدام كلماته كما أعلنها لنا، ولا نستخدم كلماتنا وندّعي انها أفضل من كلماته. قال، "إذا ما اعتقدنا ان لدينا تواصلاً مباشرًا مع الروح القدس، أو قمنا بتفسيرات خاطئة غير عقلانية، فإننا نسيء الى العقل. وتلقائيًا، نسيء الى الروح القدس. علينا أن نردّد كلماته كطفل يردّد وراء أبيه، الصلاة الربانية أو قوانين اعتراف الايمان". وهكذا تتغيّر نظرة لوثر، الى العقل تغييرا كبيرا، بين مرحلة ما قبل الايمان وما بعده. قال لطلابه، عام 1533 :"يظلم العقل، بدون الايمان. لكن اذا ما كان العقل عائقًا قبل الايمان، يصبح مسهّلا له بعد الايمان. إذا ما كان العقل قبل الايمان يعمل على اعلاء مجد الانسان، فإنه بعد الايمان يعمل على إعلاء مجد الله. كتب المؤرّخ اللاهوتي اللوثري، جاروسلوف بيلكن، في العام 1950، قائلاً: "يجب العمل على إيجاد فلسفة مسيحية حقيقية تنسجم مع عصرنا ولاهوتنا". قال: "إذا ما كنّا نؤمن أن يسوع المسيح هو حقيقة الربّ، فإن العقل يجب أن يخدمه أيضًا. وهذه هي المهمة التي يجب أن نكلّف بها العقل المسيحي، من خلال لاهوتيينا ومفكّرينا".

الفصل الثاني

الدوافع اللاهوتية لأنتروبولوجيا المصلحين

خلق الله الانسان على صورته

تذكر قصة سفر التكوين، حقيقتين عن خلق الانسان: الأولى، أن الانسان مخلوق على صورة الله ومثاله ،"فخلق الله الانسان على صورته، على صورة الله خلقه، ذكرا وانثى خلقهم" (تكوين 1: 27) . والثانية، أن الانسان مخلوق من تراب، "وجبل الرب الاله آدم ترابا من الارض"، (تكوين 2: 7). فالله في قصة خلقه للانسان ، يظهر وكأنه فخّاري يعمل في جنّة عدن، فيجبل الانسان من تراب، وينفخ فيه نسمة

الحياة، فيحييه، "ونفخ في أنفه نسمة حياة، فصار آدم نفسا حية" (تكوين 2: 7). أراد الله من الانسان أن يعيش بالايمان له ويمجّده في حياته، لكنه تمرّد عليه ورفض سماع صوته . ذكّر الله بحقيقة آدم، قائلا له: " حتى تعود الى الارض التي أخذت منها. لأنك تراب، والى تراب تعود" (تكوين 3: 19). تقدّم قصة الخلق تعريفا للانسان، أنه مزيج من صورة الله ، ومن تراب .

صورة الله في الانسان، هي الميزة التي تميّزه عن باقي المخلوقات الأخرى (الحيوانات والنباتات)، التي لا تحمل صورة الله. يذكر نص خلق الله للإنسان، في سفر التكوين، ما يلي: "وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا، فيتسلّطون على: سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع دبابات الأرض كأجناسها. فخلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلقه. ذكرًا وأنثى خلقهم" (تكوين1: 26-27).

إن كيفية فهمنا لصورة الله في الإنسان، لها إنعكاسات عميقة على ايماننا ونوعية عقيدتنا، وكيفية حياتنا. فهمت الكنائس المسيحية المتنوعة هذا النص المذكور، بشكل مغاير عن بعضها البعض. ميّزت الكنيسة الكاثوليكية بين: صورة الله، وشبه الله في الإنسان. إعتقدت أن الصورة، تتضمّن هبات الله الطبيعية للإنسان، مثل: الشخصية، الفكر، والإرادة. أما الشبه، فهو الهبة الروحية فوق الطبيعة، التى أضافها الله على الطبيعة البشرية، بعد خلق الإنسان، وقبل سقوط آدم في الخطيئة، وهي تتضمّن المواهب الروحية التي هي: البر، والقداسة، والحق. أيضا ميّزت الكنيسة الأرثوذكسية، بين صورة الله في الانسان، والشبه ، وانما دون الاعتقاد، بأن الله أضاف هبة كبيرة على الطبيعة البشرية. أما المصلحون الانجيليون: مارتن لوثر، جون كلفن، أولترخ زوينكلي وغيرهم، المصلحون الأساسيون الذين شكّلوا الفكر الانجيلي المصلح، فإنهم في تفسيرهم للنص، لم يميّزوا بين تعبيري: "صورة الله، وشبهه"، بل اعتبروا أن التعبيرين، هما أسلوب أدبي يعبّران، عن حقيقة واحدة: ألا وهي أن الإنسان خلق على صورة الله، وعلى مثال الله الكامل. وعند دراسة المصلحين لصورة الله في الإنسان في الكتاب المقدس، وجدوا أن هناك نصوصًا تذكر تعبيرا واحدا ، أمّا الصورة، أو الشبه، وليس التعبيرين معا. من هذه النصوص، "فخلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلقه. ذكرًا وأنثى خلقهم" (تكوين1: 27). "لأن الله على صورته، عمل الإنسان" (تكوين9: 6). "ولبستم الجديد الذي يتجدّد للمعرفة، حسب صورة خالقه" (كولوسي3: 10). ونصوص تذكر تعبير "الشبه": "يوم خلق الله الإنسان، على شبه الله" (تكوين9: 6). يرى المصلحون أن التفريق بين "صورة الله، وشبه الله"، قد أخرج صورة الله ، عن الاطار الذي رسمه الكتاب المقدس، الذي هو: المعرفة والبر والقداسة (أفسس4: 24).

أن النقطة الأساسية الفاصلة، التي أدّت الى تكوين مفاهيم مختلفة بين الكنائس المسيحية حول صورة الله في الانسان، هو موضوع: ما الأثر الذي تركه سقوط آدم في الخطية، على صورة الله في الانسان؟ وماذا حدث لقدرات الإنسان بعد سقوطه؟ تجيب الكنيسة الكاثوليكية، على أن سقوط آدم في الخطية، أدّى الى فقدان الانسان، للعطية الكبرى المضافة على الطبيعة البشرية، والتي هي "شبه الله". وبالتالي، لم تفسد كل الطبيعة البشرية في السقوط، لكنّها فقط ضعفت. وعليه، فالإنسان الساقط لا يزال يحتفظ، ببعض الصلاح، والإرادة الحرة، ولا يزال قادرًا للإستجابة مع نعمة الله. أما الكنيسة الأرثوذكسية، فقد إعتقدت أنه بالرغم من خطية السقوط، فإن الانسان الساقط لا يزال يحتفظ ببعض الصلاح. يقول الأسقف الأرثوذكسي الإنكليزي، تيموثي واير، " مهما كنا خطاة، فنحن لم نخسر صورة الله فينا في السقوط. فبمجرد أن الإنسان هو صورة الله، فإن إحدى الأمور التي لا يزال يمتلكها الإنسان، هي: الإرادة الحرة، والقدرة على القيام بأعمال حسنة".

لاهوت كلفن الأنتروبولوجي

نظر كلفن الى الكون على أنه مسرح مجد الله، يبهر العيون من عظمة إشراقه. قال: "نرى في كل الكون إشعاعات من مجد الله. وحيث أن مجد الله هو أكثر إشراقًا في السماء، فقد دعيت السماء عرش مجد الله". إنتقد كلفن، الفيلسوف فيرجيل، الذي اعتقد أن الكون هو وليدة وحي سرّي، أعطى له الحياة. قال: " يبدو هذا الإدعاء، وكأن هذا الكون العظيم إنما هو خالق نفسه بنفسه". آمن كلفن بأن الكون، ليس وليدة الصدفة العمياء أو وليدة أيّة قوّة خارجة عن الله، لكنه عمل الله الحقيقي المثلّث الأقانيم. عندما انتقد البعض لاهوت كلفن، لتشديده الكبير على مجد الله، قائلين: "إن تشديدا بهذا القدر على مجد الله، يقلِّل من شأن الإنسان وكرامته"، كان موقف كلفن أنه يجب ألاّ تقلقنا هذه الإنتقادات. قال، "الذين يريدون إنكار مجد الله، عليهم أن يدركوا حقيقة أنه لو لم يكن الله هو الخالق العظيم، فإن الكون يصبح صدفة، والحياة لا معنى لها، ومصير الإنسان ينتهي عند القبر". في تعليقه على الوصية الأولى من الوصايا العشر، "أنا هو الربّ إلهك. لا يكن لك آلهة أخرى أمامي" (خروج20: 2)، قال كلفن، "ان أية سرقة لمجد الله، هو أمرٌ غير مسموح به". شبّه كلفن الخليقة بالمرآة، التي تعكس عمل الله وقوته، وتحثّنا للتأمّل بمجده من خلال رؤية أعماله المدهشة. قال: " تعلّمنا الخليقة تقديم الوقار والاحترام لله، وتحثّنا لنطلب منه كل شيء صالح. فالانسان هو عمل الله المبدع، بينما الله هو نبع وأصل كل صلاح". تابع قائلا، "في الحقيقة، تظهر الخليقة عمل الله بشكل مجيد، الى حد انه أي انسان مهما كان أميًّا وجاهلا، فانه لا يمكنه أن يقدّم ذريعة لعدم الايمان. فعظمة مسرح السماء والارض، يجب أن تخولّنا لمعرفة الله". اعتقد كلفن، أن المتأمّل في جمال وسحر الخليقة سوف يطوّر الانسان احساسًا بنعمة الله غير المحدودة، التي زيّنت خليقة بائسة مثل الانسان.

آمن كلفن، أن الهدف الأساسي من خلق الله للانسان هو تمجيده له، والعيش في شركة معه". لخّص اللاهوتي والمفكّر المسيحي بنجامين وارفيلد، حياة المصلح جان كلفن قائلاً: "ليس هناك إنسان على الإطلاق من إمتلك هذا الشعور العميق بمجد الله وحضوره، مثل جان كلفن". قال كلفن: "ليس لاهوت صحيح أن يحصر الإنسان أفكاره في نفسه، وأن يرى وجوده الهدف الأساسي في الحياة، يجب ان يكون لنا الغيرة الشديدة على اعلان مجد الله، لأننا مخلوقون أولاً وقبل كل شيء، لا لأنفسنا وانما لله، لأن كل شيء خلق فيه، وله". في مقدّمة كتابه "أسس الدين المسيحي"، صوّر كلفن، حالة الإنسان بأنه: مستعبد، وأعمى، وضعيف، ومجرّد من كل الفضائل. هدف من تصويره الإنسان في حالة الخطيئة والسقوط هذه، الى إزالة كل إمكانية تمجيد الإنسان لذاته وإعطاء كل المجد لله. قال، "يمكننا ان نحصل على إمتياز رؤية مجد الله، عندما نطرح جانبًا مجدنا الشخصي. فلن نستطيع أن نمجّد الله حتى نتخلّى بشكل كامل عن مجدنا. فالمختارون قد برّرهم الله، كي يقدّموا له وحده كل المجد، وليس لآخر".

رأى كلفن، أن مجد الله يضيء بطريقة مميّزة في الكائن البشري، الذي خلقه الله على صورته ومثاله. شبّه كلفن الانسان بالمرّآة، التي تعكس مجد الله كجزء من خليقته. قال، "أنها المرّآة الاكثر اشراقًا لمجد الله من بين باقي خلائق الله الأخرى، لسبب أساسي هو أنه تسكن في الانسان نفس خالدة، بعكس باقي مخلوقاته الحيوانية والنباتية، التي لا تملك نفسا خالدة". استخدم تشبيه المرآة لسببين: الأول، أن الصورة تشبه الشخص الذي تعكسه. والثانية، لأن الانسان كائن حي ينعكس فيه مجد الله ، الأمر الذي يستبان من خلال مشاهدته والتأمل فيه. ميّز بين: صورة الصورة، ومرآة الصورة. قال: "ليس الانسان صورة جامدة خالية من الحياة، لكنه مرآة حيّة لصورة الله، وذلك لأن الانسان يمثّل جلال الله كونه مخلوقا يملك العقل والفهم والقدرة على التمييز بين الخير والشر، خلافًا للخليقة الصامتة الأخرى التي لا يمكنها فعل ذلك. فالانسان قادر على التجاوب مع الله، بتقديم الشكر والامتنان والتسبيح له. اعتقد كلفن، بأننا لا نستحق هذا

المجد الذي يشرقه الله علينا. قال: "مجدنا ينعكس علينا من مجد الله. ان اعتراف الخليقة بمجد الله والسعي لتمجيده وإعلان اسمه في الحياة، يجعل الخليقة تصل الى هدفها الأسمى، فتحصل على الكرامة التي تليق بها". اعتقد كلفن، أنه ليس هناك جزء من جسد الإنسان الخارجي، لا يعكس بعض إشعاعات مجد الله. فكل عضو من أعضاء جسد الانسان يجب أن يشترك في تمجيد الله، لأن مجد الله يجب أن يظهر في جميع أجزاء أجسامنا. نظر الى الترنيم، على أنه فعل وقار في عبادة الله، يشترك به اللسان لإعلان مجد الله، لأن الله خلق اللسان كيما يخبر بمجد الله وحمده. وبالتالي، كل كلمة تنطق بها ألسنتنا، يجب أن تؤدي الى بنيان الكنيسة وإعلان مجد الله. وكذلك ايضا ، يجب ان نكرّس الأذنين، للإصغاء لكلمة الله. قال، "عندما نكون في الكنيسة، يجب أن نوجّه آذاننا، ليس الى مجرّد الاستماع الى ألحان الترانيم، وإنما الاصغاء الى كلمة الله". يذكر إعتراف إيمان الوستمينستر الانجيلي المصلح: "عندما نختبر الإيمان بالمسيح ونقدّس الله في حياتنا فإن الله يجعلنا بشكل عفوي أدوات لتمجيده، ويؤهلّنا لنشعر بالسعادة الكبرى، عندما نقدم له كل المجد. فكرامتنا هي في مجد الله. وفرحنا هو في مجد الله. وتمجيدنا يكمن في إرجاع كل المجد له وحده". آمن كلفن ،أن جماعة الايمان على هذه الأرض، تعيش على رجاء ظهور مجد الله العظيم، كما قال الرسول بولس: "منتظرين الرجاء المبارك، وظهور مجد الله العظيم، ومخلصنا يسوع المسيح" (تيطس 2: 13).

في مقالته "بنية الطبيعة البشرية المخلوقة: تأثير فكر كلفن الانتربولوجي على لاهوته"، يتوقف اللاهوتي "نيسو فورستر" ،عند فكر كلفن الانتربولوجي، الذي يوجّه لاهوته بعض الأحيان، كما أن لاهوته يؤثر أحيانا أخرى في مفهومه الأنتربولوجي. ربط كلفن، بين معرفة الانسان لله وبين معرفته لنفسه. وهذا الربط هو محوري جدًا في تسليط الضوء على مكانة الانسان المميّزة في الخليقة. تضمّنت معرفة الانسان لنفسه، معرفة حالته الأصلية التي كانت قبل السقوط، حالة البراءة عند خلق الله له. قال كلفن، "هكذا معرفة، تجعل الانسان يفهم صلاح الله، ويدرك أننا نعتمد عليه بشكل كامل،لأنه لا يوجد شيء بدونه. أضاف،"لا يمكن أن يفهم الانسان نفسه بشكل صحيح، إلاّ من خلال علاقته مع الله. فهذه المعرفة الانتربولوجية، يجب أن تخرج الانسان من المحور وتجعله يدرك أننا لسنا لأنفسنا، بل نتمحور خارج أنفسنا، في شركة مع الله ومع القريب". اعتقد كلفن، أن ادراكنا لحالتنا الاصلية في الكرامة التي كنا فيها هي هامة جدا لاهوتيًا، لأنها تدفعنا للعودة الى تلك الحالة الاصلية التي خلقنا فيها. قال، "لم تكن الخطيئة جزءًا من جوهر الانسان. فعندما خلق الله العالم، خلق كل شيء جيدًا، وأيضا الانسان. إن أي مفهوم معاكس لهذا المفهوم، لا يقلّل فقط من مجد الله، ولكنه أيضًا يحدّد موضع الخطية الأصلية في الخالق". اعتقد كلفن، أن صلاح الانسان الأصلي، يكمن في قدرته على العيش في شركة كاملة مع الله. هذا بالاضافة الى امتلاكه فضائل فوق طبيعية، مثل: القدرة على التمييز بين الخير والشر، الطهارة، المثابرة، الفطنة، الاستقامة، البرّ، القداسة، الحكمة، والحقيقة. هذا بالاضافة الى القدرات الطبيعية التي امتلكها الانسان، والتي هي: العقلنة، والفهم، والارادة". اعتبر كلفن هذه القدرات المفيدة، هبات وعطايا مجّانية من الله، وليست امتيازات فطرية في الانسان. إلاّ أن الذي حدث في خطية السقوط ، هو أن الانسان خسر معظم هذه الهبات، ليس لخلل طبيعي ما في بنيته، لكن لأن الله قرّر معاقبة الانسان وتجريده من معظم هذه الهبات، بسبب تمرّده وعصيانه عليه.

آمن كلفن، أن كامل بنية الكون، تجد أرضيتها في المسيح كمصدر لكل شيء. يقول الرسول بولس عن المسيح، "فانه فيه خلق الكل ، ما في السموات وما على الأرض، ما يرى وما لا يرى، سواء كان عروشا أم سيادات أم رياسات أم سلاطين. الكل به، وله قد خلق" (كولوسي 1: 16). فكل شيء هو هبة من الله. أرجع كلفن، هبة الحياة الى المسيح، لأنه نبع ومصدر الحياة. فالمسيح هو الذي ينفخ الحياة والطاقة في كل خليقته، ولا سيما في البشر الذين زوّدهم بالعقل والذكاء. آمن كلفن، أن المسيح هو وسيط أبدي، فهو من البدء يحفظ ويوجّه أهداف الخليقة ويربط الانسانية بالله. فالله أحبّ ويحب الانسان من خلال المسيح

وليس خارجًا عنه. لهذا من المسيح، تنبثق الحياة الينا. وحيث أن الحياة ترتبط بالمسيح، فانه ليس هناك ما يدعى انسانية مستقّلة يمكنها أن تحدّد مصيرها، أو أن يكون لها شركة مع الله، خارج المسيح الوسيط. يذكر اللاهوتي كونليس، في كتابه "سلّم كلفن: لاهوت روحي للصعود"، أن محورية المسيح لدى كلفن لا تهدأ، بل هي دائمًا في حركة، لأن على الانسان ان يتّحد في الله دائمًا من خلال هذا الوسيط. قال كلفن: "بدون المسيح الوسيط، يصبح الوجود الانساني هزيلاً. فحالة كمال الانسان الأصلية، ارتبطت منذ البداية بعلاقته مع هذا الوسيط". وأضاف: "لا يستطيع الانسان أن يعرف نفسه بشكل حقيقي، إن لم يعرف أساس ومصدر وجوده. ان عزل علاقة الانسان الأصلية عن الوسيط الأبدي، لن يقود فقط الى عزله عن نبع الحياة، ولن يعرّض انسداد وتوقيف فيض الهبات من المعطي، فقط الى المخاطر وإنما سيقود الى معرفة مشوّهة عن النفس، فتنتج كبرياءً خاطئًا".

يستشهد كلفن في كتابه، "أسس الايمان المسيحي"، عدة مرات بالفيلسوف اليوناني أفلاطون، الذي تأثّر ببعض أفكاره، والتي منها: أن الجسد سجن النفس، وأن النفس تتكوّن من الفكر والارادة. تغير مفهوم كلفن الأنتروبولوجي خلال مسيرته اللاهوتية. لم يكن يعتقد في البداية، أن للجسد سمات روحية. في عمله الاول "حول يقظة الروح"، الذي أصدره عام 1536. افترض كلفن، أن الجسد لا يظهر صورة الله بأية طريقة، لأن الله الذي هو روح في طبيعته، لا يمكن أن يمثّل بشكل جسدي. قال: "حيث أن الجسد هو سجن النفس، الأمر الذي يقيّد حركة النفس ويضع حدودًا لها، فانه لا يستطيع الانسان التمتّع بالشركة الكاملة مع الله. إلاّ أنه راجع موقفه في أعماله اللاحقة، ليقول أن الجسد يشعّ باشعاعات مجد الله من خلال مظهره الخارجي. في كتابه: "اللاهوت، الأنتربولوجيا، والجسد الانساني في كتاب كلفن "أسس الايمان المسيحي"، يذكر اللاهوتي مايلس، أن المعنى الحقيقي للجسد، يكمن بالنسبة لكلفن، في عكس دينامية النفس. فالجسد الذي قال عنه سابقًا، أنه ذلك الجزء الجامد والبدون حركة وفعالية، فإنه عاد وتكلّم لاحقا عن جمال عمل الله فيه، اذ قال: "الجسد هو هيكل الله، وسيشترك ايضًا في القيامة".

اعتقد لوثر، أن النفس هي مقرّ أو مركز صورة الله، لأن النفس هي روح في طبيعتها وبنيتها الدائمة. ولكونها مقرَ صورة الله، فإنها تسمو على الجسد. قدم كلفن عدة تعاريف للنفس. ربط النفس حينا بالروح، وحينًا آخر ميّز بينهما. وصفها حينا، انها مركز العاطفة، وحينًا آخر وصفها مركز العقل والذكاء. الاّ أن التعريف الأكثر ثباتًا، تعريفه أن النفس تتكوّن من العقل والارادة. اعتقد، أن مهمة العقل هي الاحكام الأخلاقية، بينما مهمة النفس هي الاختيار بناء لأحكام العقل. وعليه، تقوم النفس بتنظيم السلوك الانساني. اعتقد كلفن، أنه عندما كان الانسان في حالته الأصلية قبل السقوط، كان عقله قادرًا على الصعود الى الله لاختبار السعادة الأبدية، الاّ أنه خسر هذه القدرة بسبب السقوط. اعتقد كلفن أن النفس هي روحية في طبيعتها. قال: "حيث أن النفس هي روحية في طبيعتها فإنه يمكنها أن تشابه الله، الذي هو في طبيعته روح، لكن النفس ليست من جوهر الله". وأضاف، "لقد خلق الله النفس من العدم، وهي ولا تشارك بأي معنى في جوهر الله، لأنها مخلوقة. وحيث أن طبيعة النفس، غير مادية كما الجسد، فإنه من الممكن أن تتواجد بشكل منفصل عن الجسد. هذه السمة، هي ما تميّز النفس الانسانية عن النفس الحيوانية، وتجعل النفس الانسانية مخلوقًا فريدًا وخالدًا". اعتقد كلفن، "أن سمة الخلود للنفس، لا يعني أنها تستطيع أن تتواجد دون الله. فالخلود هو هبة من الله، وليس من طبيعة النفس، لأن الله قد غرس الخلود في نفس الانسان". اعتقد كلفن، أن النفس هي التي تضخّ الحياة في الجسد، وتمنحه الحيوية والقدرة على الحركة. وحيث أن الله يمنح الحياة للنفس، تنقل النفس الحياة للجسد. يميل كلفن الى الغموض في وصفه لطبيعة العلاقة، بين النفس والجسد. في طبعته الأخيرة من عمله "أسس الايمان المسيحي" في العام 1559، شبّه كلفن علاقة النفس بالجسد في الانسان، بمجموعة من التشابيه، منها: العلاقة بين الطبيعة الالهية والطبيعة الانسانية في

شخص المسيح. وأيضا العلاقة بين المملكة السماوية والمملكة الأرضية. أصرّ كلفن، على عدم المزج بين الجسد والنفس. قال: "لم تمتزج الطبيعة الالهية بالطبيعة الانسانية في المسيح، بل حافظت كل طبيعة على سماتها، بالرغم من كونهما متّحدتين في شخص المسيح. وكما أن المملكة السماوية هي مملكة روحية لها علاقة بحياة النفس، والمملكة الأرضية ترتبط بحياة الجسد. فالمملكتان متّحدتان وغير ممتزجتين، لكن يمكنهما تواصل البعض من سماتهما بين بعضهما البعض. وهكذا أيضا، فان النفس والجسد متحدتّان في الانسان، دون ان يمتزجا، ويمكنهما تواصل بعض خصائصهما لبعضهما البعض. في جدله مع المصلح أندرياس أوزيندر، الذي اعتقد أن جوهر الانسان ينبثق من جوهر الله. وأن الجسد والنفس معًا، يتضمنان صورة الله بنفس الدرجة. هاجم كلفن أوزيندر بشدة، متّهمًا إياه أنه يمزج السماء بالارض، والأمور السماوية بالأمور الأرضية بنظرته هذه. قال كلفن : " يجب ألاّ يبتلع الروحي بالزمني، والارضي يجب ألاّ يؤلّه، بل يجب أن يكون هناك مساحة آمنة بين الله وخليقته، لكي لا يصنّف الروحي، في نفس تصنيف الجسدي". آمن كلفن أنه يمكن أن يتم تواصل بعض السمات بين النفس والجسد، دون أن يتغيّر جوهر كل منهما.

خسارة واستعادة صورة الله في الانسان

تتشكّل أنتروبولوجيا كلفن، حول بنية الانسان الأساسية المخلوقة، من نظرته لطبيعة صورة الله. إتّبع اللاهوتيون السكولاستيون فكر القديس توما الاكويني، في التمييز، بين: صورة الله، وشبه الله، الوارد في قول سفر التكوين: "وقال الله، نعمل الانسان على: صورتنا، كشبهنا" (تكوين1: 26). اعتقد السكولاستيون أن "صورة الله في الانسان"، تشير الى سمات الانسان التي بقيت معه بعد السقوط،، والتي هي: القدرة على معرفة الله، والعيش حياة اخلاقية. أما "شبه الله في الانسان"، فيشير الى برّ الانسان الأساسي الذي فقده في خطية السقوط. حدّد السكولاستيون موقع النعمة في قدرات الانسان الفكرية. إلاّ أن كلفن في تفسيره لقول سفر التكوين، لم يميّز بين "صورة الله، وشبه الله" لأنه اعتقد أن الكلمتين تشيران الى الشيء نفسه، لكن جاء استخدام الكلمتين لغاية لغوية، هي التشديد على أهمية صورة الله. بنظرته هذه، بقي كلفن واضحًا، أن صورة الله في الانسان ليست وديعة فطرية وطبيعية فينا، لكنها هبة روحية، دينامية في طبيعتها.

اعتقد كلفن أن صورة الله في الانسان، تجعله يسمو على الحيوانات، لأن الانسان خلق ليدخل في شركة روحية مع الله، الأمر غير المتوفر للحيوانات. آمن أن امكانية أن يكون للإنسان شركة مع الله، لا تستند على الطبيعة البشرية، وإنما على المكانة التي يمنحها الله للانسان من خلال الابن الأبدي، إذ من خلاله يدخل الله في علاقة مع الانسانية. أوضح اللاهوتي كونليس، موقف كلفن جيدًا عندما قال: "الانتربولوجيا لدى كلفن، مرتبطة في المشاركة في الابن الأبدي، وليس في حركة فطرية داخلية نحو الله، او في نقطة تواصل معه، لأن الله وهب نفسه للانسان في يسوع المسيح". قال كلفن، "يصير العقل وقوى الانسان الطبيعية، شبيهة بصورة الله، عندما تقاد بواسطة نعمة الله، وتظهر عمله بشكل جلي". وحيث أن صورة الله الأصلية في الانسان تشوّهت بشكل كامل بسبب خطية السقوط، قال، "فإننا كل ما نستطيع أن نقوم به هو تقليد الله بتركيز أنظارنا على المسيح آدم الثاني، لأن الله أعلن عن نفسه من خلاله. فالله يجذب المؤمنين والمؤمنات اليه من خلال المسيح. آمن كلفن أن المعرفة (الحكمة)، والبر (الصلاح)، والقداسة، هي نواة صورة الله التي يجب أن يعكسها الانسان المسيحي في حياته، كما يقول بولس: "ولبستم الجديد ،المخلوق بحسب الله في البر وقداسة الحق" (كولوسي3: 1). "ولبستم الجديد الذي يتجدد للمعرفة حسب صورة خالقه" (أفسس4: 14). اعتقد، أن الغاية النهائية من عكس الانسان لصورة الله، هو ليس فقط تمتّع

جماعة الايمان بمجد الله الذي يرونه في بعضهم البعض، وإنما رؤية الله لمجده في الانسان، كما يرى في مرآة. اعتقد كلفن، أن انعكاس صورة الله، يظهر في سلوك وتصرفات الانسان، وليس في قدراته. نظر الى صورة الله في الانسان من منظار علائقي عائلي: علاقة الله الأب مع الانسان الابن. أشارت نظرته هذه الى ثلاثة معانٍ: الأول، أن الانسان هو من ذريّة الله، يحتوي على سمات نبيلة تخوّله أن يعيش مع الله في علاقة عائلية، كعلاقة الأب بأولاده. حدّد سمات الانسان النبيلة في: العقل، الفهم، القدرة على التمييز بين الخير والشر، بذرة الايمان. شدّد على تشابه هذه السمات بين الانسان وبين الله، ولكن ليس التشابه في جوهر الله. فالاختلاف بين الله والانسان ليس فقط في الدرجات، وإنما في التصنيف. ثانيًا، تشير هذه الأنتروبولوجيا العائلية، الى اعتماد الانسان بشكل كامل على الله، وتحثّه ليعيش حياة شكر وامتنان لله. كما أن الله بدوره، يسرّ بأن يرى الانسان كإبن له. قال كلفن، "هناك تواصل بين الله والانسان. هناك أخذ وردّ. يمنح الله في صلاحه، الهبات والعطايا لأولاده، والأولاد يتجاوبون مع الله، بالامتنان والشكر. ثالثًا، تشير هذه العلاقة الأنتروبوجية العائلية، الى أن الانسان هو وارث لله، كما يقول الرسول بولس، "فان كنا أولادا، فاننا ورثة أيضا، ورثة الله ووارثون مع المسيح" (رومية 8: 17). وهذا الامتياز هو غير متوفر للحيوانات. هذه المعاني الثلاث، تؤسس لفكرة أن الانسان هو الخليقة الأكثر نبلاً بين خلائق الله بل هو تاج الخليقة. في هذا السياق، اعتقد لوثر أن الزواج هو المؤسسة الانسانية التي خلقها الله، كيما توحّد الانسانية مع بعضها البعض. آمن كلفن، أن الانسان يجد علّة وجوده في هذه العلاقة العلائقية مع الله بالايمان. وخارجًا عن هذه العلاقة، يضيع في متاهة كبيرة. اعتقد أن معجزة نعمة الله تقدّسنا وتنهي سيادة الخطيئة علينا، إلاّ أن الخطيئة لن تتركنا، طالما ان الانسان يسكن في هذا الجسد. لهذا، عليه أن يكافح باستمرار ضد هذا الميل الطبيعي للخطية واستقوائها علينا. وحيث أن تجديد الروح القدس لنا، هو تجديد روحي في طبيعته، سنكون معرّضين أحيانا، للتأثر بميولنا وشهواتنا الطبيعية، لأن التقديس الكامل ليس ممكنًا في هذا العالم، لكنه سيتحقق لاحقا عندما تتحرّر النفس من ضعفات الجسد بالموت.

حدّد كلفن موقع الخطيئة في النفس، التي هي المكان الرئيسي لصورة الله. فالجسد الذي يخلو من الجوهر، لا يشوّه النفس لكنه الضحية التي لا حول لها ، أمام شهوات ورغبات الخطيئة المدمّرة. وحيث أن النفس تحتوي قدرات العقل والارادة، فقد كان للخطية تأثير كبير على تلك القوى. فالخطية: أظلمت الفهم، وأعمت القلب، وحرمت الذهن من نور الله المصدر الحقيقي للمعرفة، فصار تفكيره جسديًا. في النسخة الأولى من عمله "أسس الدين المسيحي" الذي أصدره عام 1536، ذكر كلفن أن صورة الله قد أمحت بشكل كامل من الانسان. إلاّ أنه عاد وغيّر نظرته لاحقًا، ليقول أن صورة الله قد تشوّهت وليس محيت في الانسان، فصار يتكلم عن الفساد الكامل للانسان. ميّز كلفن، بين نعمة الله العامة ونعمة الله الخاصة. ربط نعمة الله العامة بالهبات الطبيعية، ونعمة الله الخاصة بهباته فوق الطبيعية، التي يستلمها الانسان بالايمان من خلال عمل تجديد الروح القدس. قال، "الهبات فوق الطبيعية، هي غير موروثة في الطبيعة البشرية ولا مرتبطة بالبقايا المتبقّية من صورة الله، لكنها هبات نعمة الله الخاصة" . وأضاف، " ليست هذه الهبات، نوعًا من ردة الفعل الالهي على حدث الخطية، لكنها جزءء من ارادة الله الازلية المعيّنة التي تربط كل شيء في المسيح". قال كلفن: "خلق الله كل الاشياء، ليكون المسيح هو المخلّص. هذه الهبات فوق الطبيعية الخاصة، تشير الى أن الايمان ليس مبادرة انسانية، وإنما عطية يمنحها الله للمختارين من العلاء".

قال كلفن، " لا يزال يستلم الانسان نعمة الله العامة، ولا يزال قادرا أن يعكس الله بمعنى ما. فنعمة الله العامة تحفظ الانسانية من الفوضى". آمن كلفن، أن الفساد الكامل قد تسلّل الى كل أجزاء الانسان التي تضرّرت بالخطية، لكن لا يزال للانسان بعض بقايا صورة الله. ميّز بين هبات الله الطبيعية، وهبات

الله فوق الطبيعية للانسان. ترتبط الهبات الطبيعية في مجال مملكة الأرض، مثل: الذكاء، الفن، الشعور بالذنب، القدرة على تمييز الخير من الشر، خلق روابط اجتماعية، العمل السياسي والاقتصادي، وغيرها. اعتقد كلفن أن الهبات الطبيعية لم تدمّر بالخطية، ولم تضعف وتتأذى كثيرًا. أما الهبات فوق الطبيعية، فهي ترتبط بملكوت الله السماوي وتكفي الانسان ليعيش حياة سماوية. هذه الهبات، هي: الايمان، المعرفة اليقينية لله، محبة الله، الاحسان للقريب، البرّ، والقداسة، ومثيلها. آمن كلفن أن الهبات فوق الطبيعية، سحبت بشكل كامل من الانسان بعد الدمار الذي سبّبته الخطية بتشويه صورة الله فيه، الأمر الذي جعل الانسان غير قادر ان يخلّص نفسه، لهذا هو في حاجة ماسة الى المسيح. قال، "كل الناس لديهم معرفة في الفطرة عن الله من خلال الأمور التي خلقها وصنعها، والتي هي هبات طبيعية. لكن هذه المعرفة لا تُخلِّص. ولا تقود الإنسان الى المعرفة الأسمى، أن الله هو المخلّص. وذلك لأن الخطيئة أوقعت الإنسان في خراب. فبعد السقوط لا يستطيع أحد أن يختبر الله كأب، كمتمّم للخلاص. لكن الله يأتي إلينا في الهبات فوق الطبيعية التي يمنحها لنا في الوسيط بينه وبيننا، ابنه يسوع المسيح، كيما يصالحنا معه. لهذا، نحن بحاجة ماسة ، أن تأتي إلينا معونة أخرى خارجة عنا، تقودنا الى خالق الكون نفسه. وهذا الأمر يتحقّق، من خلال نور كلمة الله، التي تقودنا الى الايمان بالمسيح، فنستعيد صورة الله فينا، من خلال استعادة: المعرفة الحقيقية المخلّصة، والبرّ، والقداسة. بهذا اللاهوت الأنتروبولوجي، حافظ كلفن على كرامة الانسان الساقط، وامكانية حفاظه على آدابه الاجتماعية التي يشترك فيها مع باقي البشر. وبنفس الوقت استطاع أن يتكلّم عن راديكالية النعمة الالهية في تغييرنا.

على الرغم من أن نتائج الخطية على الانسان، هي شاملة ومنتشرة في كل أجزاء قواه، إلاّ أنها لا يمكنها ان تنتصر على قوة نعمة الله. النعمة في لاهوت كلفن، تقوى على الخطية والطبيعة البشرية، لأن قوة المسيح آدم الثاني هي أقوى من قوة آدم الأول على التدمير. فانتصار قوة النعمة المذهلة على الخطية، يقّدم شهادة عظيمة عن قدرة الله وخلاصه العجيب. تحدّث كلفن عن صلاح نعمة الله التي تعيد صورته الينا بالايمان. آمن كلفن، أن الله يولّد الايمان في قلب الانسان الذي يؤمن، بشكل أحادي من خلال عمل الروح القدس المغيّر. يظهر عمل الروح القدس في التجديد، من خلال: التحويل، التغيير، التصحيح، الاصلاح، في القلب والذهن والارادة، فيتغيّر الذهن والقلب والارادة الانسانية، لتفعل ما يطلبه منها الروح القدس فينا. هنا يسارع كلفن للقول، " لا يعني هذا، أن ارادة الانسان تُجبر قسرًا وعنوة على طاعة الروح القدس. فمع أن الروح، يغيّر الطبيعة البشرية، إلاّ أنه لا يدمّر العامل الانساني، بالرغم من أن نعمة الله هي التي تعمل في تغيير الانسان. فالانسان يعمل، فيما تعمل فيه نعمة الله. والروح القدس لا يتخطّى القدرات الانسانية في تجديد الذهن والقلب والارادة".

قال كلفن: "لو كان الايمان مشروعا انسانيا، لما كنا قادرين على حفظه ونيل الطمأنينة والأمان في ايماننا. عندما يستنير المؤمنون بحدث الايمان بالمسيح، فإنهم يحصلون على الحق بأن يكونوا متبنّين من الله، ومطعّمين في جسد المسيح كأولاد الله". يذكر اللاهوتي كونلي، "استخدم كلفن مفهوم "التّبني" ليسلّط الضوء على راديكالية المشاركة في البركات الالهية، كون هذه المشاركة تؤكد أن المؤمن أو المؤمنة هو وريث أو وريثة السماء، فيستلم كل استحقاقات المسيح. لكن، بنوّة المؤمنين والمؤمنات هي بنوّة مكتسبة، وليست تأليه للطبيعة البشرية". اعتقد كلفن، أن الغاية من عملية التقديس اليومية التي يقوم بها الروح القدس في حياتنا، هو استعادة صورة الله كما يعرضها لنا المسيح. وبالتالي، فان التجديد والتغيير الذي يختبره الانسان من خلال ايمانه بالمسيح، هو صياغة من جديد لصورة الله فيه، كيما يستعيد صورة الله بالتوبة، والاعتراف المستمر بالخطايا، والاماتة المستمرة لشهوات الجسد، لتحيا في حياتنا الهبات فوق الطبيعية

التي هي: البرّ، القداسة الحقيقية، الاستقامة، الطهارة، والنمو في معرفة الله، والتي من خلالها يتشكّل المؤمن والمؤمنة على شاكلة صورة المسيح، وينضم الى عائلته السماوية.

اعتقد كلفن أن صورة المسيح، هي الوحيدة التي تتضمّن جوهر الله وسماته. الاّ أن الصورة المستعادة، وبرّ المسيح الذي يحصل عليه المؤمن. بالرغم من أنه يعكس بعض صفات الله، الاّ أنه لا يمنح الانسان الحق في الاشتراك في جوهر الله الذي يشترك فيه فقط: الآب والابن والروح القدس. ان الأمر الهامّ الذي قام به كلفن من خلال هذا اللاهوت الانتربولوجي، هو انه أعطى مضمونا علائقيا لصورة الله، لكي يضمن وجود مساحة بين الله والانسان، بين الخالق وخليقته. وهكذا، منع أي ذوبان بين الخالق والمخلوق أو أي امتصاص لجوهر بعضهما لبعض. هذا الفصل بين الالهي والانساني، ساعد كلفن ان يقدم الله للانسان، في سياق علاقة شخصية مباشرة بينه وبين الانسان في المسيح. علاقة "أنا – أنت"، فيشارك الانسان مع الله من خلال هذه العلاقة العائلية. وهكذا، يكون التواصل الحقيقي بين الله والانسان ممكنًا، وبنفس الوقت يحافظ على سمو الله. قال كلفن، "بما أن ظلامية الذهن الذي تشوّه بواسطة الخطية، تمنع الانسان من الصعود الى الله. فانه يمكن للذهن أن ينال النعمة اذا ما استنير بواسطة روح الله، وهكذا ينزل الله الينا من خلال روحه القدوس". ربط كلفن، انارة عمل الروح القدس لنا، بكلمة الله المعلنة في الكتاب المقدس. آمن أن معرفة الانسان لكلمة الله، هو جزء أساسي من صورة الله في الانسان، لأن الكلمة تعكس مجد الله، وهي بحد ذاتها صورة حيوية عن الله. فليس هناك معرفة حقيقة عن الله بعيدًا عن كلمته. قال، "كلمة الله هي النظّارات التي تبدّد الظلمة، وتظهر لنا الاله الحقيقي بوضوح".

لاهوت لوثر الأنتروبولوجي

لم يعتقد مارتن لوثر، أن قوى: الفكر، والإرادة، والمشاعر، تدخل في مكونات صورة الله في الانسان منذ أن خلقه. قال: " إذا ما اعتمدنا هذه القوى لتمثيل صورة الله، فإن إبليس قد يصبح صورة عظيمة عن الله، لأنه ذكي جدًا ولديه إرادة مصممة جدًا". آمن لوثر، انه قبل السقوط، امتلك آدم عقلاً مستنيرًا، ومعرفة حقيقية عن الله، ورغبة صادقة في محبة الله والقريب. لكن في السقوط، فقدت صورة الله فيه بشكل كامل. وبالتالي، ليس أحد سوى كلمة الله الانجيل، تستطيع إعادة صورة الله إلينا، كيما بالإيمان الحقيقي، والتبرير أمام الله، نتشكّل ثانية على صورة الله الخالق".

شبّه لوثر، خلق الله للعالم ببناء بيت بكلمته الخلاّقة، مصمّمه وبانيه الرئيسي هو الله. في محاضراته عن سفر التكوين، رسم صورة جميلة لخلق الله للعالم. قال: "العالم هو مسكن الانسانية اللائق. رسمه وزيّنه وملأه الله. زوّد مطبخه بالمزروعات والنباتات، لنقتات منها ونتقوّى بها. إنها علامات صلاح الله". وأضاف، "يرغب الله باني البيت، بالسكن معنا كيما يبقى مع خليقته، وينشغل فيها بطريقة خلاّقة. فالله هو أب بيت هذا العالم". آمن لوثر، أن قول الله "ليكن"، في قصة الخلق، فتح الباب ليكون هناك عالم يسكنه البشر. الاّ أنه حرص أيضا على القول: "إن كان هذا العالم هو بيت للانسان، فإنه ليس مسكنا دائما لجماعة الايمان، بل هو مسكن مؤقت، لأن البيت الحقيقي لجماعة الايمان هو السماء". صرّح لوثر عن ايمانه بالله الخالق، قائلا: "إني أؤمن، أن الله خلقني مع كل شيء آخر، يوجد في هذا العالم. إدراكي لله الخالق، له فرادة شخصية بالنسبة لي". ان تصريح لوثر هذا، يعني أنه مديون شخصيًا لله لخلقه له. لم يكن موضوع خلق الله للعالم، موضوعا عاما بالنسبة للوثر، لكنه مسألة تخاطبه شخصيا وتعنيه بالاسم، كون أن الله خلقه أيضا. رأى نفسه مخلوقًا ومرغوبًا من قبل خالقه. رأى لوثر، أن الله يخاطب الانسانية بشكل خلاّق، ولا يملي عليها. تحدّث عن ولادة الاطفال، كعمل مشترك الهي-انساني: عمل خلق الهي، وعمل محبة انساني يترافقان معًا.

قال: "يمنح الله بدايات جديدة، ويسمح للناس ان يتوالدوا باستمرار. وبهذه الطريقة يحافظ على خليقته. تبدأ الحياة، بتلاقي واتحاد أمرين مختلفين، هما:عمل الله أولاً، وعمل الانسان، ثانيا. فالحياة الانسانية، مديونة لهذا الحدث التواصلي الجوهري، بين ما هو الهي وما هي انساني".

في مقالتها، "مارتن لوثر: الجسم، والادراك، والكلمة"، ركّزت الكاتبة مارغريت مايلس، على إظهار لاهوت لوثر الانتربولوجي، النابع من ايمانه بعقيدة "التبرير بالايمان وحده" ، الأمر الذي كان لديه تبعات على تغيير نظرته الى دور بعض اجزاء جسم الانسان في ايصال الايمان الى الانسان. تبنّى لوثر، تقسيم الرسول بولس للانسان، على أنه مكوّن من: روح، ونفس، وجسم. عرّف "الروح"، على أنها الجزء الأسمى والأكثر نبلاً في الانسان، لأنها هي التي تؤمن. قال: "الروح هي موقع سكن الايمان وسكن كلمة الله. أما النفس، فمع أنها تتطابق في طبيعتها مع طبيعة الروح، لكنها تختلف عنها في المهمة. فالنفس، تعطي الحياة للجسم وتعمل من خلاله. يمكن للنفس أن تعيش دون الجسم، الاّ أنه لا حياة للجسم دون النفس. أما الجسم، فتختلف طبيعته عن طبيعتي الروح والنفس. ومهمته تطبيق وتنفيذ ما تعرفه النفس". وهنا للتوضيح، أودّ شخصيا أن أميّز بين كلمتين متشابهتين نستخدهما باللغة العربية للاشارة الى نفس الشيء، هما: الجسم والجسد، اللتين تميّز بينهما اللغة اليونانية، وأيضا فعل لوثر. المقصود بالجسم، هو الجسم البشري بأعضائه وحواسه. أما الجسد، فبالرغم من أنه في بعض الأوقات، يقصد به أعضاء الجسم. الاّ أنه في كثير من الأوقات، يشير الى انعكاسات مجازية سلبية على الحياة المسيحية.

توقف لوثر، عند حالة الطبيعة البشرية، ما قبل وما بعد السقوط في الخطيئة، ليظهر التدمير الهائل الذي حصل لقوى الانسان بسببها، وليقدّم ديناميات عقيدة التبرير بالايمان وحده. آمن لوثر انه قبل السقوط، كانت صورة الله في الانسان، هي صورة البرّ والقداسة والحق. وبالتالي، كان الانسان ذا طبيعة اخلاقية سامية. وصف صورة الله قائلا، "قبل السقوط، كانت صورة الله التي خلق عليها آدم مميّزة ورائعة، لأنه لم يكن قد طالها بعد، برص الخطية: لا في الفكر ولا في الارادة ولا في المشاعر. كانت جميعها من النوع الأكثر نقاء. كانت قدراته كاملة: فكره الأكثر وضوحا، وذاكرته الافضل، وارادته الاكثر استقامة. كان ينعم بسلام الضمير. لم يعرف القلق، ولا الخوف من الموت. كما أنه فاقت قواه الجسدية، قوى المخلوقات الاخرى: كانت عيناه ثاقبتين، ضاهت عينيّ النسر. كان أقوى من الأسود والدببة، تعامل معها كما يتعامل مع الجراء الصغار. لكن الخطية دمّرته وأثّرت على فكره وارادته ومشاعره وكل جسده. جعلته الخطية عاجزًا أن يسرع بنفسه الى المسيح". اعتقد لوثر أن صورة الله في الانسان فقدت بشكل راديكالي في السقوط، حتى أنه لم يعد قادرًا حتى على معرفة كيف كانت صورة الله فيه قبلاً. قال، "عندما نتحدّث عن صورة الله الأساسية في الانسان، فإننا نتكلّم عن شيء لا نعرفه، مع أننا نحب ذلك كثيرا، الاّ أننا نجد أن كلماتنا تفرغ للتحدث عن هذا الموضوع. فمن يستطيع أن يفهم معنى أن نعيش أحرارًا من القلق والخوف والرعب أو ان نكون متحرّرين من الكوارث الروحية والجسدية؟" وأضاف، "حيث أننا لم نعد نعرف سمات حالة الكمال الانساني التي كانت لنا قبل السقوط، فإننا نتوق لكي نحقّق تلك الصورة في القيامة ولبس الجسد الممجّد الذي وعدنا به المسيح. وهذا سيتحقّق بالايمان بوعود الله لنا في الكتاب المقدس". أظهر لوثر الفرق بين الحالتين، كيما يجعل الانسان يأسف على حالته الحاضرة، ويبرز فيه الشوق العميق للإرتماء في أحضان المسيح، طبيب الانسان الأعظم. اعتمدت اعترافات الايمان الانجيلية الكثيرة التي كتبت في زمن الاصلاح الانجيلي، فهم المصلحين الانجيليين لصورة الله في الإنسان. في تعليقه على كتاب "وستمنيستر الصغير للتعليم المسيحي"، يذكر القس توماس فينسينت، قائلاً: "لا تتضمّن صورة الله في الإنسان، أية مظاهر خارجية لجسد الإنسان، وكأن الله له شكل خارجي. بل أن صورة الله في الإنسان، هي: استقامة النفس الكاملة، المعرفة في الفهم، البر في الإرادة، والقداسة في المشاعر ."يذكر إعتراف الإيمان

الاسكوتلندي، "ان تعدّي آدم وعدم طاعته لوصية الله، أوقعه فيما يسمى الخطية الأصلية. لهذا، فإن صورة الله قد أمحت بشكل كامل منه. لهذا، فإنه هو ونسله قد أصبحوا أعداء الله. عبيدا للشيطان. وخدّاما للخطيئة".

اعتمد لوثر تصنيف الرسول بولس، في اعتبار أي جزء من الانسان، إما جسدي أو روحي. في مقدمة تفسيره لرسالة روميه، قال لوثر، " الجسد بحكم التعريف، هو ذلك الجانب من الانسان الذي لا يستطيع بحكم طبيعته أن يؤمن بكلمة الله ويقدّم نفسه لله". وأضاف، "يجب أن نتعلّم أن ندعو "جسدي"، كل من: يفكّر ويعلّم ويتكلّم عن أمور طبيعتها روحية، لكن دون نعمة. فالجسد لا يشير فقط الى عدم القداسة، وإنما يشير أيضا الى كل الخطايا، وفوقها خطية عدم الايمان، التي هي الأسوأ بين كل الرذائل. فالانسان الجسدي، هو الذي يعمل ويعيش من الداخل والخارج في خدمة الجسد، ليستفيد منه في هذه الحياة المؤقتة". اعتقد لوثر أن الروح، لها علاقة بما يحدث داخل الانسان. قال: "الانسان الروحي، هو الذي يسكن في داخله روح الله الروح القدس، ويطلقه خارجا من أجل خدمة ملكوت الله والحياة الابدية. الانسان الروحي، هو الذي يوجّه محبته نحو الله، ويتصرف بروح النعمة". رأى لوثر، أن الروح والجسد، يتنافسان بينهما على امتلاك الانسان. فعندما تنسجم النفس مع الروح، يعمل الجسد كأداة لروح الله. وعندما لا تنسجم النفس مع الروح، يعمل الانسان كأداة لابليس.

رفض لوثر اعتبار لاهوتيي القرون الوسطى، أن "العين" هي السبيل الى الايمان، وأنها العضو الجسدي الاكثر قدرة على فهم العمق الديني، واعتقد أن "الأذن" هي العضو الأكثر قدرة على فهم العمق الديني. كان لهذا الأمر، تأثير بالغ الاهمية على لاهوته الانتربولوجي. توافق مع لاهوت الكنيسة الذي نظر الى الجسم كممر للعبور الى نفس وروح الانسان. إلاّ أنه لم يتوافق معها، في التشديد على العيون لفهم العمق الديني. شدّدت الكنيسة على أهمية العيون التي ترى الصور الدينية والأيقونات والتماثيل الدينية لتستلهم منها الايمان، لكن لوثر اعتقد أنّ الأذن هو العضو المهم في نقل الايمان الصحيح. انّ اهتمام لوثر، في وعي وادراك الانسان الداخلي، يسبق ويحكم على كل النشاطات والتصرفات الخارجية التي تصدر عنه. كان اهتمامه بما يحدث في عمق قلب الانسان، ولم يهتّم كثيرًا للأمور الخارجية المرئية بالعين. اعتقد أن التصرفات الخارجية، إنما هي انعكاس وتعبير عمّا في داخل الانسان. مع أن لوثر لم يدعو الى التحطيم العنفي للصور الدينية من الكنائس أثناء حركة الاصلاح، إلاّ أنه كان مدركًا للمنطق الذي استخدمه بعض المصلحين الذي دعوا الى ازالتها. قال "لقد تعاملت مع موضوع تحطيم الصور، بتحطيمها وازالتها أولاً من القلب بواسطة كلمة الله، فصارت لا قيمة لها، لأنه عندما تزال الصور أولاً من القلب، فإنها لا تعود تؤذي العينين عندما تراها". انتقد لوثر بشدة المصلح كارلستادت، الذي عمل الى جانبه عند انطلاق حركة الاصلاح، الاّ أنه انفصل عنه، لبعض الأسباب ومنها، أنه كان من الداعين بقوة الى ازالة الصور من الكنائس. قال "إن كارلستادت قلب الترتيب الصحيح للأمور. فأزال صور القديسين من العيون، لكنه تركها في قلوب المصلّين".

ميّز لوثر بين: كلمة الله المرئية بالعيون أو المكتوبة، وكلمة الله المسموعة بالأذن، أو الموعوظة. اقتبس الرسول بولس، "فكيف يدعون بمن لم يؤمنوا به؟ وكيف يؤمنون بمن لم يسمعوا به؟ وكيف يسمعون بلا كارز؟" (رومية 10: 14). قال لوثر، "ينقص النص المكتوب الموحى به من الله، قوة المخاطبة المباشرة للانسان، والتي هي سمة الكلمة الموعوظة والمسموعة، التي تتزامن مع العمل الروحي الداخلي للكلمة في التغيير". وأضاف، "يحدث الاصغاء لكلمة الله، عندما تصعق أذن السامع بصوت الواعظ، فتصبح أكثر تأثيرًا من الكلمة المكتوبة. فالكلمة المكتوبة، لا تنقل حدث التبرير بالايمان، مثلما تنقله الكلمة المسموعة بالوعظ. لم يوصِ المسيح الرسل بالكتابة، وإنما بالوعظ. فالكلمة الموعوظة تواجه السامع: تسأله. تبكّته. تدينه. وتخلّصه. لهذا، يجب أن يوعظ بالانجيل بقوة. فمهمة الوعظ هي تحديدًا، ترجمة كلمة الله المكتوبة

الى كلمات حيّة، تنقل السامع الى محضر الله. عندها يندهش السامع بكلمة الله الموعوظة، وتعمل النعمة الالهية في أعماق قلبه، والروح يحييها ويخلق لها يدين ورجلين لتعمل عملها فينا".

الفصل الثالث

المفهوم الانجيلي للروحانية

اصلاح الروحانية

في مقالته "اصلاح مارتن لوثر للروحانية"، للكاتب سكوت هاندركس. يسلّط الكاتب الضوء على مفهوم "الروحانية" لدى لوثر. يقول، " نادرا ما استخدم لوثر مصطلح "روحانية"، لأن هذا المفهوم ارتبط بالعديد من الطقوس والممارسات الكنسية السائدة، التي كان يرفضها لأنها لم تعكس المضمون الحقيقي للايمان المعلن في الانجيل. لهذا فضّل استخدام تعبير "الحياة الروحية". كتب العالم الكاثوليكي، جارد ريكس، عام 1983، كتابًا بعنوان: "مارتن لوثر وتأثيره الروحي". قصد بتعبير "تأثير لوثر الروحي"، كل كتابات لوثر التي تخاطب الانسان المسيحي وتقوده الى حياة مسيحية اصيلة. وأيضا كتب إريك غريتش، كتابًا بعنوان "الايمان في المسيح والانجيل: مجموعة مختارة من كتابات لوثر الروحية". استخدم في كتابه مصطلح "روحية"، للاشارة الى كتابات لوثر التي تزوّد الانسان المؤمن بدليل للعيش المسيحي، ولتمييز تلك الكتابات، عن كتابات لوثر الهجومية والاجتماعية والسياسية. نظر لوثر الى الروحانية التي كانت سائدة في كنيسة القرون الوسطى، أي الممارسات والنشاطات الروحية التي كان يقوم بها رجال الدين، على انها لا تقدّم شيئًا للايمان المسيحي. وصفها أنها نشاطات مختارة من قبل الانسان، وليست موحى بها من الله. بعد اختباره كراهب في الدير، والتزامه بصرامة وجدّية بكل طقوس ونشاطات الدير، أدرك لوثر أنه لم يكن لها قيمة في نظر الله. لهذا لم يعتبرها جوهرية للحياة المسيحية، ولا تقدّم شيئًا للحياة الروحية. قال:

"لأكثر من عشرين سنة، كنت راهبًا تقيًا. قرأت القدّاس يوميًا. أضعفت جسدي بالصوم والصلاة، حتى اعتقدت ان قواي لن تسعفني اذا ما اكملت على هذا النحو. لكن بالرغم من ذلك، لم تساعدني تلك الروحانية في حل أزمة صغيرة. كنت أقول للرب: تطلّع وكن منعمًا يا رب، لكن بعد بداية الاصلاح، صرت أرتعب لمجرّد تفكيري في كل تلك الأمور". اعتبر لوثر، أن روحانية القداديس الكثيرة وسهرات الصلوات للقدّيسين حتى منتصف الليل، وتكريس الحياة لقديس معيّن دون آخر، ورحلات الحج، ونظام التوبة مع صكوك غفرانها. فانها كلها لم تبرّر لوثر أمام الله، ولم تجلب له السلام وراحة الضمير.

بعد أربع سنوات من بدء حركة الاصلاح، دأب مارتن لوثر على تأسيس ما أسماه، "تقوى جديدة" أو اسلوب روحي جديد لممارسة الايمان المسيحي. لم تكن نية لوثر تأسيس كنيسة جديدة، وإنما روحانية جديدة. في غضون عشر سنوات على اطلاقه حركة الاصلاح الانجيلي، كان لوثر قد الغى معظم تلك الممارسات والطقوس، في الكنائس التي تحوّلت الى الايمان الانجيلي في منطقة سكسوني، مع ابقائه على بعض الممارسات التي اعتقد انها انسجمت مع مفهوم الكنيسة في الكتاب المقدس، مثل: المعمودية وليتورجياتها، الاعتراف بالخطايا وتأكيد الغفران في الشكل الفردي والشكل الجماعي. تبنّى لوثر فقط سرّين للكنيسة: المعمودية والعشاء الرباني، ورفض اعتبار الأسرار الخمسة الباقية، على أنها اسرار، واضعًا مفهومًا جديدًا للسرّ. أيضا، استمرّ في اتباع روزنامة الفصول الكنسية، وانما ابقى على الاعياد المسيحية الأكثر أهمية. كان ايقافه للطقوس والممارسات التي لم يقتنع بانسجامها مع مفهومه للايمان، عملية تدريجية. مثلا، أوقف في مدينته ويتنبرغ التي أطلق منها حركة الاصلاح، عادة جمع ذخائر القديسين والقداديس الخاصة، بحدود العام 1525 أي بعد حوالي ثماني سنوات من بدء الاصلاح. كما توقفت بشكل علني، ممارسات: التكريس الخاص لقديس معيّن، صلاة المسبحة، الماء المقدسة، وغيرها. الاّ أنه استمرت لبعض الوقت، بعض الطقوس والممارسات بشكل خفي داخل الابواب المغلقة في منازل انجيلية. وهذا ما كشفه "سجلّ الزيارات" إذ شكّل قادة الاصلاح، مجموعات لزيارة البيوت الانجيلية، للتأكّد إن كان لا يزال فيها بعض مخلّفات الروحانية التقوية القديمة. الاّ أنه بمرور الزمن، توقّفت تلك الممارسات بشكل كامل في مدينة ويتنبرغ التي انطلق منها الاصلاح.

في بداية كتابه "الروح الخالق: تعاليم لوثر عن الروح القدس"، ذكر الكاتب ريجن برنتر، "ان جوهر روحانية الاصلاح الجديدة، التي جاء بها المصلح مارتن لوثر، هي الارتباط الوثيق في شخص المسيح. شدّد لوثر، على عامل الروح القدس الذي يلعب دورًا محوريًا في الروحانية المسيحية. قال، " الروح القدس هو الذي يعمل فينا كيما يخلق هذا الارتباط بيننا وبين المسيح من خلال كلمة الله وسريّ الكنيسة. فلن يكون هناك عملل حقيقي للروح القدس فينا، إن لم يربطنا في المسيح. ولا يستطيع الروح القدس أن ينقلنا الى الحياة الجديدة خارجًا عن المسيح". تحدّث لوثر عن اختباره الروحي قائلا: "عندما آمنت بالمسيح، اختبرت حلول الروح القدس. فأخذني مثل الطين والخزف وصاغني خليقة جديدة. تضمّنت هذه الحياة الجديدة، قلبًا جديدًا، وفهمًا جديدًا، ومعرفة حقيقية جديدة عن الله، وثقة صادقة في نعمته. أن أولد من جديد يعني أن يكون قلبي، قد: تجدّد، وتغيّر، وثبت فيّ نبتة جديدة طعمّت في المسيح كالغصن في الكرمة، لأنمو فيه". إحدى النصوص الكتابية التي اختارها لوثر، للتحدّث عن الروحانية بمفهومه الجديد، هو نص انجيل يوحنا، حول الكرمة والأغصان (يوحنا 15: 1-11). اعتقد لوثر، أن المسيح في هذا النص، يتكلم بشكل حصري عن ملكوته الروحي، لأنه بدون المسيح وبدون الثبات فيه، لا يستطيع الانسان أن يفعل شيئًا. دعا هذه الروحانية "الملكوت الروحي" أو "حقل الله". توقّف عند قول يسوع: "أنا الكرمة وأنتم الاغصان. الذي يثبت فيّ وأنا فيه، هذا يأتي بثمر كثير. لأنكم بدوني، لا تقدرون أن تفعلوا شيئًا" (يوحنا15: 5)، قائلا: "يجب أن يولد في داخلنا، شخص جديد. يجب أن تحدث فينا ولادة جديدة. ليست المسيحية ثوبًا

نلبسه، ولا تبنّي اسلوب جديد للعيش، كأسلوب الرهبنة الذي هو "قداسة ذاتية مختارة"، لكنها ولادة جديدة بكل ما في الكلمة من معنى، ولادة روحية تحدثها كلمة الله وروحه فينا. وهذا يتحقّق عندما يولد القلب في المسيح ، وتخرج منه ثمار صالحة، مثل: الوعظ والكرازة بالانجيل، سرّي الكنيسة، وأعمال المحبة والرحمة، وتصرفات مرئية تعكس ملكوت الله الروحي". أضاف، "ليست الحياة المسيحية شكلاً نحن نختاره للقداسة، لكنها تنبعث تلقائيًا من الولادة الجديدة التي اختبرناها في المسيح. فمن هذا التغيير الداخلي، تخرج كل الممارسات والنشاطات الخارجية التي تنسجم مع الايمان، وتمجدّ الله . فانه،عندما لا تغذّى الحياة المسيحية بسلوك وتصرفات وثمار تليق بمجد الله، فإنها تنشف".

ميّز لوثر، بين: الأعمال الصالحة التي يقوم بها الانسان المسيحي مدفوعًا بايمانه بالمسيح، والأعمال الصالحة التي يقوم بها غير المسيحي. قال، "أعمال المسيحي الصالحة، هي ثمرة ايمانه لانها تنبع من ارتباطه الوثيق بشخص المسيح، كارتباط وثبات الغصن في الكرمة. فالمسيحي، الغصن في الكرمة يستمدّ حياته، من الحياة التي يضخّها فيه الكرمة المسيح، كما تضخّ الكرمة الخصوبة والحياة في الأغصان. عرّف الروحانية، قائلاً: " الروحانية هي: أن تعبد، وتعظّ، وتشجّع، وتقوّي الضمائر المضطربة، وتعاقب المخطئين بحرمانهم من الاشتراك في العشاء الرباني، وتقوم بأعمال المحبة والرحمة، وتحمل الصليب". كتب قائلاً، "يصبح المسيحيون ثمارًا صالحة. ليس بجهودهم الذاتية، وإنما بفضل المسيح. ويتحقق ذلك عندما: يعظون بالكلمة، ويشجّعون، ويتألّمون، ويعزّون". تابع قائلا: "الشفاه هي شفّتا المسيح. الألسن هي لسان المسيح. الأيادي الخادمة هي يدا المسيح. لا يفعلون هذا كأولاد آدم، وإنما كأولاد المسيح، لأن المسيح هو العامل فيهم أن يريدوا وأن يعملوا من أجل المسرّة". اعتقد لوثر، أن العيش في ملكوت المسيح الروحي، يجعل الانسان المسيحي مميّزا عن الآخرين، لارتباطه الوثيق في شخص المسيح. لهذا، شدّد على أهمية الارتباط الوثيق بل التطعيم في المسيح، كما يطعّم الغصن في الكرمة. تحدث عن مدى وثاقة هذا الارتباط، بقوله: "يصبح المسيحيون الحقيقيون، رغيفًا واحدًا وجسدًا واحدًا مع المسيح، مشاركين في ملكوته الروحي".

التقوى وليس الروحانية

برز في تاريخ الفكر المسيحي على الأقل توجّهان من التقوى المسيحية: الأول، توجّه الايمان الأعمى الذي إلتزمت به جماعات مسيحية، وأنكرت أيّة قدرة للعقل للوصول إلى أية يقينيّة أو حقيقة في مسائل الإيمان، وهكذا رفضت كل التساؤلات والشكوك واعتمدت في يقينها فقط على الإيمان. الثاني، توجّه أعطاء العقل دورًا إيجابيًا في البحث عن الحقيقة، التزم به المصلحون الانجيليون، أمثال: لوثر، ميلنكتون، وكلفن، وغيرهم. "التقوى"، هو المصطلح الذي فضّل المصلحون الإنجيليون إستخدامه لوصف عيش الحياة المسيحية. فالمعنى الأساسي لمصطلح "التقوى" اللغوي هو "عبادة الله". وفي المعنى الثانوي، التقوى هي تقديم الإحترام للأهل والسلطات، والقيام بأعمال رحمة للآخرين المحتاجين. عرّف جان كلفن "التقوى"، على أنها: "الوقار الممزوج بمحبّة الله. انه موقف مسيحي، ينشأ من التفكير في هبات الله". رأى كلفن التقوى الأساس الذي تبنى عليه الحياة المسيحية، للنمو في المسيح". أطلق على عمله "أسس الإيمان المسيحي"، تسمية "ملخّص التقوى"، لأنه أراد من خلال كتابه المميّز هذا، أن ينشر العقيدة الصحيحة، ويشرح كيف تكون التقوى المسيحية الحقيقية. لم ينظر كلفن إلى التعليم اللاهوتي، كمسعى أكاديمي فقط، لكنه وجد في دراسة اللاهوت فرصة جوهرية، من أجل إمداد المسيحيين بالمعرفة لخيرهم. لم يرَ أن التقوى هي مجرّد إهتمام روحي ساذج، ينقصه الكثير من المعرفة، كما ينظر الكثيرون إلى هذا التعريف اليوم، بل

بالعكس، رأى انه لا مكان للجهل في مضمون الايمان في التقوى. فالتقوى الجاهلة، لم توجد في فكر كلفن، لأن التقوى الحقيقية تسعى باستمرار لمعرفة الله، من خلال الدراسة المعمّقة لكلمته المقدّسة.

اعتقد كلفن، أن اللاهوت والتقوى ينتميان إلى بعضهما البعض. قال، "من الممكن التمييز بين اللاهوت والتقوى لنرى الفرق بينهما، لكن لا يمكننا الفصل بينهما. آمن أن الحياة المسيحية تبدأ في التجديد، عندما ينقل الروح القدس قوّته المغيّرة الينا، وتستمر حياتنا المسيحية بالنمو حين يوجّه الروح القدس حياتنا، من خلال وسائل النعمة، التي تقودنا في حياة القداسة. اعتقد كلفن أن التقوى هي ثمرة المعرفة الصحيحة لله ولنفوسنا. وهذه المعرفة تتطلّب الدراسة المنتظمة لكلمة الله للحصول على الارشادات الإلهية، لأن الكتاب المقدس هو الذي يحدّد طبيعة عقيدة التقوى. قال، "تتضن حياة التقوى عنصرين أساسيين: الدراسة الشخصية لكلمة الله، والمشاركة الفاعلان في اعلان حقائقها، من خلال الوعظ باستقامة بالكلمة، وإرشاد المؤمنين نحو الحياة المسيحية. آمن كلفن، أن الله يتعامل مع مختاريه الأتقياء من خلال وسيلتين: الأولى، من الداخل بواسطة الروح القدس. والثانية من الخارج بواسطة كلمة الله. فمن الداخل، ينير الروح القدس عقول المؤمنين ويوجّه قلوبهم، نحو محبة البِّر، والقيام بأعمال الخير والصلاح، جاعلاً منهم خليقة جديدة. ومن الخارج، ينشىء فيهم من خلال كلمته المقدسة الرغبة الصادقة ليعيشوا حياة التقوى المسيحية.

التقوى هي الاتحاد السرّي مع المسيح

عرّف كلفن التقوى، على أنها اتحاد المؤمن السرّي في المسيح. قال، "هذا الاتحاد هو حقيقة جوهرية في حياة الايمان". ظهرت في بعض كتابات القرون الوسطى، تلميحات إلى عقيدة "وحدة الوجود" الوثنية، والتي تفيد ان الله موجود في كل الاشياء، لكن كلفن كان حذرا جدا في التشديد، على الفصل والتمييز بين الله الخالق، وأي شيء آخر مخلوق. عرّف التقوى على أنها، الشركة الروحية والاتحاد في المسيح، التي يتمتع بها المؤمنون. إلا أنه شدد كثيرا، على ان هذا الاتحاد، لا يعني الذوبان في شخص المسيح، وفقدان المؤمن لهويته الفريدة التي هي هبة الله للانسان. شبَّه كلفن العلاقة الحميمة، بين المؤمن والمسيح، بالعلاقة الحميمة التي تخلق في الزواج، وتتضمّن الشركة الشخصية العميقة والصداقة. احدى تعاريف الايمان، التي استخدمها، هي "الاحتضان الدافىء في المسيح الذي يسكن فينا، والامتلاء بروحه القدوس". قال: " لا يعلن لنا الله، فقط فضله وهباته، وإنما بالدرجة الأولى نفسه، لأن الإيمان هو ليس مجرّد النظر إلى المسيح، وإنما إحتضانه ومعانقته والإتحاد معه، كيما يسكن فينا". اعتقد، أن الإيمان المبرِّر، يقود المؤمن إلى علاقة شخصية حميمية وسرّية مع المسيح. قال، "يعتبر معظم الناس أن: الشركة مع المسيح، والإيمان به، هما نفس الشيء، إلاّ أني أرى غير ذلك. الشركة مع المسيح، هي نتيجة الإيمان به. عندما نختبر الايمان، لا نلتصق فقط في شخص المسيح في رباط من الوحدة، وإنما نرتبط بشركة روحية أجمل، فننمو تدريجيا، يومًا بعد يوم في جسده، وننمو بشكل كامل معه".

عمل الروح القدس في التقوى

اعتقد كلفن أن إعلان الله الخاص في يسوع المسيح ، بواسطة الروح القدس، هو الأساس للتقوى الحقيقية. آمن أن الروح القدس هو الذي يخلق فينا الإيمان، عندما نقرأ كلمة الله، ونلتصق بها وهكذا نعيش حياة التقوى. قال، "لا يستطيع أحد اختبار الايمان، دون شهادة الروح القدس، الذي يقنعه بالايمان. ولن يكون هناك حياة روحية فينا دون تجديد الروح القدس. ان تجديد الروح القدس، يجعلنا نختبر الإيمان

المخلِّص في المسيح يسوع". اعتقد كلفن أن الروح القدس، لا يبادر فقط بمنحنا نعمة الإيمان في الحياة، لكنه أيضًا ينمّي فينا الإيمان، كيما يقودنا إلى ملكوت الله. قال، "يمحوّرالروح القدس حياتنا حول كلمة الله، الكتاب المقدس، فنطيع كلام المسيح وتعاليمه في كل حياتنا وتصرفاتنا. والإيمان يؤكّد على رسالة الكتاب المقدس، لأن الروح القدس ينير فكر الإنسان، حتى يؤمن ويحتضن المسيح، موضوع إيماننا". وأضاف، ان "لا يضيف الروح القدس على وحي الكتاب المقدس، لكنه يتكلّم فينا، عندما نقرأ كلمة الله، ويهيئنا لاستلام رسالته كحقيقة في الحياة. وبالتالي، فالتقوى مرتبطة وملتصقة بشكل مباشر بكلمة الله".

آمن كلفن، أن الروح القدس: ينير الكلمة، ويمنح الإيمان، ويوحّدنا بالمسيح، ويقودنا الى الثقة به، لنختبر يقين الخلاص. وهكذا يقود الروح القدس جماعة الايمان إلى التمسّك بالعقيدة الصحيحة، التي بدورها تنظّم كل الحياة. فالروح القدس، هو السلطة الأساسية: للعقيدة، والممارسة، وكل تفاصيل الحياة. في حين أن الفلاسفة اعتمدوا على العقل وحده، واتّخذوه الدليل الأعلى للحياة، آمن كلفن والمصلحون، بضرورة اخضاع العقل للحقيقة المعلنة في الكتاب المقدس. والحقيقة المعلنة، تتطلّب من العقل أن يعطي المكانة الأولى لعمل الروح القدس، كيما يخضع الانسان المؤمن لقيادته. اعتقد كلفن أن المعرفة الكتابية هي أساسية في اختبار يقينية الإيمان، الاّ أنها تُكتسب من خلال تعليم الروح القدس، وليس من خلال ذكائنا الانساني. آمن أن الروح القدس، هو روح الله، وروح المسيح. وصف عمل الروح القدس في داخل الانسان، بقوله، "إن بداية ونمو كلّ شيء صالح فينا، يرجع إلى عمل الروح القدس. الله يمنحنا الروح القدس كيما يقودنا، ويمنحنا الحكمة، كيما نميّز بين ما هو صواب وما هو خطأ، ويوجّهنا لنقوم باعمال الصلاح ونختبر ثماره في الحياة". دعا كلفن جماعة الايمان الى عدم الفصل بين الروح القدس، وكلمة الله، كما كان يفعل بعض راديكاليو إصلاح عصره. فهم أن الإيمان الحقيقي، يتجسّد بالإستمرار والحفاظ على علاقة الثقة المخلّصة من خلال قوّة الروح القدس. قال، "الروح القدس هو الذي يربط المؤمنين على الأرض، بالمسيح الذي في السماء. انه الوحيد الذي يستطيع أن يجمع الأرض بالسماء".

التقوى هي السلوك في القداسة

لم يوافق كلفن، مع القائلين ان الايمان هو مجرد معرفة أكاديمية، لأنه إعتبر أن الإيمان الذي يصل إلى العقل ويتوقّف عند العقل فقط، فإنه لن يقود الإنسان إلى العيش بالتقوى. فهم كلفن تعقيدات الطبيعة البشرية ورأى أن علينا ان نختبر محبّة المسيح ليس فقط في عقولنا، وإنما أيضًا يجب أن تشارك فيها عواطفنا وإراداتنا وكل حياتنا. قال كلفن: "علينا أن نمتلك المسيح، إلاّ أننا لن نكون قادرين على ذلك، إن لم نصير مشاركين في قداسته. فالله لا يمنحنا نعمة التبرير، دون منحنا نعمة التقديس من خلال السلوك في حياة البر والصلاح والاستقامة، لكي ننمو في الحياة الروحية. فالذين يختبرون خلاص الله في المسيح، يعملون على ارضائه بسلوكهم في حياة القداسة". أضاف قائلا، " لم يعطنا الله كلمته، فقط ليخبرنا كيف نتكلّم بفصاحة وبلاغة، وكيف نتعلّم منها، وإنما أعطانا كلمته كيما يصلح حياتنا، فنخدمه ونتصرّف بناء لمرضاته". آمن كلفن، ان التقوى تتطلّب من الذين اختبروا الايمان بالمسيح، ترك الممارسات الخاطئة، والعيش تحت سيادة روح الله القدوس، الذي هو نبع كل قداسة وبِّر وكمال. وحتى يتمكن المؤمنون من العيش حياة مسيحية حقّة ومستقيمة، فهم يحتاجون إلى تعليمات واضحة من كلمة الله الكتاب المقدس". لم يعترف كلفن بايمان، اولئك الذين ادّعوا اختبارهم للإيمان دون انعكاس ذلك في سلوكهم وحياتهم. قال، "نحن لا نصدّق أولئك المتصوفين الساذجين، الذين يقرأون آيات الكتاب المقدس من رؤوس ألسنتهم، دون إظهار فعاليته في حياتهم. فالكتاب المقدس يجب أن يخترق حياتهم، ويسكن في قلوبهم ويؤثّر على كامل الإنسان فيهم". وأضاف، "إذا ما أردنا أن نعرف إن إستفاد إنسان ما من قراءة الإنجيل أم لا، علينا أن

نلاحظ مسيرة حياته وتصرفاته. فإذا لم تنسجم مع مبادىء وقيم وأخلاقيات الكتاب المقدس، فهذا يعني أنه لم يختبر التقوى الحقيقية".

بالرغم من أن كلفن كان حريصًا جدا، على ارجاع الفضل في عمل الخلاص، بشكل كامل لنعمة الله، إلاّ أنه أيضًا فهم أن النعمة الإلهية، لا تُنكر أو تستثني مسؤولية المؤمن الشخصية في تلمذة نفسه، والحرص على السلوك بالقداسة والبر، كيما ينمو في التقوى. فالمشاركة في المسيح، تبدأ عند إختبار تجديد الروح القدس في الحياة، الا أن ناموس الله يعلّم المؤمنين: من هو الله، وماذا يطلب منهم، كي يعيشوا لأجله ويخدموه. قال كلفن: "نحن مكرّسون لله، كيما نستطيع أن: نتكلّم، ونفكّر، ونتأمّل، ونسلك، وأن نقوم بكل شيء لأجل مجده. وهذا ما يتطلّب الإنكار المستمر لذواتنا، وإخضاع عواطفنا وكل ما نملك له. وهذا الأمر لن يحصل، إن لم يكن هناك إماتة داخلية فينا، لأن جذور الخطية تبقى دائمًا موجودة، حتى في حياة القديسين". وأضاف: "ممّا لا شكّ فيه أن المؤمنين يختبرون، توتّرات وصراعات داخلية شديدة، لأن جهودهم في إنكار الذات، تتصارع مع رغباتهم الطبيعية الخاطئة، والميول الشريرة فيهم. لهذا، يجب أن يكونوا صارمين في التعامل مع شرورهم للتخلص منها. علينا أن نجاهد ونناضل ونصارع ونستخدم كامل طاقتنا، عندما نتواجه بالتجارب المريرة، كيما نقضي على الشرور التي تواجهنا. وهذا الأمر يتطلّب أولا ، إنكار ذواتنا". آمن كلفن ان الحياة المسيحية، هي حرب لا هوادة فيها ضدّ الخطية. الاّ أنه مهما حاول شعب الله، أن يقمعوا هذه الشرور التي تواجههم، فإنه سيبقى البعض منها فيهم، ولن يتمكنوا من مصارعة الخطية، دون معونة الهية. قال، " بما ان الله يعلم ضعفنا، فإنه يزوّدنا بالروح القدس كيما يعمل بشكل مستمّر فينا، كيما يميت فينا تدريجيا بقايا الخطية، ويجدّد فينا الحياة السماوية" .

الصلاة هي من صميم التقوى

بالرغم من توفّر عدة عوامل جعلت حركة الإصلاح الإنجيلي ممكنة، في القرن السادس عشر. إلاّ أنّ المصلحين الإنجيليين آمنوا، أنه لولا قوّة الصلاة والاعتماد على عمل روح الله الذي أمدهم بالقوة والشجاعة والصبر، لما استمرت حركة الاصلاح في وجه الضغوطات الهائلة والتحديات الكبيرة التي واجهتها من السلطات الكنسية والمدنية. في كتابه "صلوات المصلحين"، للكاتب كلايد ماتشوك، يذكر الكاتب "بأن صلوات المصلحين تعبّر عن جانب روحي شخصي للإصلاح، غالبًا ما يُغفل عنه، في الدراسات الموضوعية عن حركة الإصلاح. فإنه عندما ندرس مضمون صلواتهم، نستطيع أن نرى عظمة إيمانهم وشدّة تكريسهم وأمانتهم لله". كان المصلحون الأتقياء، رجالات صلاة بل محاربو صلاة، متجذّرون في الكتاب المقدّس، آمنوا بقوة الصلاة وقدرة الله على تغيير الأمور. ان سر ايمان المصلحين بفعالية وقوة الصلاة، نبعت من ايمانهم ، بأنّهم لا يخدمون الهًا محدود القوة والسلطان، ومحكومًا عليه بمخططات مناوئيه، لكنّهم يخدمون الله القادر على كلّ شيء الذي أعلن عن نفسه بابنه يسوع المسيح، والذي له السلطان على مجريات الأمور في الحياة والتاريخ. قال مارتن لوثر: "القوّة تأتي من مخدع الصلاة". من مخدع الصلاة خرجت القوّة التي هزّت العالم. وأثناء قيادة حركة الاصلاح، كان للمصلحين اليقين الكامل أن هذا العمل العظيم، ليس عملهم بل عمل الله العامل فيهم. لهذا، فإنهم لم يرجعوا الفضل والمجد في اطلاق واستمرار هذه الحركة الى أنفسهم، بل الى الله وحده.

هاجم لوثر عام 1522 ، كتب الصلوات الكنسية الرائجة في كنيسة القرون الوسطى، معتبرًا أنها تقدّم تعاليم وعقائد مضرّة، تضلّل وتخدع المسيحي، وتزرع في أذهان البسطاء افكارًا خاطئة عن الصلاة. وصفها قائلا، أنها: تعلّم أن الله سيسمع للمصلّين ان كانوا مستحقّين أم لا. انها تشجّع الصلاة للقديسة مريم وقديسين آخرين. اعتبرت الصلوات أعمالا صالحة. اعطت قيمة للتكرار. حصرت الصلوات فقط في

الكهنة، معتبرة ان الصلوات هي بالدرجة الاولى مهمة الكاهن. دعا لوثر الجميع الى الصلاة قائلا، "على جميع المسيحيين، وليس الكهنة فقط أن يصلّوا. عليهم أن يرفعوا طلباتهم بإصرار الى الله، دون أن يكرّروا صلواتهم، بلا تفكير". شدّد، على ضرورة ادراك معنى الكلمات التي نرفعها، ومعرفة ماذا نصلّي لأجله. قال، "لم نكن نعلم في الماضي، كيف نصلّي. كنا فقط، نقرأ ونردّد الصلوات المدوّنة في كتب الصلوات الكنسية، دون تفكير. لكن يجب علينا أن نفكّر جيدا في كلماتنا، لكي لا تكون صلواتنا بشكل ميكانيكي".

واجه لوثر ضغوطات السلطات الكنسية والزمنية بقوة الصلاة. عندما كان يتعرض لتهديدات جمة، كتب قائلاً: "إبليس يستشيط غضبًا، والناس غير الأتقياء يهدّدون بالقضاء علينا، لكن نحن ندعو للحرب بشجاعة أمام عرش الله، بقوّة الإيمان والصلاة. حاجتنا الحقيقية هي للصلاة. عملنا الأساسي هو الصلاة". أضاف، قائلا "نحن سوف نحقّق بصلواتنا، أكثر ما يحقّقه مناوئينا بكبريائهم". في تلك الظروف الصعبة التي واجهته، لم يكن يمرّ يومًا واحدًا دون أن يخصّص فيه ثلاث ساعات يوميًا على الأقل في الصلاة، فكان يسكب نفسه أمام الله، بكلمات مليئة بالعبادة والتكريس والرجاء، وكأنه يخاطب صديقٍا حميما عزيزا على قلبه. كان يصلّي قائلاً: "يا ربّ، أنا أعلم أنّك أنتَ أبونا وإلهنا، وأنّك سوف تفشل مخططات مناوئي أولادك، لأنك تمر في نفس الخطر معنا. فالقضية هي قضيتك ونحن نؤمن بقدرتك على إيقافهم. حام عنّا إذن يا رب، لكي نستطيع الاستمرار". حرص لوثر على تحذير المؤمنين والمؤمنات الذين إختبروا تغيير قوة الله لهم، أنهم سيتعرضون لحدّ السيف ولغضب إبليس. لكن ما عليهم إلاّ بالصلاة. قال، "استمرارنا في الصلاة، سوف يمنحنا القوة أكثر فأكثر. بدلاً من أن نيأس من قلّة إيماننا، يجب أن نشكر الله، أنه أعلن لنا عن ضعف ايماننا، كيما نستمر في الصلاة". وأضاف، "من الممكن ان نشعر في بعض الأوقات، أننا غير جديرين أو غير مستحقّين أن نصلّي، الاّ أنه يجب علينا دائمًا أن نتذكّر، أن الله أوصانا أن ندعوه، ووعدنا أن يصغي لصلواتنا، ليس لأي استحقاق فينا، وإنما بفضل نعمته التي غفرت خطايانا".

قدّم لوثر في كتابه "الكاتخيسم الكبير"، ثلاثة أسباب موجبة للصلاة: الأول، أن الله يوصينا. الثاني، أن الله يعدنا بأن يصغي الينا. الثالث، أن الله يعطينا الكلمات. آمن لوثر أن الله هو العامل الأول في صلواتنا. فكلمات الله، تعطي القوة لكلماتنا. اعتقد، أن الحوار مع الله، هو جزء اساسي من مفهوم الصلاة. قبل أن يعلّق، بنوده الاصلاحية الخمسة والتسعين على باب كنيسة جامعة ويتنبرغ في 31 تشرين الاول، من العام 1517، وعظ سلسلة من العظات حول الصلاة. جاء في بعضها: الله يبدأ الحوار، لكن يجب ألاّ يبقى هذا الحوار أحاديًا. الله يفتح الباب لإقامة علاقة روحية مع أولاده. والضرورة الروحية تقتضي منهم التجاوب مع دعوة الله والدخول في الحوار معه". في مقالة بعنوان "مارتن لوثر: الصلاة تواصل أصيل مع الله"، ركّزت الكاتبة ماري هامينغ على موضوع الصلاة في حياة وكتابات وتفاسير المصلح مارتن لوثر. تذكر هامينغ، ركّزت الاكثرية الساحقة من الابحاث حول كتابات لوثر، حول عقيدة الكلمة، وعن تكلّم الله الينا. لكنّ أبحاثًا قليلة ركّزت على تكلّمنا نحن الى الله في الصلاة، مع أنه اعطى اهتمامًا كبيرًا لهذا الموضوع في وعظه وتفاسيره وكتاباته وتعاليمه وأحاديثه". في تعليقه على صلاة المرنّم، "من الضيق دعوت الرب، فأجابني من الرحب" (مزمور118: 5)، خاطب لوثر الانسان المسيحي، قائلاً له، "يجب ألاّ تشكّ ابدًا أن الله لا يعرف بضيقاتك، لكنه يدعوك لتضع كامل ثقتك فيه. يجب أن تتعلّم أن تدعو الله. لا تجلس أو تستلقي على أريكتك مهمومًا، تهزّ رأسك. لا تدمّر نفسك بافكار القلق، أو تتقوقع في آلامك وبؤسك. إرجع الى رشدك وارفع عينيك نحو السماء. إقرأ مزمورا ، أو إدع الله. الق بدموع اضطراباتك أمام الله وصلّ. ان رغبة الله وارادته، أن تضع أمامه اضطراباتك وضيقك. إنه لا يريدك ان تضيف على ضيقاتك ضيقات أخرى، وترهق نفسك بحملها. فأنت أضعف من أن تحملها وتتغلّب عليها. انه يريدك ان تتقوّى بقوته ويتمجّد فيك. ليعلم الجميع جيدًا، أن الله لا يرسل الضيقات ليدمّرنا، وانما ليدفعنا الى الصلاة

حتى نتصارع مع ابليس والخطية، ونكون منتصرين بنعمة الله. فبدون هكذا اختبارات، لن نتعلّم ابدًا معنى: الايمان والنعمة والعبادة. في الصلاة، ورفع ايدينا نحو الله، تكمن الذبائح الروحية الأكثر إرضاء له. وبمثل هكذا اختبارات، يصبح الناس مسيحيين حقيقيين". آمن لوثر، أن الصلاة والشكر لله وتمجيده، هي من سمات: الكنيسة الحقيقية، والمسيحي الحقيقي. صاغت نظرته الى الصلاة، نظرته الى الله والحياة المسيحية.

التقوى هي تحقيق وصية الله بالصلاة

من أحدث الكتب التي صدرت هذه السنة 2017، كتاب "لنصلّي الكتاب المقدّس مع مارتن لوثر" للكاتب ميكايل بارسونس". الكتاب هو دليل للمسيحيين حول كيف كان لوثر، يستخدم الكتاب المقدّس في الصلاة. اذ كان يقرأ نصّا من الكتاب المقدس ثم يسأل أربعة أسئلة: الأول، ماذا يجب عليّ أن أعرف عن النّص؟ الثاني، على ماذا يجب أن أشكر الله؟ الثالث، ما هي الخطايا التي يجب أن أعترف بها؟ الرابع، ماذا يجب عليّ أن أصلّي لأجله؟ آمن لوثر أن كلمة الله هي الأساس الوحيد للصلاة. فلن تكون الصلاة حقيقية إن لم تصدر عن الإيمان المتمحوّر حول كلمة الله، لأنه بدون كلمة الله لن يعرف الإنسان ما فعله الله في المسيح لأجله. وبدون كلمة الله، التي تنير قلب الإنسان بالروح القدس، لا يمكن أن ينشأ وينمو الإيمان في الإنسان. وبدون إيمان، لن يكون هناك صلاة. اعتقد لوثر، أن قيمة الصلاة لا تكمن في كون أن الله سيسمعنا أم لا، لكن تكمن في كونها وصية الله ووعده". قال، "من الممكن أن نشعر في بعض الأوقات أننا غير جديرين وغير مستحقّين أن نصلّي. وبالحقيقة سنكون في حالة مزرية إذا ما شعرنا أننا مستحقون أمام الله وأننا لا نشعر بحاجتنا إليه. لكن علينا دائمًا أن نتذكّر أن الصلاة هي وصيته لنا. لقد أوصانا أن ندعوه ووعدنا أن يصغي لصلواتنا، وذلك ليس لأي استحقاق فينا وإنما بفضل نعمته التي غفرت خطايانا. فالله يرفض أن يسمع صلوات الذين لا يشعرون في حاجتهم إلى نعمته الإلهية". دعا لوثر جماعة الايمان، لا للاعتزاز بأنفسهم والإفتخار بأعمالهم وإنجازاتهم، وإنما الى الثقة في مراحم الله وأمانته. قال "بالرغم من شعورنا بعدم استحقاقنا بسبب شرورنا، الأمر الذي يجعلنا مترددين في الصلاة. إلاّ أنه يجب ألا ننظر الى عدم استحقاقاتنا بل الى رغبة الله. فلا نجادل ان كنا مستحقين أم لا". وأضاف، "كما أن الله: يخلقنا، ويحفظنا، ويقوّينا، ويقدّسنا، دون أي استحقاق فينا، هكذا ايضًا فانه يسمع صلواتنا دون اي استحقاق فينا. وكما أن علاقتنا مع المسيح هي عطية منه، هكذا ايضًا تواصلنا معه في الصلاة. فليس المطلوب منا ان نكون مستحقين، كيما نرفع صلواتنا الى الله. فليس الصلاة عملاً صالحً، يؤهلنا للاستحقاق امام الله، لكنه تواصلل صادق معه". نصح لوثر الجميع، الى الهروب الى الله، وليس الهروب من الله. وصف الجحيم، على انها حالة الهروب من الله. قال، "لا تأتي الصلاة الى الانسان بشكل طبيعي. فنحن بالطبيعة، لا نحب أن ندعو الله، لا سيما انه في بعض الأوقات، يبدو وكأنه اله مستبدّ. إلاّ أن تغيّرا مفاجئًا يحدث عندما نهرب الى الله بالصلاة. فعندما نهرب اليه، فبالرغم من أنه يبدو لنا الها غاضبًا ومنتقمًا، الاّ أننا نجد هناك الها رحوما يهتم بنا".

شدّد لوثر، على ضرورة تحديد موضوع الطلبات والصلوات، وعدم الاكتفاء باطلاق عبارات عامة. رفض روحنة طلبة، "أعطنا خبزنا كفاف يومنا" في الصلاة الربانية، وحصرها فقط بالصلاة من أجل الامور الروحية، الأمر الذي كان يحدث في تفسيرات الكنيسة في تلك المرحلة. قال، "هذه الطلبة، تدعونا لأن نصلّي لله من اجل حاجاتنا المادية والروحية، وليس فقط الروحية. انها تحثّنا للصلاة الى الله، من أجل: الغذاء، والماء، والمال، واختيار الشريك المناسب، والاولاد، والحاكم الصالح، والطقس الجيد، والسلام، والاصدقاء الأوفياء، والجيران الأمناء، وغير ذلك". دعا لوثر المسيحيين الى عدم الانخداع،

بأقوال وإدّعاءات شريرة، مفادها أنه لا حاجة للصلاة كون أن الله يمنحنا ما نريده لأنه يعرف احتياجاتنا. قال، "لماذا قد يوصينا الله بالصلاة، إن لم يكن لها فائدة لنا؟" آمن أن صلوات وطلبات جماعة الايمان، يمكن أن تغيّر خطة الله. قال، "صلواتنا تحاول تغيير خطة الله، وتنجح بعض الأحيان في ذلك". توقف عند اختبار لوط عندما كان يعدّ نفسه للخروج من سدوم مع عائلته، وكيف أن ملاك الرب استجاب لرغبته وطلبه بأن يهرب الى مدينة قريبة منه، بدلا من الهروب الى الجبل. تخبرنا القصة، أنه بينما كانت مدينة سدوم على وشك الاحتراق لتعاظم خطاياها، فإن الملاك طلب من لوط وعائلته أن يهربا الى الجبل، لكن لوط اجابه قائلاً: "لا يا سيد. هوذا عبدك قد وجد نعمة في عينيك، وعظّمت لطفك الذي صنعت اليّ باستبقاء نفسي. وأنا لا أقدر أن أهرب الى الجبل، ولعلّ الشر يدركني فأموت. هوذا المدينة هذه قريبة للهرب اليها. وهي صغيرة، أهرب الى هناك. اليست هي صغيرة فتحيا نفسي؟ فقال له، إني قد رفعت وجهك في هذا الامر أيضًا، أن لا أقلب المدينة التي تكلّمت عنها. اسرع. أهرب الى هناك، لأني لا استطيع ان افعل شيئًا حتى تجيء الى هناك"(تكوين19: 18-22). علّق لوثر على هذا النص قائلا، "إن طلبة لوط قد غيّرت خطة الله ونيّته. فليتّخذوا من لوط مثالاً ويصلّوا. لكن عليهم، ألا يجادلوا حول تغيير الله السرّي لطلبته أم لا. اقتبس قول المرنّم "يعمل (الله) رضى خائفيه، ويسمع تضرّعهم فيخلّصهم" (مزمور145: 19). قال، "نحن لم نعلّم فقط بالوعود، وانما ايضًا بالمثال". وجد لوثر، ان طلبة لوط تتضمن ثلاث ركائز أساسية للصلاة : الأولى، أعطت الشكر لله وذكرت البركات التي اختبرها لوط من الله، "هوذا عبدك قد وجد نعمة في عينيك. وعظّمت لطفك الذي صنعت، باستبقاء نفسي" (تكوين19: 19). الثانية، ذكرت الحاجة. قال لوط، "أنا لا اقدر أن أهرب الى الجبل، لعل الشر يدركني فأموت" (تكوين19: 19). الثالثة، حدّدت الطلب. "هوذا المدينة هذه قريبة للهرب اليها وهي صغيرة" (تكوين19: 20). في كتابه "الكاتخيسم الكبير"، ذكر لوثر قائلا: "علينا أن نصلّي لله دون توقّف. علينا أن ننقر بأذنيه بصلواتنا، لأنه لا بد أن يكون هناك فائدة روحية لنا عندما نتواصل معه".

ميّز لوثر، بين أمور مؤكدة يقوم بها الله لنا، وأمور أخرى قد يصغي أو لا يصغي اليها الله. عدّد الأمور المؤكدة: أن الله يحفظنا في كلمته. يغفر خطايانا. يخلّصنا. يمنحنا الروح القدس. قال، "ارادة الله حول هذه الأمور، هي معلنة لنا سابقًا ومؤكدة. إلاّ انه لا يمكن ان يكون لنا اليقين نفسه، حول معرفة ارادة الله في أمورنا المادية. مثلا، لا نعرف اذا ما كان الله يريدنا أن نختبر الفقر أو الغنى، ولا ان كان وضعنا هذا يخدم مجد الله وخلاصنا". دعا، جماعة الايمان الى تحديد حاجاتهم بالصلاة، وترك رغبتهم لإرادة الله. قال، "في هذه الحالة، لن تكون صلواتنا بلا فائدة كما يدّعي البعض، لأنه إن كان الله لا يساعدنا بحسب طلباتنا، إلاّ أنه في نفس الوقت يقوّينا ويمنحنا النعمة والصبر، لكي نحتمل ضعفاتنا وفي النهاية نتغلب عليها". رأى لوثر، هذه الحقيقة الروحية في صلاة يسوع في بستان جثيماني. قال، "عندما صلّى يسوع الى الله كيما يرفع عنه كأس الموت، قائلاً: يا ابتاه إن امكن فلتعبر عني هذه الكأس" (متى26: 39). وبالرغم من أن الله لم يستجب لصلاته. الاّ أنه ارسل ملاكه لكي يقوّيه بعدما صلّى، قائلا: ولكن ليس كما أريد أنا، بل كما تريد انت، اذ يذكر النص "وظهر له ملاك من السماء يقوّيه" (لوقا22: 43). توقف لوثر عند اختبار المسيح قائلا: "هذا ما سيحدث، اذا ما تأخر الله في الاستجابة لصلواتنا، أو ان لم يستجب لنا. من الممكن أو غير الممكن أن يغيّر الله ارادته، لكن علينا المواظبة على الصلاة، لأنه سيقّوينا لنتحمّل كأس صعوباتنا". وأضاف، "بالرغم من الآلام والتجارب والصعوبات الكبيرة والكثيرة، التي قد يسمح الله أن نصاب بها. الآ أنه يجب علينا ألاّ نفقد الرجاء، بأن الله ينظر إلينا وسوف يضع حدًّا لشرورنا الحاضرة". توقّف لوثر عند اختبار النبي موسى، اذ بالرغم من طلبه الى الله، أن يسمح له بالدخول الى أرض الموعد، ولم يستجب الله له، الاّ أن الله سمح لموسى أن يصعد الى الجبل مقابل أرض الموعد وينظر الى فوق

الاردن، ويرى أرض الموعد. كما ان الله طلب منه، أن يشجّع خليفته النبي يشوع الذي سيدخل الأرض بدلا عنه، ويعطيه أوامره (تثنية 3: 24-28). علّق لوثر على النص قائلا، "مع أن الله لم يستجب لطلبة موسى الذي صلّى له في الروح، لأنه كان غاضبا منه، لكن الله لم يهجره، بل عاد واستجاب له بطريقة أخرى اذ أراه أرض الموعد. وجّه لوثر رسالة للمصلّين قائلا: "كتب هذا، ليكون مثالاً لتعزيتنا. حتى وان كان لا يستجيب الله لصلواتنا في بعض الاوقات، لكنه يقوم بأمر ما كيما يقويّنا. لهذا، دعونا لا نشك، بأننا أعزاء على قلب الله. لننظر الى عمل الله المخبأ تحت غضبه، لئلا نحّبط عندما لا يستجيب لصلواتنا. الله يسمع لصلواتنا بطريقة مختلفة عن رغبتنا، وانما بطريقة قد تريحنا". ميّز المؤرّخ الكاثوليكي الكاردينال أنتون فيشر، بين: لوثر المحارب والمجاهد في سبيل الإصلاح، وبين لوثر رجل الصلاة. قال فيشر، "لوثر المحارب ، كان موضوع اهتمام جزء من المسيحيين، لكن لوثر رجل الصلاة، يجب أن يكون إهتمام كلّ المسيحيين، الذين يجدون في حياة الصلاة التي عاشها وتعليماته الجوهرية حول الصلاة ، مثالاً لهم. وأضاف، " يجب تقدير لوثر كرجل صلاة، من قبل الكاثوليك. فمهما كانت الكنيسة غنيّة في تاريخها برجالات صلاة عظماء، فإنه يوجد للوثر المصلّي أيضًا، مساحة في الكنيسة". وأضاف، "يستطيع لوثر أن يعلّم كلّ المسيحيين أمرين: الأول، أن الصلاه لها مقياس واحد هو كلمة الله والروح القدس الذي يعلن عن نفسه من خلال الكلمة. والثاني، إن الصلاة الربّانية، التي علّمنا إيّاها الربّ يسوع المسيح نفسه، تشكّل جوهر حياة الصلاة، لأنها كلمات المسيح نفسه التي تستطيع أن تخلق الجسر الذي من خلاله يعبر المسيحيون نحو بعضهم البعض". صنّف فيشر لوثر، كرجل صلاة مميز، وضعه في مصاف آباء وقديسي الكنيسة العظماء، أمثال: القديس أوغسطينوس، والقديس فرنسيس الأسيزي، وغيره.

التقوى هي ذهنية الضيف في فندق العالم

ليست التقوى في مفهوم لوثر، هي تقوى ذهنية المتصوّف أو الناسك، وإنما ذهنية الضيف الذي يسكن مؤقتًا في فندق هذا العالم. قال: "نحن لا نسعى للتسامي على هذا العالم بنشوة روحية، ولا أن ننكره بالانسحاب منه. فالحياة المسيحية، هي رحلة للعيش بجرأة في هذا العالم". وصف الحياة المسيحية برحلة الضيف العابر. وجماعة الايمان، بالضيوف الذين يعيشون في هذا العالم، ويشغلون أنفسهم بمشاغل: البيت، والدولة، وادارة شؤون العالم. فيربّون عائلاتهم، يحرثون حقولهم، ويقومون بأعمال يدوية. الاّ أنه بالرغم من انشغالهم، فهم يدركون أنهم ضيوف ونزلاء وغرباء مثل أجدادهم. قال لوثر، "يستخدم المسيحيون الحقيقيون هذا العالم كفندق لإقامة قصيرة مؤقتة، الاّ أنه لا تلتصق قلوبهم بهذا العالم. يهتمون بمشاغل العالم بيدهم اليسرى، ويرفعون يدهم اليمنى نحو العلاء، نحو البيت الأبدي. لا يهمهم كيف يعاملون، في هذا الفندق. يكفيهم ويرضيهم أن يعرفوا أن ابن الله، قد أعدّ لهم منازل ابدية". دعا المسيحيين الى اعتبار انفسهم ضيوفا ونزلاء في الفندق، يقومون برحلة سياحية في هذا العالم، بانتظار المدينة السماوية التي صانعها وبارئها الله".

أصدر الكاتب الالماني، روبرت ستوبرنيش، دراسة عن تقوية لوثر، تحت عنوان "رحلة لوثر الروحية". ذكر في دراسته أن لوثر استلهم فكرة "الضيف"، من دعوة الله لإبراهيم، من سفر التكوين ومن الرسالة الى العبرانيين. يذكر نصّ التكوين، "وقال الرب لإبرام، إذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك، الى الارض التي أريك. فأجعلك امة عظيمة. وأباركك. وأعظّم اسمك، وتكون بركة" (تكوين12: 1-2). ويذكر نص العبرانيين: "بالايمان ابراهيم لمّا دُعي، أطاع أن يخرج الى المكان الذي كان عتيدًا أن

يأخذه ميراثًا. فخرج وهو لا يعلم الى اين يأتي. بالايمان تغرّب في أرض الموعد كأنها غريبة، ساكنًا في خيام مع اسحق ويعقوب الوارثين معه لهذا العهد، لأنه كان ينتظر المدينة السماوية التي لها الأساسات، التي صانعها وبارئها الله" (عبرانيين11: 8-10). رأى لوثر في قول الله لإبراهيم، أن يترك أرضه وعشيرته ويتبعه، نموذجًا للانسان المسيحي الذي يطيع دعوة الله له، فيترك كل شيء دون أن يعلم الى أين يذهب، طائعًا وصية الله له. مدح لوثر، سارة زوجة إبراهيم، لأنها تركت بلادها وأقرباءها وتبعت الله. قال، "لم تتبع سارة ابراهيم لعاطفة عائلية كونها زوجة ابراهيم، لكن الروح القدس أعانها وعمل في قلبها، حتى أطاعت الله دون ان تعطي اعتبارًا لأي شيء آخر، لأنها هي ايضًا رغبت أن تخلص". وأضاف، "مع أن: ابراهيم وسارة ولوط، أخذوا ممتلكاتهم معهم، الاّ أنهم بقوا ضيوفا ونزلاء، لأنه كما قال الرسول بولس "والذين يستعملون هذا العالم، كأنهم لا يستعملونه، لأن هيئة هذا العالم تزول" (1كورنثوس7: 31).

رأى لوثر، أن عظمة موقف ابراهيم، لا يكمن فقط بكونه ترك وراءه كل مغامراته الارضية، لكن بالأحرى، لكونه ترك دين آبائه الزائف، من أجل عبادة الله العبادة الحقيقية. قارن لوثر، اختباره الشخصي في الايمان باختبار ابراهيم، وطاعته لله بطاعة ابراهيم، كونه ه مثل ابراهيم ترك أيضا دين آبائه الذي تسلّلت اليه العديد من الممارسات الزائفة. أقرّ بصعوبة ترك الانسان للدين الذي تربّى فيه. قال: "ليس من السهولة بمكان على ابراهيم، أن يسمح لنفسه بأن يقتنع، بأن الدين الذي ربّاه أهله عليه ليس تقويًا". ربط لوثر اختباره في حركة الاصلاح الانجيلي باختبار ابراهيم، قائلا: "من أصعب المهمات أن تربح الى الايمان، أولئك الذين تربّوا على الايمان القديم، وتقنعهم بالانضمام الى دين جديد". وأضاف، "حتى نحن الذين عشنا في الدين القديم، فقد تطلب الأمر منا وقتًا طويلاً لتركه. كان علينا أن نجاهد لكي نتغلب على هذا الأمر الذي تغلّغل في عاداتنا وأصبح جزءًا من حياتنا. فنحن نولد مرائين". اعتقد لوثر أن التقوى القديمة، كانت خيانة لجوهر المسيحية، وأن الحركة الانجيلية استعادت المسيحية الحقيقية. توقّف عند قول الله لإبراهيم، "وتتبارك فيك، جميع قبائل الارض" (تكوين12: 5)، قائلا: "في هذه الكلمات القليلة، يظهر الروح القدس مغلّفًا في سر تجسّد ابن الله. ثم طوّر الآباء والانبياء، لاحقًا هذه الفكرة بشكل أوسع في تنبؤاتهم، على أنه من خلال ابن الله سيتحرّر العالم أجمع، ويسحق الموت والجحيم". فسّر لوثر، قول يسوع "أبوكم إبراهيم، تهلّل بأن يرى يومي، فرأى وفرح" (يوحنا8: 26) انه زمن المسيح الذي الغيت فيه الشريعة، وغفرت الخطايا، وأعطي الخلاص والحياة الابدية مجانًا لكل الذين يؤمنون به". قال لوثر، "ارتباطنا الوثيق في المسيح، ليس جامدًا وانما مشاركة ديناميكية في يومه الذي تحقّق في هذا العالم، وسيتحقق بملئه بمجيء المسيح الثاني عند انتهاء رحلة المسيحي في العالم". يرى مؤرخون، أن ذهنية الضيف لوصف لوثر الحياة المسيحية، هي الجواب على اتهامه بالانشغال الكبير بشؤون العالم من خلال اصلاحه وكتاباته الاجتماعية والسياسية. فبالرغم من أن لوثر، انتقد الذهنية الرهبانية التي دعت الى الانعزال عن العالم ودخول الاديرة، الاّ أنه بالرغم من انشغاله الكثير في العالم. إلاّ أنه لم يغب عن باله أنه ضيف في فندق هذه الحياة.

ان نظرة المصلح مارتن لوثر الى الحياة المسيحية، كضيف أو نزيل مؤقت في العالم، قد اعتمدها أيضا المصلح جان كلفن. بالرغم من انغماسه في شؤون وشجون الحياة الحاضرة، من خلال كتاباته، في مجالات الحياة المتعددة: من التربية والتعليم، الى الاقتصاد، الى الاجتماع، الى السياسة، الى علاقة الكنيسة بالدولة، وغيرها من المجالات الأخرى. فان كلفن لم يتعلق بمباهج الحياة. وجد ان تعبير"التقوى"، يصف كامل مسار حياة المسيحي في سياحته من الأرض إلى مدينة الله. قال، "بينما نحن نعيش على هذه الأرض، علينا أن نتذكّر دائمًا، اننا نتجه نحو ملكوت الله، الذي يجب أن يكون إنتماؤنا الأول له. لهذا، علينا أن نتوق ونتشوّق إلى الراحة الأبدية مع المسيح. الاّ أنه بنفس الوقت، يجب علينا ألاّ نهمل واجباتنا كمسيحيين على

الأرض، إلى أن يدعونا الرب، إلى بيته السماوي. على هذا الأساس دعا كلفن المسيحيين، إلى الحفاظ على التوازن، بين متطلبات الوجود على هذه الأرض، ومتطلبات الإنتماء إلى ملكوت الله. شبّه الحياة المسيحية بالانخراط في خدمة عسكرية مؤقّتة، في عالم عدائي. دعا كلفن المؤمنين والمؤمنات، إلى النظر والتأمّل في كل ما يحدث معنا في حياتنا الحاضرة، في ضوء الأبدية. اعتبرها الطريقة الفضلى، لتقييم أمور الحياة الحاضرة. قال، "ليعوّد المؤمنون أنفسهم على الإزدراء بالحياة الحاضرة، لكن ليحرصوا على ألاّ يكرهوها، أو يكونوا عدم شاكرين لله على نعمتها، بل يجب أن يعتبروا الحياة الحاضرة، من هبات الله الكريمة للإنسان. وبالتالي، عليهم قبولها وعيشها بموقف الشكر". فسّر كلفن تعبير "الإزدراء بهذه الحياة"، على أنه "التعلّم على اجتياز مسيرة هذه الحياة، وكأن هذا العالم غريب عنّا، وأن نتعامل مع كلّ الآلام والمصائب والمشاكل التي تصيبنا بخفّة، كونها أمورا مؤقّتة وعابرة، فلا نضع قلوبنا عليها، لأننا ننتظر مسكننا وموطننا الحقيقي، الذي هو "المدينة التي لها الأساسات، التي صانعها وبارئها الله" (عبرانيين 11: 10). قال، "إذا ما عشنا كغرباء في العالم، فإننا سنستخدم ما نملكه، وكانه ينتمي إلى شخص آخر غيرنا، وكأننا نستخدمه فقط ليوم واحد. اعتقد كلفن، أن التأمل في الحياة القادمة، هو جزء جوهري من الحياة المسيحية في وسط صعوبات الحياة التي نعيشها، لا سيما عندما تزداد ضغوطات الحياة الكثيرة على المؤمنين والمؤمنات، وتحاول أن تدمّرهم وتسحقهم. قال، "على جماعة الايمان، أن يتذكروا دائما، أنهم يعيشون في مكان مؤقّت وكأنهم في المنفى، وأن السماء هي موطنهم الحقيقي. لهذا، يجب أن يوجّهوا قلوبهم وأشواقهم إلى العالم الأبدي". وأضاف، "يجب أن ننتظر الحياة القادمة، ونعوّد أنفسنا على عدم التمسك بالحياة الحاضرة، بل التأمل في الحياة الأبدية. فالله يسمح لشعبه بأن يصابوا باضطرابات وحروب وأمراض وسرقات وكافة أنواع الصعوبات والجروحات، لكن يتذكروا أن هذه الحياة مصيرها الفناء". حذّر لوثر جماعة الايمان قائلا، "مع أن الشرور سترافقنا في هذه الحياة وتسبّب لنا الآلام والضيقات وتشدّنا إلى الإهتمامات الأرضية، لكن علينا أن نركّز كامل أنظارنا على الأبدية، كيما نتحمّل تلك الآلام. فإيماننا بسيادة الله المطلقة، ويقيننا أن كل ما يحدث، يحدث بعلمه. يجب أن يخلق فينا الرضى ويخرجنا من يأسنا وآلامنا، ويساعدنا كيما نتمكّن من المشاركة في انتصارات المسيح. يذكر أحد المؤرخين، "أن ايمان كلفن أنه ضيف وسائح على الأرض بانتظار السماء موطنه الأصلي، قلّل من ارتباطاته القوية بالأرض، وانتج عقلية سبّاقة.

الفصل الرابع

رحلة الايمان تبرير وتقديس

الايمان يؤسس على غفران المسيح

انتقد مارتن لوثر لاهوتيّ عصره السكولاستيين، لأنهم فهموا الناموس بطريقة فلسفية وأخلاقية لم تساعدهم على فهم عمق الخطيئة ومدى التدمير الكبير الذي فعلتـــــه في حيـــــاة الإنسان. رأى لوثر، دور الناموس في اظهار حقيقة حالة الإنسان الخاطئة. اعتبره الصوت الصارخ في توجيه الادانة للانسان. وجزءا أساسيا من خطيئة الإنسان هو عدم استعداده لأن يقرّ بخطيئته. قال: ":إذا أدركنـــــا كم أن النامـــــوس يجعل مطالب الله منا صعبة التحقيق، ويكشف مدى بعده عن الإيمان الأصيل وحقيقة نفسه الخاطئة، عندها ندرك أهمية أن نرتمي في أحضان مراحم المسيح". آمن لوثر أن الإيمان بالمسيح والتعمُّق في محبته، يقود الإنسان إلى وعي أكبر وأعمق لخطاياه، ويزيد احساسه المُرْهَف بقوة الخطيئة. احتجّ لوثر والمصلحون على اخراج الكنيسة مفهوم "القديس" عن معناه الكتابي، كما احتجّوا على ممارسات تكريم القديسين وطلب شفاعاتهم التي تحولت إلى عبادة أصنام. لم يثق المصلحون بوصول المؤمن الى مرحلة القداسة الكاملة في حياته على الأرض، مهما كانت أعماله وتصرفاته حسنة. قال كلفن: "أني أجزم أن أفضل إنجازات الإنسان، يتخللها بعض الفساد بسبب عدم نقاء في مكان ما". أضاف، "ليحاول أي مؤمن مبرَّر أن يختار من حياته ما يعتبره أفضل إنجازاته وأعماله، وليمتحنها من كل النواحي، فإنه دون شكّ، سوف يكتشف فيها بعضاً من الكبرياء، ومِن أمور أخرى هي بقايا تلوّث الخطيئة. فأنبل أعمال الإنسان لا تستطيع أن تصمد أمام تمحيص الإله القدير لها". علّم المصلحون، أن الفساد لا يعني قيام الإنسان بأعمال فاسدة وخاطئة وغير صالحة، فالفساد ليس أعمالاً فقط، ولكنه حالة الإنسان في الخطية. وبالتالي، فكل ما يصدر عن الإنسان من أعمال فاسدة، إنَّما هو انعكاس لحالة الخطية التي تتحكَّم في إرادته الإنسانية، وتعيق بل تُفقده قُدرته على إقامة علاقة مع الله بجهوده الإنسانية. في كتابه "عبودية الإرادة" يذكر لوثر، أن الإرادة الإنسانية مستعبدة بشكل كامل للخطيئـة. لهذا فالإنسان غيـر قـادر بجهوده الإنسانية أن يستلم خـلاص الله.

أدرك المصلحون أن قوة تأثير الخطيئة في الحياة، وصعوبة حالة الإنسان الخاطئ، تقوده إلى القلق واليأس. وهذا حقًا ما أصاب المصلح مارتن لوثر في بداية مسيرة إيمانه. أصيب بالكثير من الإحباط والقلق واليأس بسبب قوة الخطية، لكنه وجد الحل من خلال الاعتراف المستمر بخطاياه والنَّيْل المستمر للغفران الإلهي الذي يُسميه المعجزة في حياة الايمان. اعتقد لوثر، أن ما يميز الإنسان المؤمن عن غير المؤمن، هو موقفه عند الوقوع في الخطية. فإنّ غير المؤمن يخطئ دون أن يشعر بحاجته للاعتراف بخطيته. أما المؤمن، فإنه ينهض معترفاً للرب بخطاياه، فينال غفران المسيح الذي يؤمِّن له الاستمرار في

حياة الإيمان. قال لوثر : "غفران المسيح العجيب يحرّرنا من اليأس والقلق اللَّذيْن تسببهما قوة الخطيئة فينا. غفران المسيح يضع فينا الرجاء الحي. غفران المسيح يجدِّد قوتنا. لهذا فان كل حياتنا المسيحية يجب أن تؤسَّس على غفران المسيح الذي هو ضرورة مسيحية مستمرة". يستشهد لوثر بقول إشعياء النبي (٤٠:٣١) "أما منتظرو الرب فيجددون قوة. يرفعون أجنحة كالنسور يركضون ولا يتعبون يمشون ولا يعيون". قال، "لا تنبع قوة المسيحي من حالة عدم الخطية والقداسة، بل من غفران المسيح لخطاياه".

الايمان هدية الله الفريدة

من المفاهيم اللاهوتية الراديكالية الجديدة، التي أتى بها المصلح مارتن لوثر، بعد اختباره الروحي لتبرير الله له، هو مفهوم الايمان كهدية مجّانية التي لا هدية مقابلة لها. ساد في في القرون الوسطى، منطق لاهوتي استند الى مبدأ التبادل، وكأن العلاقة بين الله والانسان، تحكمها سياسة بارتر الاقتصادية، التي تفيد ان هناك، مقابلا للبضاعة والخدمات التي تقدّم. كان المبدأ الرائج هو: "إني أعطيك، كيما أنت تعطيني". هذه الذهنية جعلت الناس يفكّرون في الله، بمنطق التعاقد بين طرفين، الله والانسان. فلا يقدّم الله للانسان شيئا، دون أن يبادله الانسان بتقديم مقابل. انتشر القول، أنه "عندما أقوم بشيء صالح، فإن هذا يجعل الله مديونا لي بل ملزما، ليقدّم لي بركة روحية بالمقابل، تساهم في خلاصي". شدّد لاهوت القرون الوسطى، أن ليس هناك خلاص الهي غير مشروط أو نعمة غير مشروطة، بل يجب أن يكون هناك دائمًا، الهدية والهدية المقابلة. على أساس سياسة بارتر الاقتصادية، تمّ تأسيس مؤسسات خيرية لضمان الخلاص والحياة الابدية للمشاركين فيها. استخدمت تعابير اقتصادية لمعانٍ روحية، مثل تعابير: الشراء والكسب والاستثمار، وغيرها. نظر الى الله، وكأنه شريك اقتصادي يفتح للانسانية امكانية كبرى للربح، اذا ما استثمر جيدًا بأعماله الصالحة. شدّد رجال الدين كثيرا، على كرم الله الكبير الذي يكافىء به، الذين يقومون بأعمال صالحة الى جانب ايمانهم. اعتبر العمل الصالح، استثمارا قليلا مقابل الربح الكبير الذي يعود عليهم من الله. تمّ تصوير الله وكأنه مدير بنك، يصرف وقته باحتساب أعمال الانسان الصالحة، ليقدّم مقابلاً لها. عندما قدّم رئيس كنيسة القديس لورانس في نورمبرغ، الدكتور سكيتس ترتيز، عام 1501، تعزيته الى الراهبة كاريتاس بيركهايمر، بوفاة والدها، فانه قارن حياة وموت المسيحي، بتجارة مربحة. قال لها: "ليس علينا أن نحزن عندما استحق الانسان الرجوع من أرض غريبة الى موطنه. الرجوع مما هو مؤقت الى ما هو ابدي؛ لا سيما عندما يكون قد حقّق العديد من الاعمال الصالحة من خلال تجارة مباركة. لقد أتينا جميعًا كتجّار في سياحة الى هذا العالم، حتى ببضاعتنا المؤقتة نحصل على فائدة ابدية".

انتقد المصلحون التعابير السائدة في التفكير الديني الشعبي، التي صوّرت العلاقة مع الله بعلاقة اقتصادية، واعتبروها مسيئة لنعمة الله، المختلفة تمامًا عن تفكيرهم. رفض لوثر، منطق بارتر الاقتصادي اللاهوتي، وقدّم لاهوتا راديكاليًا، لوصف نوعية العلاقة بين الله والانسان هو لاهوت النعمة المجّانية. رفض منطق: الهدية والهدية المقابلة، معلنا أن هدية الخلاص الالهي هي هدية محضّ مجانية، لا تنتظر أية هدية مقابلة من الانسان سوى استلامها. وعليه، رفض كل اشكال الاعالات والوساطات الشائعة في كنيسة القرون الوسطى، ان كان عبر: القديسين أو الطقوس أو صكوك الغفران أو رجال الدين، أو أي شيء مثل ذلك القبيل، لأنه رأى فيها تناقضا مع منطق هدية الخلاص المجانية التي يهديها الله لكل من يومن به. بلاهوت النعمة، رفض أيضا لوثر منطق قوة استحقاق أعمال الانسان الى جانب الايمان، لشراء الخلاص والحياة الابدية. رأى لوثر، أن تلك الذهنية الكنسية تؤثر سلبا، على مفهوم سيادة الله المطلقة ونقاء هدية الخلاص الالهية. أدرك مع باقي المصلحين، أنهم خطاة في حاجة ماسة الى نعمة الله لتخلّصهم من خطاياهم ، وآمنوا

ان خلاص الله، مقدّم لهم بالايمان وحده، وبشكل مستقلّ عن كل النشاطات والاعمال الانسانية الصالحة. آمن لوثر، أن برّ الايمان بالنعمة وحدها، بواسطة يسوع المسيح، هي هدية الله المجّانية للانسان. اعتقد، أنه لا قدرة للانسان على الاطلاق أن يهدي الله بالمقابل، لأن خطية السقوط دمّرت قدرته على الاهداء. فلم يعد لديه شيء صالح يهديه. آمن لوثر بأن الله، هو إله محب لطيف منعمم يخلّص ويبارك، يغيّر ويقبل، ليس فقط الذين لا يقومون باعمال صالحة، وإنما أيضًا المتصلّبي الرقاب والمعاندين والمتمرّدين على وصاياه وأحكامه. آمن أن قبول الله لنا، بالرغم من عنادنا وخطايانا، يثبت قوة النعمة المبرّرة والمخلّصة التي تبرّر وتخلّص الانسان ليصير، خاطئًا مبرّرًا. سحب لوثر بلاهوت النعمة المجّانية، وهدية الايمان التي لا هدية مقابلة لها، البساط من تحت كل مفاهيم :الاستحقاق والارضاء والعلاقة الالزامية والتجارية والهدايا التبادلية بين الله والانسان. آمن أن المنطق الالهي هو مغاير للمنطق البشري، الذي يتوقع أخذ هدية مقابلة، حتى وان كانت قيمتها بسيطة لا تقارن بالهدية الالهية المقدّمة. عندما تحدّث لوثر عن نعمة الله المذهلة، تحدّث عن التزام الله الاحادي نحو الانسان المؤمن، من خلال وعد الغفران وعمل الروح القدس. هجر لوثر، تقليد التعاقد من جانبين، لأن التزام الله أحادي مع نفسه، لهذا لا يشاركه أحد في النعمة. في لاهوت النعمة الثوروي الجديد، حرّر لوثر أعمال الانسان الصالحة، من أية ارتباطات خلاصية، ووضعها في سياق اسكتولوجي، ليقول انه في يوم الدينونة، اليوم الاخير، سيجازي الله الانسان على ما فعل ان كان خيرًا أم شرًا. وبالتالي، فانه بعد ان نزع من الاعمال الصالحة قوّتها الخلاصية، فانه عاد وأعطاها قيمتها في سياق ثمار الروح القدس، الذي يثمر فينا أعمالا صالحة، ترضي الله وتقدم يد المساعدة للقريب.

دور كلمة الله في الايمان

وجد لوثر، أن كلمة الله هي التي فعلت فعلها بقوة، في تكثيف ادراكه بأنه انسان خاطىء بحاجة الى نعمة الله. وجد أن الممارسات التقشفية وحياة القداسة والعفة هي نتيجة عمل الايمان، وليست السبيل لاختبار الايمان الحقيقي. إن تركيز لوثر على الادراك والوعي في حدث التبرير بالايمان، حوّل النظر عن اعتقاده السابق أن إخضاع الجسم بالممارسات التقشفية يوصل الى الايمان. قال، "الله الذي نؤمن به، ينظر الى أعماق قلوبنا، ويعين فقط: المتألمين والمحتقرين، والبؤساء، والمساكين الذين يقرّون أنهم مفلسون روحيا، لا شيء لديهم. هناك يولّد الله فيهم محبة قلبية له بالروح القدس، فتفيض قلوبهم فرحا، وتقفز وترقص مختبرة السعادة الكبيرة التي وجدتها في الله". وأضاف، "يجب أن نشعر أن طبيعة صراخنا الى الله، هي من نفس الطبيعة التي يستجيب لها الله. وهذا يقتضي منا أن نصرخ اليه، بصوت الايمان القلبي الحقيقي، لأننا لا نستطيع أن نتعزّى أو أن نرفع أيدينا بالصلاة الى الله، إن لم يتعزّ القلب أولا. والقلب يجد عزاءه، عندما يسرع بالروح القدس الى إله غاضب ويطلب منه الرحمة والغفران وسط غضبه. يطلب منه أن يقاصصه، وفي نفس الوقت يتجرّأ أن يجد العزاء والسلام في صلاحه". اعتقد لوثر، أن قوة كلمة الله، تكشف إفلاس الانسان الأخلاقي والروحي، وفشل جهوده في اختبار الخلاص. كما أن تلازم الخوف والرعب الذي يرافق معرفته، بأن جهوده عاجزة عن تبريره أمام الله، هي التي تعدّه للايمان. قال، "تصبح كلمات الكتاب المقدس كلمة الله، فقط عندما تواجهنا مباشرة وتجعلنا ندرك عجز جهودنا البشرية في تبريرنا أمام الله. ليست كلمة الله اعلانًا عامًا، لكنها الكلمة التي تواجه الانسان في حياته وظروفه لكي تصبح كلمة الله بالنسبة له تحديدًا". تحدّث لوثر عن قوة كلمة الله المخلّصة. قال، "كلمة الله تواجه الانسان مباشرة، وتخلق فيه حدث التبرير بالايمان". وأضاف، "تكشف قوة كلمة الله، منظومة المخبّئات التي يجمعها الانسان معتقدًا أنها تحميه من ادراكه لعجزه. إلاّ أنها ليست إلاّ غطاء النوم، الذي يغطّي به الولد الصغير وجهه عندما يخاف من العتمة. فلا تنكشف ظلمتنا وعتمة حياتنا إلاّ عندما تواجهنا كلمة الله، التي تمزّق ذلك

الغطاء الذي نغطّى به ونخبّىء تحته مخبّئاتنا وشرورنا وخطايانا. ومن ثم تخلّصنا، وتغطّينا بغطاء برّ المسيح". رأى لوثر، أن قوة كلمة الله هي محور قصة يونان. فكرازة يونان النبي بكلمة الله، لقادة وسكان مدينة نينوى، وثمار التوبة الجماعية التي نتجت، هي مثال رائع عن قوة كلمة الله وفعّاليتها في التغيير الكبير الذي تجريه في الحياة. قال، "بدون التركيز على قوة الكلمة، تبدو قصة يونان بدون معنى. وبالتالي، "الايمان الصحيح هو الذي يتمسّك ويتبع كلمة الله بعيون مغلقة ويؤمن بقدرتها على التغيير حتى لو كان كل الناس ضدّها. حتى لو بدا أن السماء والارض ذاهبتان الى الزوال.

قال لوثر، " في عالم تسود فيه الخطيئة والموت، يأتي الينا الله الأبدي بكلمته، التي تمنحنا الحياة والرجاء. يأتي الينا من الزمن الجديد، ليعمل وسط عالم قديم يسوده الألم والموت. يأتي كيما يقيم أولاده المؤمنين من قبورهم. يأتي الينا بوعد الخليقة الجديدة من العدم، لتصبح كلمة الله المفتاح الرئيسي، لتمييز علاقة الله الأبدي مع الزمن. يأتي الينا المسيح، الرجاء الحي، مغلّفًا نفسه في: الكلمة، وسريّ الكنيسة، كيما يكشف لنا عن سرائر جلال الله. وتجاوبا مع دعوة الأبدي، تأتي جماعة الايمان الى محضر السيد الرب، الذي يحيا كمنتصر على الموت". وصف لوثر، كيفية نقل الايمان بالمسيح، للانسان المؤمن الى عالم جديد، بقوله: "تسجّل اللحظة، التي يصغي فيها الانسان لاعلان الله له بغفران خطاياه عندما يعترف بها من كل قلبه، نهاية ادراكه للزمن وتفتح أمامه امكانية جديدة للحياة. وهكذا تبدأ أمامه حقبة جديدة، وتبدأ الحقبة القديمة بالتضاؤل، في طريقها الى الزوال. نحن بالايمان بالمسيح، ننقل الى حياة لا زمن فيها، لأننا نصبح ننظر الى الحياة بمنظار أبدي، ومن حاضر الله الأبدي". توقّف مارتن لوثر، عند حلم يعقوب الذي رأى فيه السلم المنصوبة بين الله والسماء. يذكر النص، "ورأى حلما، واذا سلّم منصوبة على الأرض ورأسها يمسّ السماء. وهوذا ملائكة الله صاعدة ونازلة عليها. وهوذا الرب واقف عليها. فقال: أنا الرب اله ابراهيم أبيك واله اسحق" (تكوين 38: 12-13). وعندما استيقظ يعقوب من نومه، فانه قال: "حقًا إن الرب في هذا المكان، وأنا لم أعلم. وخاف، وقال : ما أرهب هذا المكان، ما هو الاّ بيت الله، وهذا باب السماء" (تكوين28: 16-17). شبّه لوثر، الكنيسة بباب السماء. قال: "يسكن الله بيننا، في ابنه يسوع المسيح، كيما يمنحنا فرصة الوصول الى ملكوت السموات". ثم هتف قائلا، "ما هو أكثر بهجة من أن يأتي الله الينا أولاً، ويظهر لنا على السلّم، وينزل ويعيش بيننا. إنه نزول أورشليم السماوية. حيث أنه من غير الممكن لنا، أن نصعد نحن نحو الله الأبدي. فإن الله نزل الينا في يسوع المسيح، بقوة الروح القدس. وبنزول الأبدي، اقتحم زمننا، أو بالأحرى جذب الزمن نحو الأبدية. بنزول المسيح، نزلت أورشليم السماوية، والخليقة الجديدة الموعودة، كيما تغيّر الحقيقة القديمة السائدة. فيسوع المسيح هو آدم الجديد، كما يقول الرسول بولس: "فإنه إذ الموت بإنسان، بإنسان أيضًا قيامة الاموات، لأنه كما في آدم يموت الجميع، هكذا في المسيح سيحيا الجميع" (1كورنثوس15: 21-22)، الذي بموته وقيامته، منح الانسان بالايمان به، الفرصة ليحيا بروحه كخليقة جديدة. قال لوثر: "لأننا بالايمان نحيا، وليس بالعيان. إن حقيقة الايمان، أنه يلصق نفسه في ملكوت الله كحقيقة اسكتولوجية محجوبة عنا الآن، لكنه ينتظر أن يتحقق كل شيء. الايمان هو معرفة مسبقة للأمور التي لم نختبرها بعد. فالحياة تحت قيادة الروح القدس، ليست مجرد توقّع وانتظار حلول الحياة الأبدية، وإنما مشاركة باكرة في تلك الحياة التي ننتظرها. وبالرغم من أن الموت لم يبتلع بعد، بشكل كامل فينا، إلاّ أن الانتصار الذي ربحناه في المسيح، يبقى حاضرا فينا من خلال كلمة الله وسرّي الكنيسة.

الخطية تستعبد والايمان يحرّر

يسدّد عالم النفس التحليلي الشهير سيغموند فرويد، ضربة الى النرجسية الانسانية، بقوله، "أن مسار العمليات الفكرية في الدماغ، تحدث في اللاوعي الانساني وتصل الى الذات من خلال أحاسيس لا يوثق بها". هذا الاكتشاف، يشير أن الذات البشرية ليست حرّة، وانما مستعبدة. ان قول فرويد هذا، يعاكس قناعة الفيلسوف إيمانويل كانت، الذي قال "هناك أمر مطلوب للحرّية الداخلية للانسان، هي أن يكون سيّد نفسه ويحكم ذاته، باخضاعه انفعالاته وعواطفه". إن ما اكتشفه فرويد، يكشف ان الحرية الداخلية التي تغنّى بها الفيلسوف كانت، مجرّد وهم. لم يكن فرويد أول من اكتشف، حقيقة أن الانسان ليس حرّا وسيّد ذاته. فقد اكتشفها النبي داود، الف سنة قبل المسيح. صلّى الى الله قائلاً، "السهوات من يشعر بها؟ من الخطايا المستترة أبرئني" (مزمور19: 12). واكتشفها النبي موسى قبله. صلّى الى الرب قائلاً، "قد جعلت آثامنا أمامك، خفيّاتنا في ضوء وجهك" (مزمور90: 8). تحدّث النبي داود، عن خطايا مستترة ومخبأة عن اداركنا، والنبي موسى، عن آثام خفيّة عن عيون أذهاننا، لكنها مكشوفة ومعروفة لدى الله. هذه الخفيات والمستورات، هي بلغة فرويد، "الأحاسيس التي تحدث في اللاوعي، والتي لا يوثق فيها والتي تحدث في مسار العمليات الفكرية في الدماغ". في مقالة بعنوان "الحرية: المفاهيم الانتربولوجية بمقارنتها بين لوثر وميلنكتون" لكاتبها أزولد باير، أورد الكاتب سبب عدم تعداد، المصلح فيليب ميلنكتون في"اعتراف ايمان أوغسبرغ"، لكل الخطايا التي يقترفها الانسان الخاطىء عند اعترافه للرب بخطاياه. السبب، هو لأنه هناك آثام وخطايا، خفية عن الانسان نفسه ومستترة عن عيون ذهنه، مستشهدا بتلك الآيات، التي تؤكّد اننا لا نعرف حقيقة انفسنا. قال، "هذا النقص في معرفة االذات، ينحدر من عجز أساسي في الارادة الانسانية، بسبب الدمار الذي سببته الخطية لقوى الانسان. يقول النبي ارميا، "القلب أخدع من كل شيء. وهو نجيس، مَنْ يعرفه؟ أنا الرب فاحص القلب ومختبر القلوب، لأعطي كل واحد حسب طرقه حسب ثمر اعماله" (ارميا17: 9-10). وجد ميلنكتون، أن قول النبي إرميا يفتح الباب لفهم حقيقة الطبيعة البشرية. فالقلب خادع ونجس، يخدع القلب صاحبه وينجّسه لأنه يخبىء حقيقة نفسه عنه. سأل ميلنكتون، "من يستطيع أن يجد طريقه، وسط طرق القلب المتشعّبة الاتجاهات؟" صرّح لوثر قائلا، "نحن لسنا اسيادًا، على ضمائرنا، ولا على رؤآنا واحلامنا التي بعض منها يدهشنا والبعض الآخر يخيفنا. فمن يستطيع سبر غور قلبه، الذي هو أعمق من أي شيء؟ فالذي يحاول الوصول الى قعر قلبه، يسقط في هوّة عميقة".

في مناظرته في هايدلبرغ عام 1518، ذكر لوثر، أنه بعد السقوط، لم تعد الارادة الانسانية الحرّة موجودة سوى بالأسم. إذا ما كانت قادرة على القيام بشيء، فان كل ما تسطيع أن تقوم به هو اقتراف خطية مميتة. اعتقد الفيلسوف الأنسنيوي ديزدريوس إيراسموس، الذي دخل معه لوثر في جدال حاد حول حالة الارادة البشرية، بأن الانسان يقسّم الى ثلاثة اقسام، هي: روح ونفس وجسد. قال، "تفتح الروح الباب للبشر ليصيروا آلهة. ويفتح الجسد من خلال شهواته وغرائزه الدنيا، الباب لإمكانية ان يصبح البشر حيوانات. وأما النفس، المتموضعة بين الروح والجسد، فانه يمكنها: اما الاتجاه نحو الاسفل الى مصاف الحيوانات، أو الى العلاء نحو الله". اعتقد ايراسموس ان الانسان يمتلك الحرية لأن يكون سيدًا على نفسه. لكن عليه أن يصارع شهوات الجسد، من أجل الروح. في البند الثامن عشر، من "اعتراف ايمان أوغسبرغ" حول حرية الارادة، ذكر ميلنكتون قائلا، "نعلم أن الانسان يمتلك قدرًا بسيطًا من حرية الارادة، التي تخوّله ان يعيش حياة خارجية كريمة ويصنع الخيارات حول الأمور التي يفهمها العقل. إلاّ انه بدون نعمة الله وعمل الروح القدس، لن يكون الانسان قادرًا أن يرضي الله وتتكوّن فيه مخافة الله ". وفي كتابه "الاماكن العامة: الامكانات الانتربولوجية للطبيعة البشرية"، ذكر ميلنكثون، "أن الانسان ليس سيّد نفسه". وأضاف، " طبعًا، لا يمكننا أن ننكر ان لدينا نوعًا من الحرية، لكن ليس الامر كذلك بالنسبة لمشاعرنا الداخلية التي لا نتحكّم فيها". يقول الرسول بولس، "فإني أعلم أنه ليس ساكنا فيّ، أي في جسدي شيء صالح. لأن الارادة

حاضرة عندي، وأما أن أفعل الحسنى فلست اجد. لأني لست افعل الصالح الذي اريده، بل الشر الذي لست أريده فإيّاه أفعل. فإن كنت ما لست أريده إياه أفعل، فلست بعد أفعله أنا، بل الخطية الساكنة فيّ" (روميه7: 18-20).

آمن لوثر، انه لا قدرة للارادة البشرية أن تتجّه نحو الله بسبب، استعبادها للخطية. لهذا، فإن خلاص الانسان وتبريره أمام الله، هو ليس عملا بشريا، وانما عمل نعمة الله بشكل كامل. قال لوثر، " النعمة الالهية، هي التي تخلق فينا الايمان، ولا أحد يستطيع أن يعيق عمل النعمة من تحقيق هدفها". آمن أن الحريّة التي نحصل عليها في الايمان بالمسيح، توجّه صفعة الى محبة الذات، لأنها تميت الانسان القديم ليحيا الجديد. في مطالعته الانتربولوجية "العاطفة وليس العقل هي التي تدير الارادة"، قال ميلنكثون، " تظهرالاختبارات الشخصية أن أقل امر يستطيع ان يتحكّم فيه الانسان هو قلبه، بالرغم من كل التعاليم الفلسفية اليونانية والرومانية التي تحاول اثبات العكس". أضاف، " تفيد الخبرة البشرية، أن الارادة الانسانية لا تستطيع بقوتها الذاتية، أن تتحكّم بالمحبة أو الكراهية. فالذي يفترض أن الارادة بطبيعتها قادرة أن تجعل مشاعر تتغلب على اخرى، يكون واهمًا. فالانسان في طبيعته ليس سيدًا على نفسه. ليس سيدا، على عمق كيانه وقلبه ومركز ارادته التي تنبع منها العاطفة والمشاعر". آمن ميلنكثون أنه عندما يتجدّد قلب وذهن الانسان، من خلال عمل الروح القدس، عندها يصبح القلب حرًا ويفكّر الذهن بكل ما هو صالح. لم يؤمن ميلنكثون أن الانسان يمكنه أن يدرك، ما يحدث في اللاوعي الذي تحدّث عنه فرويد. الاّ أنه تيقّن أن كلمة الله، هي الوحيدة القادرة بقوة الروح القدس أن تسلّط الضوء على ما يجري داخل الانسان، وتخوّله بالاعتماد على نعمة المسيح أن يصير ثانية سيدًا على نفسه. يعتقد لاهوتيو الكنيسة، أن خلاص الانسان يتحقّق بشكل تدريجي، بمعنى أن الله يزرع نعمته في الطفل عند المعمودية. فتنمو النعمة تدريجيا في حياته بينما هو يكبر ويشترك في أسرار الكنيسة السبعة وينمو ايمانه ويقوم باعمال الرحمة والصلاح. وإذا لم يكن قد تطهّر جيدا من خطاياه في الحياة على الأرض، فإنه عندما يموت يدخل الى المطهر كيما ينقّى ويطهّر من باقي خطاياه، الى ان يخرج من المطهر نقيّا الى الفردوس. الاّ أن المصلح مارتن لوثر، رفض هذا المفهوم التدريجي للخلاص. آمن أنه في اللحظة التي يتبرّر فيها الانسان أمام الله، بالنعمة وحدها بواسطة الايمان وحده، فإنه يحصل على يقين الخلاص. آمن أن خلاص الانسان ليس أمرا مجزّأ أو تدريجيًا، بل أن الخاطىء المبرّر يستلمه دفعة واحدة من الله، الذي يمنحه بركته الأبدية بشكل فوري. لكن يجب أن يتبع التبرير، مرحلة التقديس ، لأنه من خلال التقديس اليومي يرجع الانسان دائمًا الى الله عندما يخطىء اليه فيعترف بخطاياه، ويطلب منه غفرانه، وهكذا يمنحه الله قوّته مدى الحياة.

شكّلت خبرات لوثر العملية الحياتية: من فشل جهوده الرهبانية التقيّة في تبريره أمام الله، وادراكه أن الانسان لا يمتلك في طبيعته صلاحًا جوهريًا يمكنّه من المثول أمام الله، ولا معرفة صحيحة عن الله أو محبة حقيقية له، الأسس التي اعتمدها في ايمانه أن يقينية خلاص الانسان هي مؤسسة على عمل الله وحده. آمن لوثر، أن الله مصدر الايمان، هو نفس الخالق الذي يعيد خلق الخاطىء من العدم، رغما عن معارضة طبيعته البشرية الخاطئة وعجزه عن المساهمة في خلاصه. رفض لوثر أيضا، مفهوما سكولاستيا، يفيد أن الايمان يشكّل بالمحبة وأن المحبة هي التي تأتي أولاً بالايمان، وتعطي الايمان مشروعيته. فصل بين الايمان والمحبة، بين استلام الايمان وثمار المحبة التي تنتج حياة أخلاقية. اعتقد لوثر، أن يقينية الخلاص هي محورية في الايمان المسيحي والحرية المسيحية. فالخلاص، لا يستند على نشاطاتنا الكنسية، أو أعمالنا الصالحة أو نوعية أخلاقنا، لكنه يستند بشكل كامل على وعد الله الذي لا يخزي. قال لوثر، "لا يمكننا ان نستند في خلاصنا، على الاعمال والاستحقاقات البشرية التي لا استقرار لها، ولا ضمانة فيها، وتتعرض لاهتزازات وهجومات الشيطان، لكننا نستند فقط على وعود الله الصادقة بغفران خطايانا". اعتقد، أن استلام

الايمان من الله هو بحد ذاته استلام وقبول فاعل. فسّر كيف يكون استلام الايمان فاعلاً، بقوله: "الذي يبرّر الانسان ويخلّص الخاطىء، ليس هو نشاطات الايمان بحد ذاتها. انه ليس القدرة على استلام الايمان، ولا الايمان بما استلمه، ولا احساس المؤمن بحرارة الايمان، وإنما هو هبة الله التي هي الاحتماء في برّ المسيح الذي ينقله الينا. إنه غفران الخطايا وقبولنا في الخلاص لأجل المسيح. إنه قوة الروح القدس المنيرة للنفس، التي تجعل الانسان مؤهلاً لاستلام الخلاص واعلان الانجيل. فصل لوثر، الخلاص الشخصي عن أية نشاطات وأعمال انسانية أخرى. قال، "يحيا الايمان عند استلام الانسان لهبة يسوع المسيح المخلّصة. يحدث هذا الاستلام، بشكل منفصل عن كل نشاطات الايمان الداخلية والخارجية التي لا صفة خلاصية لها، وانما تأتي في سياق ثمار الروح القدس. يستلم المؤمن ايمانه، دون أن يكون له اي فضل فيه. قال لوثر، "يعطي الله الايمان ليدفىء قلب مستلمه بنعمة الروح القدس، فيخلق فيه محبة واثقة في الله، تتوقع كل شيء وتقبل كل شيء من الله. ومن علاقة محبة الله الفاعلة، تفيض من مستلم الايمان المحبة للقريب والرغبة في مساعدته واظهار ثمار الروح في تصرفاته معه". خاطب لوثر السامعين لمحاضرته حول الرسالة الى أهل روميه، قائلاً لهم: "أنتم تصبحون أبرارًا مخلّصين من أجل المسيح. ليس اليوم أبرار ويوم آخر مخلّصين، ولكن عندما يبرّركم الله بالايمان، تصبحون أبرارًا ومخلّصين، قبل أن يكون عليكم أن تفعلوا أي عمل صالح، وبغض النظر عن قدرتكم في تقديم شيء يرضي الله". وأضاف، "ليس الايمان عملاً يعدّ ويحضّر الانسان نفسه له، لكنه قدرة الهية تحريرية مفرحة، يجريها الله فينا من خلال الروح القدس. الايمان ثقة كاملة. الايمان تجاوب مع كلمة الله في الانجيل، حيث وعدنا الله بغفران لكل ذنوبنا ولعقاب الخطية، كأولاد لله، ودون أن نساهم في شيء، بل فقط نقبل في الخلاص، ونصبح ورثة للحياة الابدية".

برّ الايمان وليس الأعمال

اعتقد لوثر أن موقع حدث التبرير هو في عمق قلب وادراك الانسان، الأمر الذي يخرج خارجا دور أعمال الانسان الصالحة في السعي نحو خلاصه. علّمت كنيسة القرون الوسطى أن الممارسات التقشفية الرهبانية، تخفّف من هول الضيقات الروحية، والاحساس بالذنب والقلق التي تسبّبها الخطية. لكن، بالرغم من التزام لوثر كراهب أوغسطيني بكل الممارسات التقشّفية التي فرضها نظام الرهبنة، فقد اكتشف وبعكس تعليم الكنيسة، أن الممارسات التقشّفية لم تخفّف أبدا من صراعه الروحي الداخلي. عاش لوثر، في رعب من عبارة "برّ الله"، أو "عدالة الله"، التي نطق بها بولس "لأنه فيه معلن (برّ الله) بايمان لإيمان، كما هو مكتوب، أما البار فبالايمان يحيا" (روميه1: 17). أزعجت تلك العبارة ضميره. قال: " كرهت هذه العبارة، لأني اعتقدت أن هذا الإله يريد أن يدفع بالخطاة خارجًا". تساءل: "ما هذه المهمة الشاقة، أن نأتي الى الله ونخترقه وسط غضبه؟ هذا مثل السير على طريق من الشوك، أو بين السهام والسيوف". تلك العبارة، جعلت لوثر ينظر الى الله على أنه إله غاضب وديّان، يحاسبنا ويعاقبنا على آثامنا وخطايانا. الاّ أن اختباره لتبرير أو قبول الله له بالايمان وحده، غيّر نظرته الى الله من إله ديّان وغاضب الى إله رحمة ونعمة. قال لوثر، "ان مشاعر: اليأس والرجاء، الغضب والرحمة، تحدث كلها في القلب والادراك الداخلي، حيث لا تستطيع ان تدخل اليها الممارسات التقشّفية والاعمال الصالحة لتعينها". وأضاف، "هذه الأزمة هي أزمة داخلية، والهنا يعمل في وقت الأزمات والتوتّرات والصراعات التي لا تحتمل، فيفدينا وينقذنا بنعمته". لم يشعر لوثر بالراحة وسلام الضمير، إلاّ عندما أدرك بعمق معنى عبارة "برّ الله". قال لوثر، "بدأت أفهم أن برّ الله، الذي يحيا به الانسان، إنما هو عطية الروح القدس، التي هي الايمان. هذا الفهم جعلني أشعر وكأني ولدت من جديد. وكأني دخلت عبر بوابة كبيرة الى الجنة نفسها".

وأضاف، "لا علاج للضمير المضطّرب واليأس والموت الروحي، إلاّ اذا ما تمسّك بوعد النعمة المقدّم في المسيح. هذا هو برّ الايمان. هذا هو برّ المسيحي. إنه برّ أقوى من أي برّ ذاتي أو شرائعي تعطيه الشريعة الموسوية، لأنه برّ النعمة والرحمة وغفران الخطايا". وصف لوثر تأثير هذا الاختبار الروحي عليه قائلا، "من ذلك الوقت، تغيّر كل وجه الكتاب المقدس بالنسبة لي. فما قاله بولس في رسائله عن برّ الله، قد اكتسب معنى جديدًا بالنسبة لي".

لا يقدّم لوثر دليلاً، أنه يفهم قدرة الممارسات التقشّفية على تغيير تصرفات وسلوك الانسان المعتاد عليها، لكنه اعتقد أنها تحجب عن الانسان ادراكه لخطاياه. كان اعتقاده هذا، مخالفًا لاعتقاد القديس أوغسطينوس بأن الممارسات التقشفية تنتج ايمانًا حقيقيًا. لكن خبرة لوثر كراهب إتّبع كل الممارسات التقشفية وأنظمة الدير بالتدقيق، لم تؤثر على توبته واختباره لحدث التبرير بالايمان، وعلى قناعته بأن الانسان هو فاسد ومفلس روحيًا أمام الله. قال، "للقلب عيون ثاقبة، يجب ألا يستهين أحد بها. لهذا، يجب على القلب أن يكون مستعدًا ليرى ويشعر بنعمة وصلاح الله. فانه على الرغم من كون هذا خفيّا بشكل كامل عن العيون، يجب أن تشعر بصرخة الايمان في عمق قلبك، لأنه من هناك تتصل بالله". توافق لوثر مع لاهوت الكنيسة الذي نظر الى الجسم، كممر للعبور الى نفس وروح الانسان. إلاّ أنه لم يتوافق معها، بأن هذا العبور يتم من خلال الممارسات التقشفية. قال، "إذا ما كانت الروح دون ايمان، فإن النفس ومعها كل الحياة، لا يمكن إلاّ أن تسقط في الآثام والشرور. وهكذا، تصبح كل أعمال الانسان شريرة ومدانة، حتى لو قتل نفسه بالصوم والممارسات التقشفية، وقام بكل الأعمال التي يقوم بها القديسون، فإنها كلها لن تنفعه شيئًا". وأضاف، "كيما نصبح حقيقة قديسين، من الضروري أن يحفظ الله، أولاً أرواحنا، ومن ثم نفوسنا وأجسادنا، ليس فقط من الخطايا الظاهرة، وإنما أيضًا من الأعمال الزائفة التي قد تبدو صالحة". غيّر هذا الاختبار الشخصي الروحي لتبرير الله له بالايمان وحده، كامل حياة مارتن لوثر، وصاغ جدول أعماله لحركة الاصلاح الانجيلي.

نوعيّ البرّ

ميّز لوثر في لاهوته بين نوعين من البرّ: الأول، برّ الايمان الذي لا يعتمد على أي من الأعمال، وإنما يعتمد فقط على نعمة الله. الثاني، برّ الأعمال أو البرّ الأخلاقي أو المدني، الذي لا يبرّرنا أمام الله. قال: " للناس حرّية معيّنة في البرّ الثاني، لكن لا حرية لديهم في البرّ الأول، لأن ارادتهم مستعبدة للخطية". وأضاف: "لن تدعو عبدًا يعمل تحت أوامر سيده انه حرّ. لكن الى حدّ ما، تستطيع أن تدعو انسانًا او ملاكًا يعيش تحت سيادة الله المطلقة أنه حرّ". ذكر لوثر في البند السادس عشر من بنوده الاصلاحية الخمسة والتسعين، "أن الانسان الذي يعتقد أنه يستطيع أن ينال نعمة الله بما يملك، فإنه يضيف خطية على خطاياه، ويصبح مدانًا بشكل مضاعف. لهذا، علينا أن نردّد دائمًا نحن نتّكل على رحمة الله، لأننا لا نستطيع أن نعيش بناء لوصاياه". تحدّث لوثر عن موقف الاستعداد الفاعل لقبول النعمة والايمان، لكنه أيضًا آمن أنه حتى في هذا الاستعداد، فالله هو العامل والفاعل في الحياة. قدّم لوثر عام 1519، عظة عن نوعيّ البرّ: برّ الايمان، وبرّ الأعمال. ذكر عن البرّ الأول: " أن الايمان، يزرع فينا برّا غريبًا عنا، ليس منا ولا من أعمالنا، وإنما من النعمة وحدها". قال، "يخرج المسيح منا يوميًا الطبيعة القديمة أكثر فأكثر، على قدر ما ينمو فينا الايمان وتنمو معرفة المسيح. لا يزرع الله فينا، هذا البرّ الغريب عنا دفعة واحدة. لكنه يبدأ برّ الايمان، عندما نتبرّر أمام الله ، لكنه لا يكتمل بشكل نهائي الاّ بعد الموت". حول البرّ الأخلاقي، قال لوثر: "هذا البرّ، هو برّ ثمار الايمان الصالحة. إلاّ أن هذا البرّ يثمر فينا، لأننا نعمل مع البرّ الاول، برّ الايمان.

البرّ الأخلاقي هو نوعية الحياة التي نعيشها بشكل مفيد في أعمالنا الصالحة". آمن لوثر أن البرّ الأخلاقي الثاني في المؤمن، هو نتيجة برّ الايمان الاول. قال، "كلّما نتطابق مع الله، كلّما أصبحنا أكثر فأكثر فاعلين في مسيرة ايماننا، ولن نكون ضحايا لتصرفاتنا".

اعتقد لوثر أنه عندما نؤمن بالمسيح، فإنه يمنحنا طبيعة روحية داخلية جديدة، تجعلنا أبرارًا بالنعمة، وتحرّرنا من الخطية والدينونة الأبدية. فالطبيعة الجديدة ليست طبيعة جامدة، لكنها تسعى أن تعبّر عن نفسها. قال، "يتّحد المؤمن بالمسيح، فيخرج منه: الخطية والموت والدينونة، ويدخل اليه ما ينتمي للمسيح، أي: النعمة والحياة والخلاص. الاّ أننا لا نصبح مقدّسين داخليًا وروحيين بشكل كامل، لأننا لا نزال نملك الطبيعة القديمة فينا. لكننا نبدأ بالتقدّم في هذه الحياة، الى أن نصبح كاملين في الحياة الابدية". ميّز لوثر بين: الفكر الروحي والجسم الجسدي، عندما علّق على قول بولس، "فان كنت ما لست أريده فاياه أفعل، فلست بعد أفعله أنا بل الخطية الساكنة فيّ. فاني أسرّ بناموس الله بحسب الانسان الباطن، ولكني أرى ناموسا آخر في أعضائي، يحارب ناموس ذهني ويسبيني الى ناموس الخطية الكائن في أعضائي" (رومية 7: 20-23)، قال لوثر، "يُحرّر الروح القدس الفكر من الخطيئة، لكن يبقى الجسد مباعًا تحت الخطيئة. فإنه في نفس الانسان، يتواجد نوعان من العلاقة: الأولى، علاقة تحت النعمة، التي تجعل الانسان روحيًا يعيش تحت نعمة الله. الثانية، علاقة تحت الخطية التي تجعل الانسان جسديًا، الاّ انها لا تضعه تحت غضب الله. وهكذا يكون الانسان المسيحي، "خاطئا مبرّرا، في آن واحد". فسّر لوثر عمليا، العلاقة بين الطبيعة الروحية الجديدة والطبيعة الجسدية القديمة، بقوله، "يمكن أن يقول الانسان الذي يقبل الايمان: أن هذه الحياة لا تقوى فيها، لكنها في طريقها الى التقوى. لا صحة فيها، لكنها تتحسّن. ليست في حالة الكينونة، لكنها تتحوّل نحو ذلك. ليست في حالة السكون، لكنها في حالة الحركة. نحن لسنا الآن ما سنكون عليه، لكننا في طريقنا الى ذلك. لم تنتهِ العملية بعد، بل تستمر بشكل فعّال. لم نبلغ الهدف، لكننا في الطريق الصحيح. لا يبدو كل شيء لامعًا ومضيئًا في الحاضر، لكن سيصبح كذلك. لا نزال بعيدين عن الكمال، لكننا نسير في ذلك الاتجاه. الاّ أنه من غير الممكن، أن يتحقّق ذلك في هذه الحياة".

آمن لوثر أن الايمان الذي يبرّر ويحّيي الانسان، لا يبقيه خاملا وبدون محبة. قال ، "حيث أن المسيحي في هذه الحياة، لا يعيش من أجل نفسه بل من أجل الآخرين ومعهم. لهذا، عليه أن يخضع طبيعته القديمة في طريقة يتمكّن فيها أكثر فاكثر، من أن يخدم الآخرين بحرية واخلاص، ولا يبقى خاملاً في حياته. هذا التغيير الكبير الذي حصل بواسطة الايمان، يجب أن يقود المسيحي الى تغيير موقفه من الآخرين المحتاجين لرحمة الله ومحبته". أعلن قائلا: "لا يعيش المسيحي في ذاته، وإنما في المسيح وفي قريبه الآخر، وإلاّ لن يكون مسيحيًا. يعيش في المسيح بالايمان، وفي قريبه في المحبة. يتجاوز بالايمان نفسه الى الله، ويتنازل بالمحبة عن نفسه نحو الآخر. الاّ أنه يبقى دائمًا في الايمان والمحبة. فحياة الفضيلة ممكنة للجميع، وانما فقط عندما تتطابق اراداتهم مع ارادة الله".

المشاعر في الايمان

كان مارتن لوثر رجل مشاعر في حياته وموهوبًا في التعبير عنها. آمن، أنه ليس هناك ايمانًا حقيقي بالله، إن لم ينخرط فيه كامل كيان الانسان. اعتقد أن اللاهوت والتعبّد، هما وجهان للايمان المسيحي. الأول، يتناول الأفكار والعقائد. والثاني، يتناول الممارسة والقلب. أعطى مساحة كبيرة، للقلب في علاقته مع الله، وفي حياته التعبدية. "القلب" في الكتاب المقدس، هو محور شخصية الانسان وموطن كل قواه: الذكاء، والمشاعر، والارادة، والشهوة. إلاّ أننا اليوم، نتحدّث عن الدماغ موطن التفكير. والقلب موطن

المشاعر. إن التوجه الحديث لفصل المشاعر عن الافكار، والقلب عن الفكر هو مصطنع. بالنسبة للوثر، ليست المشاعر خالية من التفكير. القلب بالنسبة له، ليس فقط مشاعر دافئة، لكنه، قلب ذكس ومفكّر. تحدّث لوثر عن العلاقة الحميمة بين الأفكار والمشاعر، في مقدمة كتابه "تفسير المزامير". قال "الافكار والمشاعر مترابطة، وهي تولّدُ بعضها البعض". وصف غنى المشاعر الموجودة في سفر المزامير، بقوله، "يضع سفر المزامير أمامنا، قلوب القديسين وكنوز نفوسهم العميقة، لنتمكن من النظر اليها والتأمل بها". قارن قلوب القديسين بالحدائق الجميلة، التي تنبت فيها أزهار الافكار الساحرة والمفرحة حول الله. قال، "يتيح لنا سفر المزامير، امكانية النظر الى قلوب القديسين ورؤية نوعية الأفكار التي يفتكرون بها. فنعرف كيف كانت مواقفهم، ومشاعر قلوبهم في مختلف الاحوال والظروف التي مرّوا بها، وكيف وثقوا بالله: ان كان في أوقات الفرح والرجاء، أو في أوقات الخطر والضيق. فقلوب القديسين هي نبع كلماتهم وتصرفاتهم".

آمن لوثر أن التكلّم مع الله في الصلاة، يقتضي منا أن نفتح قلوبنا وننشر أمامه، ما تحتويه في أعماقها. قال، "كتبت كتابات كثيرة في الكتب، لكنها لم ترَ طريقها الى القلوب". اعتقد أنه ليس هناك ايمان بالله، دون أن تشعر به في القلب. فسماع الكلمة ومعرفتها لا يكفيان. عندما وعظ، عن "قانون ايمان الرسل"، وتوقف عند تفسير عبارة: "وأؤمن بالروح القدس"، فانه ردّد كلمة "القلب" ليس أقل من خمس عشرة مرة. ذكر في تفسيره، "لا يمكن للنفس الكسولة، أن تشعر من تلقاء ذاتها بما تقوله. إنه عمل الروح القدس الذي يسكبه الله في قلوبنا، من يؤّهلها لتقبل الانجيل. لأن الذين يسمعون كلمة الله، تنضرم قلوبهم بنار الروح القدس، فتشهد ان الايمان حقيقة فعلية". اقتبس لوثر قول الرسول بولس: "لأنك إن اعترفت بفمك بالرب يسوع. وآمنت بقلبك أن الله أقامه من الأموات خلصت، لأن القلب يؤمن به للبرّ، والفم يعترف به للخلاص" (رومية 10: 9-10). في كتابه "ترتيب خدمة العبادة باللغة الالمانية"، أوضح لوثر، ما معنى "أن نؤمن بالقلب". اتّبع نهج السؤال والجواب. سأل "ماذا يعني أن تؤمن بالله؟". أجاب "يعني أن تثق به من كل قلبك، وأن تتوقّع من الله كل النعم والاحسان والمساعدة والتعزية، اليوم والى الأبد". وعلى سؤال آخر، "ماذا يعني أن نؤمن بابنه يسوع المسيح؟". أجاب، "يعني أن نؤمن من القلب، أننا سنكون ضالين الى الأبد، ان لم يمت المسيح من أجلنا". لأهمية المشاعر في اختبار الايمان، عمل لوثر على ابراز المشاعر، عند ترجمته للكتاب المقدس من اللغتين العبرية واليونانية، الى لغة شعبه الألمانية. اعتقد لوثر، أن مترجميّ الكتاب المقدس ينبغي أن يكونوا مؤهلين لهذا العمل الكبير. قال، "ليست الترجمة مهارة كل انسان. إنها تتطلب قلبًا متدرّبًا، مختبرًا، عالمًا، مستقيمًا، مكرّسًا، صادقًا، يخاف الله". أراد أن تصل كلمة الله، ليس فقط الى العقول، وإنما، أيضًا الى القلوب. عند تفسيره لقول المرنّم "أذبح لك (أقدّم ذبيحة) منتدبا. أحمد اسمك يا رب" (مزمور54: 6)، ذكر لوثر: "يطلب النبي داود في هذا المزمور، مساعدة الله ضد أعدائه. ويعده بتقديم ذبيحة له". ترجم العدد الى اللغة الالمانية، على الشكل التالي: "سوف أقدّم لك ذبيحة فرح". فسّر ترجمته بقوله، "يرغب الله أن نفرح فيه، لأنه صالح، يملأقلوبنا بالسعادة والعزاء". هذا هو الله الذي اختبره لوثر. إنه أب محبّ ولطيف ومعزّ، ومعطي الفرح.

كان على لوثر، أن تتغيّر مشاعره ليفهم حقيقة ماذا يعني أن يصلّي عدة مرّات في اليوم، "أبانا الذي في السموات". لم يكن اختباره في طفولته مشجّعا ليفهم حقيقة ما يعني لقب "أبّ"، لأن والديه كانا متطلّبين وقاسيين عليه. أخبر لوثر رفاقه، كم عاقبه والده بقسوة لاقترافه أخطاء بسيطة (يذكر مؤرخون أن لوثر لم يكن استثناء في طريقة معاملة الأهل لأولادهم آنذاك). يذكر لوثر، أن أحد أسباب ترهّبه ودخوله الى الدير، هو لكي يرتاح من قسوة والده عليه. لم يختبر معنى لقب "الأبّ"، إلاّ عندما صار هو أبًا، ورزق مع زوجته كاثرين فون بورا (كاتي، كما كان يسميها)، الطفل الاول هانس، عام 1526. كان عمر لوثر آنذاك أربع واربعين سنة. إنذهل بكثافة مشاعره عندما رزق بهانس. قال، "لم أعتقد بأن قلب الأبّ، قد يكون مفعمًا الى

هذا الحدّ من مشاعر الحب الجيّاشة لأولاده". رزقا ستة أولاد، مات اثنان منهما. يتّفق المؤرخون أن عائلة لوثر لم تكن فقط مثالا للبيت المسيحي الحقيقي، لكنها شكّلت له دعما نفسيا واجتماعيا كبيرا. تعلّم ماذا يعني أن ينحني الأبّ نحو طفله ليغيّر حفّاضته المتّسخة. قال "لن يحب الآبّ ابنه أقلّ عندما يكون متّسخًا، لكن عليه أن يقوم بأمر ما، لتغيير حفّاضته وازالة الوسخ عن طفله". ربط رائحة الحفّاضة الكريه برائحة قذارة خطايانا. قال، "قذارة خطايانا تصل الى السماء. لكن مع أننا خطاة، إلاّ أننا لا نخسر علاقتنا العائلية، لمجرد أننا اقترفنا قذارة خطية، لأن محبة الله أبينا نحونا، هي أقوى من قذارة الخطية التي تلصق فينا. وهنا تكمن معجزة غفران الله لقذارة خطايانا". اتخذت كلمات المسيح، "الحق الحق أقول لكم، إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الاولاد، فلن تدخلوا ملكوت السموات" (متى18: 3)، معنىً جديدًا له عندما صار أبًا وصار لديه أولاد.

ان اختبار مارتن لوثر، كأبّ، صبغ تفكيره اللاهوتي وتفسيره للكتاب المقدس. قال، "العلاقة بين اللاهوت والممارسة هي عملية تعلّمية، يبقى فيها الانسان دائمًا تلميذًا متعلّمًا". تميّز لوثر، بقدرته على مزج الأمور البسيطة، بالأمور العميقة. عندما فسّر قول المرنّم، "إعبدوا الرب بخوف، واهتفوا برعدة" (مزمور2: 11). تساءل: كيف، "يمكن أن تتضمّن عبادتنا لله، خوفا وهتافا في آنْ واحد؟ كيف نعبد بفرح، ممن نرتعد منه؟ فسّر الآية باعطاء مثال من علاقته مع ابنه هانس عندما كان صغيرا، فقال: "عندما أكون منشغلاً بأمرٍ ما، فان ابني (هانسي)، يغنّي لي أغنية. وعندما يصدر اصواتًا مزعجة كثيرة، تعيقني عن التركيز، فإني أؤنّبه قليلاً فيخاف. الاّ أنه يعود للغناء بصوت خافت، وإنما بوقار وعدم ازعاج". ثم يستنتج قائلا، "هكذا استطاع هانسي، أن يمزج الفرح مع الاحترام لوالده. وما حدث مع ابني، هو مثال عن كيفية تفسير الآية".

برّ المسيح ضمانة خلاصنا

اعتقد لوثر، أن الهدية العظمى التي يستلمها الانسان المبرّر والمقدّس من الله، هي برّ المسيح. يقول الرسول بولس "متبرّرين مجّانًا بنعمته بالفداء الذي بيسوع المسيح ،الذي قدّمه الله كفّارة بالايمان بدمه لإظهار برّه من أجل الصفح عن الخطايا السالفة بامهال الله لإظهار برّه في الزمان الحاضر، ليكون بارًا ويبرّر من هو من الايمان بيسوع" (روميه3: 24-26). قال لوثر، "يمنح الله برّ المسيح للخطاة، عندما يعترفون له بخطاياهم وآثامهم، فلا تعود تحسب عليهم، لأنها قد غفرت". وأضاف، "هذا البرّ هو غريب عن الانسان. إنه ليس من سماته الداخلية ولا من صفاته، بل من خارجه. ياتي برّ المسيح كحقيقة مضافة عليه". آمن لوثر، بفعّالية بر المسيح، فقال: "يعطى برّ المسيح فقط للذين يؤمنون به، فتكون له نتائج فعّالة في حياتهم. فبعد أن يكون الخاطىء محطّمًا بسبب خطاياه ، فانه يصبح محرّرا منها ومقبولاً لدى الله". أكمل قائلا، " يختبر المبرّر تحرّرًا من الناموس، ولكن ليس من مشروعية الوصايا العشر، المفيدة لسلوك وتصرفات الانسان المسيحي، وانما تحرّرا من الاجبار والفرض وما يرافق ذلك من قلق وضغوطات يمليها الناموس على الضمير بسبب عجزه عن تطبيقه، ليجد نفسه في حماية برّ المسيح". أحبّ لوثر، استخدام المسيح لصورة الدجاجة التي تحمي فراخها الضعفاء تحت جناحيها، وتقيهم من هجوم طير الصقر (تشبيه للشيطان) . "كم مرة أردت أن أجمع أولادك، كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها" (متى 23: 27)، تحدث من خلال هذه الصورة، عن حماية برّ المسيح لأولاده المبرّرين. قال، "عندما تغطي وتخبّىء الدجاجة فراخها من هجمات الصقور، تتوفّر الحماية لهم، ليس بفضل ثقة الفراخ بأمهم، وإنما بفضل جناحيها الحاميتين لهم. هكذا هو برّ المسيح، انه يغطّي ويحمي أولاده المبرّرين ببره. فالمؤمنون يحفظون ويخلّصون، ليس بسبب الايمان بحد ذاته، وانما بسبب برّ المسيح".

كتب لوثر عام 1516، رسالة الى الراهب جورج سبانل، الذي كان منشغفا في برّه وأعماله. كان سبانل زميله في الدير في ويتنبرغ، ومن ثم نقل الى دير آخر. قال له لوثر: "أحب ان اعرف كيف تسير الأمور معك، واذا ما كنت قد تعبت من برّك". وأضاف، "ألم تتعلّم بعد أن تتنفّس بحرّية في برّ المسيح وتثق به. هناك الكثيرون في هذه الايام، ممن يريدون أن يكونوا أبرارًا وصالحين بجهودهم الشخصية، وهم يعتقدون بأن الانسان يمكنه، ذلك بفضل امكانيات القوة الاخلاقية الكامنة فيه، ان يحقّقوا خلاصهم. لهذا يسعون ليصيروا صالحين كيما تتكوّن لديهم الثقة أنهم قادرون أن يقفوا أمام الله بفضائلهم واستحقاقاتهم". تابع لوثر، "إنهم لا يعرفون أن برّ الله قد أعطي الينا مجانًا بغنى في المسيح. إنهم يجهلون أنه ليس هناك أساس آخر للخلاص، إلاّ برّ الله الذي هو برّ المسيح، الذي يمنحه مجانًا لكل من يؤمن به دون مشاركة الانسان فيه". دعا لوثر سبانل، الى تغيير نهجه قائلا: " أخي العزيز جورج، تعلّم المسيح وإياه مصلوبًا، كما قال الرسول بولس "لأني لم أعزم أن أعرف شيئًا بينكم إلاّ يسوع المسيح وإيّاه مصلوبًا" (2كور2: 2). تعلّم أن تحمده. أن تقول له: يا سيدي يسوع. أنت هو برّي، لكني أنا خطيتك. لقد أخذت على نفسك ما كان لي، وأعطيتني ما كان لك. أخذت على نفسك ما لم يكن لك ، وأعطيتني ما لم يكن لي". حذّر لوثر سبانل، من عدم اعتبار نفسه خاطئا، فقال له، "إحذر يا جورج ألاّ تعتبر نفسك خاطئًا، لأن يسوع المسيح لا يسكن إلاّ بين الخطاة. نزل الينا من السماء، من حيث كان مع الابرار، ليسكن بين الخطاة ويخلّصهم. تعلّم منه فقط. فإذا ما كان أخذ عنك خطاياك وجعلها خاصته، فاجعل برّه خاصتك".

العلاقة بين التبرير والتقديس

استخدم المصلح مارتن لوثر، مفهومَيْن لوصف رحلة الإيمان المسيحي هما: "التبرير" و"التقديس". اعتقد إن مسيرة الإيمان المسيحي، تبدأ بالتبرير وتستمر بالتقديس، وقد أصرَّ على عدم الفصل بينهما. عرّف التبرير بأنه "إعلان الله بقبوله الإنسان الخاطئ الذي آمن بيسوع المسيح واتخذه ربًا ومُخلّصًا لحياته". لكن قبول الله للخاطىء لا يعني أن الإنسان قد انتهى من الخطيئة بشكل نهائي، ولم يعد يخطىء فيما بعد. يقول لوثر: "يجب ألا يظنّ من يؤمن بالمسيح أنه قد صار طاهرًا من كل خطاياه، لأنه سوف يواجه معركة مستمرة مع بقايا الخطيئة". يطلب لوثر من الانسان المؤمن أن يتذكَّر أن التبرير الذي ناله ليس منه، بل حصل عليه من نعمة خارجة عنه، هي نعمة المسيح. لهذا يجب ألاَّ يَعْتَدّ ببرّه الذاتي بل ببرّ المسيح فيه الذي حصل عليه بالايمان. يعرّف لوثر "التقديس" بأنه "مواجهة اختبارات حياتنا المسيحية العملية اليومية بالعودة الدائمة إلى الله لطلب معونته. فآدم القديم الذي يسكن فينا بسبب فسادنا لم يُلْغَ منًّا بشكل كامل، وما عملية التقديس إلاَّ مُحاربة بقايا الخطية التي فينا. وبالتالي، إذا كان التبرير هو إعلان الله قبول الإنسان الخاطئ، فالتقديس هو محاربة بقايا الخطية فينا بالرجوع الدائم إلى الله".

عندما وصف لوثر أن الانسان المؤمن يصبح "خاطئا مبرّرا"، أوضح هذا التناقض في القول بما يلي: "تنحصر حياة الإيمان بين نقطتَيْن. نقطة البداية التي يكون فيها الإنسان يعيش بشكل كامل في الخطية، أي غير مبرَّر أبدًا. ونقطة النهاية التي يصل فيها المؤمن إلى مرحلة القداسة الكاملة فلا يخطئ فيما بعد، والتي لا تتحقق على الأرض بل فقط بعد الموت أي في السماء". فالخاطىء المبرّر، يعيش حياة الإيمان بين نقطتي البداية والنهاية. فعندما يتوب الإنسان ويتبرّر أمام الله، فهو ينطلق من نقطة البداية، لهذا يصبح "مبرَّراً". ولكن بما أنه لم يصل إلى النقطة النهائية، أي مرحلة القداسة الكاملة التي يصل إليها في السماء، فإنه يبقى خاطئا محتاجًا إلى غفران المسيح". آمن لوثر أن النمو في حياة الإيمان والقداسة يتّم، من خلال عيش حياة الإيمان أي بقراءة كلمة الله، والصلاة، والمشاركة في سرّي الكنيسة المعمودية والعشاء الرباني،

والكرازة وخدمة المحتاجين وغيرها. عبر حياة الايمان، يتقدم المؤمن من نقطة البداية إلى نقطة النهاية. حرص لوثر على تسليط الضوء على الصراع الروحي الذي يعيشه الانسان المؤمن، فقال: "هناك صراع شديد ومستمر داخل الإنسان المؤمن، وذلك بين إنسان الخطية القديم وإنسان الإيمان الجديد اَللَّذَيْن يسكُنان فيه. يقوم المؤمن من خلال عملية التقديس التي يُجريها الله في حياته، بالخلع الدائم للإنسان القديم ولبْس الإنسان الجديد". شدّد على أن هذا الصراع يجب ألا يتوقف أبدًا بل يبقى في حركة مستمرة، ليست دائرية إنما باتجاه نقطة النهاية، لأنَّه إذا توقف فهو يشير إلى التقهقُر في حياة الإيمان والبُعد عن الله. قال لوثر، "يتحقق النمو في حياة الإيمان والقداسة، عندما ينتقل المؤمن من خطية إلى برّ، وفي الوقت نفسه من بِرٍّ إلى برّ. وفي هذا التقدم ، يزداد تأثير البرّ في حياة المؤمن، فنصير كما يقول بولس "مشابهين صورة ابنه" (رومية 29: 8)، "ونتغير إلى تلك الصورة عينها من مجدٍ إلى مجدٍ" (٢كورنثوس ٣:١٨). لكن مهما ازداد هذا التقدم، فالمؤمن لن يصل إلى مرحلة القداسة الكاملة مهما طالت حياته على الأرض. لكن فقط عند الوصول إلى نقطة النهاية برؤية المسيح، لأننا سنكون مثله، كما قال الرسول يوحنا "ولكن نعلم أنه إذا أُظْهِرَ نكون مثله، لأنَّنا سنراه كما هو"(1يوحنا 3: 2). لهذا فالإنسان المسيحي هو "مبرر" إذا ما قورن مع نقطة البداية، "وخاطئ" إذا ما قورن مع نقطة النهاية". اعتقد اللاهوتي الإنجيلي المعاصر كارل بارت، أن التبرير والتقديس هما الجواب الواحد للنعمة الإلهية نفسها. ففي التبرير نسمع بأننا خطاة قد قَبِلَنا الله فغيَّر طبيعتنا وصالحنا معه في المسيح. وفي التقديس نؤكِّد أنه حتى في أعمالنا نعتمد بشكل كامل على نعمة الله. أراد مارتن لوثر بنظرته هذه التركيز، من جهة على أهمية المبادرة الإلهية وعمل النعمة ومعجزة الغفران وحاجة الإنسان القصوى والمستمرة إلى حضور الله في حياته. ومن جهة أخرى، تجنُّب استغلال المؤمن لهذا الاختبار الروحي والتغيير الكبير فينشغل ببرّه وإنجازاته ويصاب بخطيئة البرّ الذاتي والكبرياء الروحي، وهكذا يسقط من النعمة.

الفصل الخامس

الفلسفة الأخلاقية المصلحة

الفلسفة مفيدة لكنها لا تقدّم الايمان

آمن المصلح فيليب ميلنكثون، أن الله قد أعطى آدم وحوّاء، صلاحا ذهنيا بالفطرة عندما كانا في حالة براءة ما قبل الخطية. إلاّ أنه بسبب خطيتهما وتمردّهما على وصية الله، فقد أظلمت أذهانهما، وبعدها أظلمت أذهان البشرية وأصيب الفهم الإنساني بالعمى. قال ميلنكثون، "حفرت الأفكار الصالحة في ذاكرتنا بالفطرة، إلاّ أنه لم يعد بإمكاننا التعرّف عليها في حالتنا الحاضرة في الخطية. لهذا نحتاج الى النعمة الالهية وقوة الايمان بالمسيح، لأنه ينير أذهاننا بروحه القدوس". أضاف، "حيث أن الذهن قد أظلم، طالت الظلمة أيضا الفلسفة. لهذا، لم يعد ممكنا للفلسفة الحقيقية أن تُبنى إلاّ على الإيمان وحده، لأن الفلسفة الحقيقية تتطلب يقينيّة، واختبارا روحيا داخليا يمنحه فقط الإيمان بالمسيح ". قال لوثر: "لا أحد يستطيع أن يكون لاهوتيا مسيحيا حقيقيا دون يقينيّة شخصيّة، لأن اليقينيّة هي من جوهر الإيمان".

اعتقد ميلنكثون، أنه مهما كانت الكتابات التي يكتبها أعظم الفلاسفة قيّمة، الاّ أن كتابات الإنجيل تسمو وتعلو عليها جميعها. قال: "ما يقدّمه الإنجيل لا يستطيع أي فيلسوف تقديمه. فالفلسفة عاجزة عن معرفة الحقائق الروحية التي تُبنى عليها الحياة المسيحية. لم تقدّم الفلسفة علاجا لداء النفس الخاطئة. ولم يمتلك الفلاسفة أية معرفة عن المسيح وخلاصه. لهذا، فإن الرسول بولس الذي عرف واختبر المسيح، يسمو ويعلو على الفلاسفة على سقراط وهومر وغيرهم". انتقد ميلنكثون، أولئك الذين أعطوا الفلسفة شأنًا كبيرًا جدًا الى حدّ حجب المسيح. قال، "مرّت الكنيسة في أزمنة، عانقت فيها الفيلسوف أرسطو، بدلاً من أن تعانق المسيح. وهكذا، حجبت الفلسفة الأفلاطونية العقيدة المسيحية. لم يعتقد ميلنكثون، أن الفلسفة تقدّم للإنسان السعادة الروحية المتوقعة، الاّ أنه رأى فائدتها للمجتمع، في مجالات التربية والآداب الأخلاقية وغيرها، التي هي الأساس للقوانين المدنية، الاّ أن الفائدة الروحية للإنسان لا تنبع إلاّ من الإنجيل.

النظر إلى الفلسفة، من نظّارات كلمة الله

قبل انخراطه في حركة الاصلاح الانجيلي، كان ميلنكثون منتسبًا إلى التيّار الأنسنيوي، الذي يركّز على أهمية الانسان والفلسفات القديمة والأبحاث والدراسات الانسانية، فكان يرفض قبول أية عقائد أو معلومات دون دراسة وتمحيص ونقد. وبعد إنضمامه إلى الايمان الانجيلي، اقتنع أن التيار الأنسنيوي، قزّم ما هو إلهي، إلى ما هو إنساني. رفض ميلنكثون إرتكاز الأنسنيويين، فقط على فرضيات فلسفية التي اعتبرت أن الإنسان هو مجرّد كائن بيولوجي، لا طبيعة روحية له. لكنه بعد التحوّل الى الايمان الانجيلي صار يمزج بين الفلسفة واللاهوت. اتّخذ من الفلسفة ايجابياتها، ليستخدمها في اللاهوت الإنجيلي. سأل ميلنكثون قائلاً: "ما نفع أن نعرف أن الله هو خالق جميع البشر، إن لم ندرك أن رحمة هذا الخالق هي على الجميع؟ وما نفع أن نعرف أن الله رحوم بشكل عام، إن لم نختبر رحمته في حياتنا؟ فلا يمكن للفلسفة أن تزوّد الإنسان، بالمعرفة الجوهرية الضرورية لخلاصه، كما يتعرّف على الله الذي أعلن عن نفسه، بشكل فريد في المسيح". أضاف، "هذه المعرفة هي ممكنة، فقط من خلال الإيمان بالرب يسوع المسيح. انها المعرفة الحقّة لله، التي لا تستطيع أن تقدّمها الفلسفة". بالرغم من إدراكه، لحدود ومحدودية الفلسفة في إيصالنا إلى الإيمان الحقيقي بالله، الذي يعلنه الكتاب المقدّس ، اعتقد ميلنكثون أن الفلسفة تساعدنا على تكوين فهم جديد للاهوت الانجيل. رأى أهمية بعض تشعبّات الفلسفة، مثل: علم البيان، الذي يهدف الى وضع الحقيقة، في أشكال أدبية. وعلم المنطق، الذي يساعد في تفسير وفهم الكتاب المقدس بشكل عميق بالرجوع إلى اللغات الأصلية، التي كتب فيها.

نظر ميلنكثون إلى الفلسفة، من خلال نظّارات كلمة الله. رأى في الطبيعة مسرحًا أساسيا، لكشف الله عن عنايته الإلهية في الانسان، إلاّ أنه أكد أنه لا يمكن أن نفهم هذه العناية الإلهية إلاّ من خلال الإيمان

بالمسيح، الذي يمنح المعرفة الصحيحة والسعادة الحقيقية، والتي تتأتى من دراسة الكتاب المقدس، واختبار حضور الله في الحياة. وجد ميلنكثون أن الرسالة إلى أهل رومية، هي المفتاح الرئيسي لفهم كامل أسفار الكتاب المقدس، كونها تشدّد على أهمية وأولوية الإيمان. في عمله اللاهوتي ، بعنوان: "إعلان قصير، عن عقيدة الرسول بولس"، الذي كتبه عام 1521 ، ذكر ميلنكثون، "يعتقد السكولاستيون، أن الناس قادرة على محبة الله بقواهم العقلية الخاصة، لكن بولس أكّد أن الطبيعة البشرية، لا تستطيع أن تحبّ نفسها، الا من أجل نفسها". طلب ميلنكثون من القساوسة واللاهوتيين أن يركّزوا إنتباههم على تفسير الكتاب المقدس، ويتركوا للسكولاستيين، مهمة الاهتمام بالمواضيع التي تخصّهم، كالرياح وأشكال الأشياء وغيرها. ردّد نفس الفكرة في عمله الأساسي: "الأماكن العامة"، اذ قال "ان حالتنا البشرية الخاطئة الساقطة، تجعلنا لا نحب شيئًا، إلاّ إذا كان لمصلحتنا الخاصة".

قدّم ميلنكثون أطروحة، مؤلّفة من أربعة وعشرين بندًا، أوضح فيها توجّهاته الفلسفية واللاهوتية. أظهرت أطروحته قناعته أن كلمة الله تضع حدودًا لقوة العقل الفلسفي الذي آمن به السكولاستيون. ظهر هذا الأمر جلّيا لا سيما في البنود الستة الأولى، التي نصّت على ما يلي: الأول، تحب الطبيعة البشرية نفسها بالدرجة الأولى، وتعمل لأجل نفسها. الثاني، لا تستطيع الطبيعة البشرية، أن تحب الله، لأجل الله. الثالث، توجب علينا الشريعة الالهية أو الوصايا العشرة، والشريعة الطبيعية أن نحب الله، من أجل الله. الرابع، بما أننا لا نستطيع أن نفعل ذلك بسبب خطيتنا، فإن هذا ينشىء فينا خوفا من الله كخوف العبيد. الخامس، يجب أن نكره ما نخافه. السادس، الشريعة تجعلنا نكره حتى الله.

الفلسفة الأخلاقية في الشريعة والإنجيل

قبل إعتناقه الايمان الإنجيلي، كان يعتقد ميلنكثون، أن الانسان هو واضع كل الشرائع والقوانين. ولكن بعد انخراطه في حركة الاصلاح، اقتنع أن الشرائع والقوانين مؤسسة بالدرجة الأولى من قبل الله، مع أنه يوجد البعض منها مؤسس من قبل البشر، مثل القوانين المدنية والأخلاقية والسياسية التي بموجبها يحكم الحكّام والأمراء والملوك بلدانهم. اعتقد أن القانون الطبيعي الذي يحفره الله بالفطرة في ضمير الانسان، والفلسفة الأخلاقية التي نجدها في الفلسفة، هما القاعدة الأساسية التي تُبنى عليها المجتمعات، والأسس التي تنطلق منها كل النشاطات الإنسانية الأساسية. ذكر في كتابه، "الأماكن العامة"، بعض القواعد الأساسية التي تبنى عليها المجتمعات، والتي هي: عبادة الله، عدم تسبّب الأذى لبعضنا البعض، واستخدام الأشياء بشكل مشترك.

رأى ميلنكثون، أن العهد القديم من الكتاب المقدس يتضمن ثلاثة انواع من الشرائع: الأول، شريعة أخلاقية، التي هي الوصايا العشر. الثاني، شريعة قضائية، للحكم بين أحوال ومسائل الناس. الثالث، شريعة طقسية، التي هي طقوس العبادة. اعتقد، أن الشريعتين الطقسية والقضائية، هما غير ملزمتين للمسيحيين. قال، "على المسيحيين ألا يلتزموا بالشريعتين: الطقسية والقضائية، لأنهما كُتبتا حصريًا للشعب العبري، وهما تتضمّنان ممارسات وتقاليد تختّص بهم وحدهم". وأضاف، "اذا ما كان لا بد لنا أن نتعامل معهما، علينا أن نتعامل معهما بشكل مجازي". آمن ميلنكثون، أن الشريعة الأخلاقية أو الوصايا العشرة، لا تزال سارية المفعول، لأن الله وضعها لكل الأجيال والعصور. اعتقد أن الوصايا العشر، تضع المسيح نصب أعيننا، لنراه بشكل واضح. قال، "توصي الشريعة بالخير وتمنع الشر، والإنجيل يتضمن مواعيد رحمة ونعمة الله. بعد دراسته أقوال الرسول بولس حول العلاقة بين الشريعة والانجيل، لا سيما في الآيات التالية: "إن كانت خدمة الموت المنقوشة في حجارة" (2كورنثوس3: 7). "أما شوكة الموت فهي الخطية، وقوّة

الخطية هي الناموس" (1كورنثوس15: 56). "لأني لست أستحي بإنجيل المسيح، لأنه قوّة الله للخلاص لكل من يؤمن به" (رومية1: 16)، فقد وجد أن تمييز بولس بينهما، هو المفتاح الرئيسي لفهم كل الكتاب المقدس. قال: "الشريعة تظهر الخطية، والإنجيل يُظهر النعمة. الشريعة تشير إلى المرض، والإنجيل يشير إلى العلاج. الشريعة تشير الى الموت والدينونة، بينما الانجيل يشير إلى الحياة والخلاص ". رأى ميلنكثون أن مضمون الوصايا الثلاثة الأولى، من الوصايا العشرة هي حول عبادة الله، ومحبّته من كل القلب والفكر والحياة. قال: "في حين أن السكوستيين علّموا أن محبتنا لله، تعني أن نؤمن أنه موجود، الاّ أننا نعلم أن محبة الله بشكل حقيقي، تتطلّب أكثر من الإعتقاد والإيقان بقدرة العقل البشري على المحبة. فلن يدرك إنسان ماذا يعني أن نحبّ الله، إن لم يعلن له الروح القدس ذلك. لأنه عندها تلتهب قلوبنا فينا، كما التهب قلبا تلميذي عمواس عندما كسر يسوع الخبز وانفتحت أعينهما، إذ قالا: "ألم يكن قلبًا ملتهبًا فينا، إذ كان يكلّمنا على الطريق" (لوقا24: 32).

الفلسفة الأخلاقية ضرورية للمجتمع

لقّب المصلح فيليب ميلنكثون، "بأخلاقي الإصلاح الإنجيلي"، وذلك لتشديده الكثيرفي كتاباته على أهمية الأخلاق الحميدة في الحياة المسيحية. كتب شروحات لأعمال عدد من الفلاسفة القدماء، مشدّدًا على البعد الأخلاقي في فلسفاتهم. من هذه الشروحات: "موجز عن الأخلاق" ، في العام 1523. "حول الواجبات" في العام 1525. "عروضات أرسطو حول الأخلاق" في العام 1529. "ملاحظات على بعض كتب أرسطو السياسية" في العام 1530. في كتابه "موجز عن الأخلاق"، قال ميلنكثون: "الفلسفة الأخلاقية، هي الوعي الكامل للمبادىء، والواجبات، وكل الفضائل التي يفهمها العقل، والتي تتوافق مع طبيعة الإنسان. هذه الفلسفة، هي ضرورية لتوجيه الإنسان في السلوك الصالح والصحيح في حياته المدنية في المجتمع". وأضاف، "الفلسفة الأخلاقية ضرورية للحياة المدنية، كضرورة: الطعام، والماء، وحاجات الانسان الأساسية للعيش. استندت أعمال ملينكثون الأخلاقية، التي كتبها بين أعوام (1530-1520) على تصنيفه نوعين من البر مطلوبين من البشر: برّ الايمان، والبرّ المدني أو الأخلاقي. يمكن ترجمة تعبير "البرّ المدني"، في العصر الحديث "بالسياسة". إعتقد ميلنكثون، أن الإنسان هو في طبيعته، إجتماعي وسياسي. آمن أن الأفكار التي يزرعها الله في الإنسان بالفطرة، هي الأساس للفلسفة الأخلاقية، والفلسفة الأخلاقية هي الأساس للقوانين المدنية. كتب قائلا: "مع أن الفلسفة الأخلاقية تهتّم بشكل أساسي في السياسة، لكن لا يجب أن تفهم السياسة على أنها، مجرّد إدارة الحكّام لبلادهم". قال ميلنكثون، "يخبرنا الفيلسوف أرسطو، أن الأخلاق هي بحدّ ذاتها سياسة، لأن السياسة تحكم في المسائل الشخصية والمسؤوليات العامّة. إن هدف السياسة هي العمل على خلق قادة أخلاقيين صادقين، ومواطنين صالحين". وأضاف، " ليست الفلسفة الأخلاقية مجرّد تقصّي عن أصول وصوابية القوانين التي يسنّها الحكّام، ولكنّها تسعى للتفتيش عن المصادر والأسباب بهدف تقديم معلومات عملية للمجتمع، يمكن إستخدامها لتحسين حياة الناس، وتأسيس مجتمع سلمي صالح". لم يقبل ميلنكثون، كل مفاهيم الفيلسوف أرسطو الفلسفية والسياسية عن ظهر قلب، بل كان حذرًا في تصحيح بعض مفاهيمها، كيما تنسجم مع مفهوم الايمان المسيحي، الذي استنتجه من دراسته للكتاب المقدس.

عندما كانت ويتنبرغ، مدينة ميلنكثون ولوثر، تمرّ في فترة دقيقة من عدم الاستقرار، وشهدت تمرّدا مدنيا وفوضى وانفلات أخلاقي، وكان مارتن لوثر، آنذاك في المنفى. دعا ملينكثون سكان المدينة، الى التصرف بأخلاق حميدة بناء للفضائل والأخلاق المسيحية. أدرك، أن كنيسة ناشئة من قلب الاصلاح، هي بحاجة ماسّة إلى وضع قواعد أخلاقية للحياة، تنسجم مع فكر ومبادىء الاصلاح الانجيلي. حيث أنه اعتقد

أن الفلسفة تضع قواعدا أخلاقية للسلوك والتصرّف، جعل ميلنكثون الفلسفة الأخلاقية، في خدمة الإنجيل، واعتمد على العقل في الحكم على ممارسات الناس للفضيلة في المجتمع. إن فلسفة ميلنكثون الأخلاقية، هي فلسفة معدّلة، بمعنى: أنه نهل الفضائل الأخلاقية من أفكار الفلاسفة اليونانيين، وقام بتعديلها، متّخذا منها ما يناسب الفكر الإنجيلي المسيحي، ورافضا ما لا يوافقه. من النصوص التي استخدمها ميلنكثون لتقديم الفلسفة المسيحية الأخلاقية المعدّلة، قول الرسول بولس: "أنظروا، أن لا يكون أحد يسبيكم بالفلسفة، وبغرور باطل، حسب تقليد الناس، وحسب أركان العالم، وليس حسب المسيح" (كولوسي2: 8). مع أن ميلنكثون كان مثل بولس مشكّكا في الفلسفة، إلاّ أنه لم ينكر فائدتها للإنسان والمجتمع. في تفسيره لرسالة بولس إلى كولوسي، قال ميلنكتون، "هناك جانب من الفلسفة يعالج مواضيع أخلاقية، ويصدر قوانين للمجتمع. لا يرفض بولس الفلسفة، وإنما سوء إستخدامها. إعتبرها من هبات الله الجيّدة التي وهبها للإنسان. علّق على قول بولس: "لأن كل خليقة الله جيّدة، ولا يرفض شيئا، إذا ما أخذ مع الشكر" (1تيموثاوس4: 4) بقوله "أن بولس يوصي باستخدام الفلسفة، لأنها مفيدة للإنسان" وأضاف، "بالرغم من الأخطاء التي تقع فيها الفلسفة، فانها لا تزال تتضمن أيضا جانبا أخلاقيا". شجّع المسيحيين على الإنكباب على معرفة الشقّ الأخلاقي والطبيعي من الفلسفة. وضع رسائل الرسول بولس، المقياس الأول لقبول أو رفض أية فلسفة مهما علا شأنها. دمج بين فهمه للفلسفة، وفهمه لكلمة الله. قال: "تخطىء الفلسفة تجاه الله، في ثلاثة أمور: الأول، انكار عناية الله وسيادته. مع أن الفلسفة، يمكن أن تؤكّد أن الله خلق العالم، الا أنها لا تستطيع ان تدعو الناس الى الايمان بعناية الله وسيادته، لكن فقط كلمة الله يمكنها أن تفعل ذلك، وتدعو الانسان الى الايمان بعناية وسيادة الله. الثاني، تدّعي الفلسفة، أن "البر المدني" من خلال التصرفات الأخلاقية الصالحة، تكفي الانسان للحصول على رضى الله وبركاته في الحياة، لكن الإنجيل يؤكّد أن الأعمال الصالحة، هي غير كافية لتبرّر الإنسان أمام الله. فالتبرير أمام الله هو بالنعمة وحدها، بواسطة الإيمان وحده. الثالث، أنكر ميلنكثون، الافتراض أن الروح البشرية تستطيع بقوتها أن تحبّ الله بشكل حقيقي. قال، "حرمت الخطيئة، الانسان من قدرته على محبة الله من تلقاء نفسه. لهذا هو يحتاج لتدخّل النعمة الالهية". بالرغم من موافقة ميلانكثون مع الفيلسوف أرسطو، أن العقل يمكن أن يقودنا إلى بعض الفضائل الأخلاقية، الأمر الذي اعتبره عظيما، الا أنه كان له اليقين، أن العقل لا يمكن أن يعلن لنا الغاية النهائية للإنسان. وبالرغم من توافقه معه، بأن الغاية النهائية للإنسان هي السعادة السامية، لكنّه لم يعتقد أن العقل البشري وحده، قادر على منح تلك السعادة السامية. قال، "لا يستطيع العقل أن يؤكّد أيّ شيء عن إرادة الله، لكنه فقط في ضوء الإنجيل يستطيع المسيحي أن يعرف شيئًا عن إرادة الله ويقبل الرحمة المقدّمة لنا بواسطة يسوع المسيح".

الفصل السادس

لاهوت كلفن والنزعة الى الصوفيّة

ماهية الصوفية

"الصوفيّة" تعريف واسع جدا، من الصعب حصره في منظومة فكرية ولاهوتية وتأملية واحدة. يكتنف الغموض تعريف مصطلح "الصوفيّة". تنوعت النظريات التفسيرية للمصطلح، منها: أن مصدر كلمة "الصوفيّة" هو كلمة "صوفيا" باليونانية التي تعني الحكمة، لتشير أن المتصوفين جماعة حكماء. ومصدر آخر، يدّعي أن كلمة "الصوفيّة" تأتي من لابس الصوف، والمقصود بهم النسّاك الاتقياء الذين برزوا في بداية الاسلام. وآخرون يعتقدون أن الكلمة تعني "الطهارة". "الصوفيّة" توجّه تأملي، وممارسة

موجودة في العديد من الأديان، ومنها الأديان التوحيدية: اليهودية، المسيحية، والاسلام. تشمل مجموعة من المعتقدات والممارسات تتضمّن، اختبارات روحية فوق طبيعية تصل الى حد بلوغ حالة ذهنية سامية، ليصير المتصوّف واحدًا مع الله المطلق. تهدف الصوفيّة الى الوصول الى مرحلة القداسة والكمال الانساني على الأرض، واستعادة العلاقة والانسجام مع الله الذي خسره آدم في خطية السقوط الاولى.

من أهم الفلاسفة المؤثرين الذين شرحوا معنى الصوفيّة، الفيلسوف وعالم النفس الأميركي وليم جايمس (1842-1910) الذي عرّف الاختبار الصوفي، على أنه اختبار فريد من نوعه، أساسي أكثر من اللاهوت أو الكنائسية. قال "عندما نتصوّف، فاننا نصبح واحدًا مع المطلق، ونصير مدركين لهذه الوحدة معه". في كتابه "تنوّع الاختبارات الدينية" الذي هو دراسة كلاسيكية في الاختبارات الصوفية المتنوعة، والذي كان لها اثر عميق على الفهم الاكاديمي والشعبي للاختبارات الدينية. تحدث جايمس عن ثلاثة انواع من الصوفيّة: الصوفيّة الكتابية، الصوفيّة الليتورجية، والصوفيّة التأملية. يقول الفيلسوف جايمس، عند وصول المتصوّف الى تلك الحالة الروحية والذهنية السامية من الاتحاد مع الله، فان هذا الاختبار يصبح عابرًا للمذاهب والطوائف والاديان، اذ يثمّل المتصوّف بجمال الله وحضوره، ويشعر كأنه التقف واستوعب من قبل قوة كبيرة ليست من ضمن تحكمّه، فتعلن للمتصوّف حقائق الهية خاصة ورؤى روحية لا يمكنه اكتسابها من خلال الاختبارات العادية، ولا يوجد لغة مناسبة لوصف هذا الاختبار.

الصوفيّة في الأديان التوحيدية

برز الاتجاه الصوفي في المسيحية منذ القرون الأولى، مع القديس اليوناني ديونوسيوس الأريوباغي الذي تحوّل الى الايمان المسيحي بعد خطبة الرسول بولس في أريوس باغوس في أثينا، كما يذكر سفر اعمال الرسل (17: 34). عيّن ديونوسيوس أسقفًا على اثينا، واعتبر قديسًا في الكنيسة الارثوذكسية والكاثوليكية. كما يبرز هذا التوجّه مع القديس كليمنت الاسكندري، في نهاية القرن الاول. إعتمد لاهوت القديس أوريجانوس الصوفي التأملي، في القرن الثالث، لتأسيس الفكر الرهباني. يذكرالقديس اوريجانوس، أن الهدف من التصوّف هو الوصول الى اتحاد محبّب مع الله. والقديس أثنايوس صرّح قائلا، "لقد تجسّد الله ليجعل منا آلهة". يذكر اللاهوتيون الصوفيون، أن الصوفية، ليست شأنا أكاديميا علميا، وإنما اختبار روحي سماوي، يتأتى من خلال القراءة التأملية المعمّقة للكتاب المقدس، والاشتراك في الافخارستية والليتورجية الكنسية، وذلك بهدف اختبار حضور الله بشكل أعمق، والاتحاد معه، والذوبان في الذات الالهية، بحيث تزال الفروقات بين الله والنفس. أحد أبرز الذين قدّموا هذا اللاهوت الصوفي النسكي في الكنيسة البيزنطية في القرن الرابع عشر، هو اللاهوتي غريغوري بلاميس. من النتائج العملية، للاتحاد مع الله، هو "التألّه"، بمعنى اكتساب طبيعة الهية، اذ عند الانشغاف بالله، وعيش حياة الصلاة والشركة الروحية العميقة والتأمل في جوهر الله، يتّحد المؤمن مع الله ويدخل في حالة من الاتحاد العملي معه ليتشكّل على شاكلته. وهكذا، يستطيع معاينة الأداء الالهي ورؤية نور اشراق الله، على غرار ما حصل في التجلّي ورؤية التلاميذ للمسيح اثناء تجلّيه. هذا النور ينبثق من الجوهر الالهي الذي لا يفهم. انتشرت الكتابات الصوفية النسكية في الكنيسة الكاثوليكية في القرن الثالث عشر، لا سيما مع القديس برنارد دي كليرفوا. كما شهدت رواجًا في القرن الخامس والسادس عشر.

برزت الصوفية اليهودية في القرن الثاني عشر والثالث عشر في اسبانيا وجنوب فرنسا. تتضمن الصوفيّة اليهودية، أكثر من نوع واحد من التصوّف. هناك تصوّف يهودي يدعى "ميركافا"، ونوع آخر يدعى "الكابالا". "الميركافا" تركّز على حلم النبي حزقيال الذي رأى فيه مركبة نارية مؤلفة من كائنات

سماوية. هناك تركيز في هذا النوع من التصوّف على اختبار رؤى. لدى صوفيّة "الكابالا" اليهودية، كتابان، هما: "كتاب "الخليقة"، وكتاب "العظمة". يعرّف الفلاسفة العرّب، "الصوفية" على أنها اصلاح القلب وتوجيهه نحو الله كيما ينسى كل شيء ويتشغّف بحب الله. من أبرز الفلاسفة الصوفيين، في الاسلام: ابن عربي، ابن رشد، الحلاّج ، عمر الخيّام. من أهداف التصوّف الاسلامي: تطهير القلب، الانتصار على الذات، ذوبان الشخصية الفردية في الذات الالهية، اختبار حالة من النشوة الروحية، الشركة مع الله، والحصول على معرفة سامية عنه. يلاحظ الدارسون لحياة المتصوّفين، أنهم يعيشون بانعزال وفردية، ولا ينغمسون في قضايا المجتمع، ومسائل العدالة الاجتماعية، بل يسعون من خلال اختباراتهم الصوفية، الى التخلّص من التوتّر والقلق، ليعيشوا في حالة السكون الداخلي. أدينت خلال التاريخ، بعض الممارسات والأفكار الصوفية المتطرّفة عندما خرجت عن المألوف. وأدين متصوفون لأفكارهم الغريبة، عندما تكوّنت شكوكحولهم.

البدعة الأوزيندرية

تنسب "البدعة الأوزيندرية" التي برزت لبعض السنوات أثناء زمن الاصلاح الانجيلي الى الألماني أندرياس أوزياندر(1498-1552) الذي كان منتسبا الى التيار الأنسنيوي. رُسِم أوزيندر كاهنًا. ثم تخلّى عن نذوره الرهبانية وانضم الى حركة الاصلاح الانجيلي. الاّ أنه، بالرغم من ارتباطه في الاصلاح، استمر في كتاباته الأنسنيوية. لعب اوزياندر، دورًا هامًا في النقاش اللاهوتي الذي قاده في مدينة نورمبرغ الألمانية مسقط رأسه، والذي أدّى الى تبنّي المدينة مبادىء الاصلاح الانجيلي عام 1525. قام على أثرها، مجلس ادارة المدينة، بتعيينه المرشد اللاهوتي للمدينة. وقع أوزيندر تحت تأثير العالم الأنسنيوي، يوهانس روشلين، المعلّم الخبير في اللغة العبرية، الذي قاده لدراسة تعاليم "الكابالا" الصوفية اليهودية، وهي مدرسة فكرية صوفية هدفت الى تفسير العلاقة بين الله الأبدي السرمدي الذي لا يتغير، والعالم الزائل المحدود.

رفض أوزيندر، عقيدة "التبرير القضائي"، التي آمن بها المصلحون. عرّف اللاهوتي الانجيلي تشارلز هودج، "التبرير القضائي"، على أنه، فعل وتصريح قضائي يعلن فيه الله، أن الانسان قد تبرّر أمامه وصار مقبولاً لديه". انه قضائي، بمعنى أن هذا التصريح يبرّر الانسان من ذنبه ،كما في محاكمة ويعلن أنه غير مذنب. الكلمة المعاكسة، لكلمة "يبرّر"، هي كلمة يدين ويعلن أنه مذنب. استخدم المصلحون عقيدة التبرير القضائي، بالمعنى اللاهوتي للاقرار بأن انسانا ما أصبح بارًا ومقبولا من الله. إن الأمر الفاصل وربما الجديد، بين لاهوت القرون الوسطى ولاهوت الاصلاح الانجيلي، هو مفهوم "التبرير القضائي" الذي جاء به المصلحون. الاّ أن أوزيندر الذي انتسب قبلا الى حركة الاصلاح الانجيلي، رفض لاحقا هذه العقيدة. أكّد لوثر على أهمية عقيدة التبرير القضائي بالايمان وحده، عندما قال: " تثبت أو تسقط الكنيسة، في نوعية موقفنا من عقيدة التبرير بالايمان".

أصدر أوزيندر عام 1550، أطروحتين جدليتين حول التبرير، أعلن فيهما وجهة نظره حول التبرير. ذكّر في البند رقم 58: " انه بإيماننا بالمسيح، وباشتراكنا بالإفخارسيتة. فاننا بتناولنا جسده نصبح جسدًا واحدًا معه، وبتناولنا دمه نطهّر من خطايانا". وفي البند 59 ذكر: "إذن، نحن ممجدّون بألوهية المسيح الجوهرية لأنه صلّى الى الآب قائلاً، "والآن مجدّني أنت أيها الآب عند ذاتك، بالمجد الذين كان لي عندك قبل كون العالم... وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني ليكونوا هم واحدًا فينا" (يوحنا17: 5، 22). ذكر في البند رقم 74: "ستكون هذه التعاليم أشد برودة من الثلج، للذين يعلّمون أننا مبرّرون فقط بسبب

غفران خطايانا، وليس أيضًا بسبب البرّ الذي يسكن فينا". وفي البند رقم 79، ذكر أوزياندر: "لا يحدث التبرير من خلال أعمالنا، وإنما من خلال الايمان بابن الله، الذي نتّحد به يومًا فيومًا بشكل أكبر معه، الى أن نصبح كاملين ونصل الى ملء قامة المسيح". لم يؤمن أوزيندر أن التبرير بالايمان، هو اعلان قضائي فوري من قبل الله، وإنما عملية تدريجية تحدث نتيجة سكن المسيح بطبيعته الالهية في الانسان الخاطىء. اعتقد أن البرّ الذي يغرس في المؤمن من طبيعة المسيح الالهية، هو العامل الجوهري في التبرير. لم يفسّر أوزيندر عقيدة "التبرير بالايمان"، كما فسّرها المصلحون، على أنها حصول المؤمن على برّ خارج عنه، وانما فسّر التبرير على أنه غرس برّ جوهري من طبيعة المسيح الالهية وليست الانسانية عندما يسكن في المؤمن. آمن مارتن لوثر، أنه في التبرير بالايمان، يحصل المؤمن على برّ ليس منه ولا فيه، وانما برّ خارج عنه، هو برّ المسيح. يمنح برّ المسيح تواضعا للانسان، اذ يجعله يتعرّف على حقيقة ذاته كما هي. الاّ أن أوزيندر، اعتقد أن الاتحاد مع المسيح هو المبدأ المطلق للبرّ، لأن المؤمن يدخل في وحدة حيوية واقعية مع المسيح. قال أوزيندر، "نحن لا نستطيع أن نتبرّر أمام الله، لمجرّد احتضاننا بالايمان لبرّ وطاعة المسيح، وانما من خلال البرّ الأبدي والجوهري الذي يسكن في طبيعة المسيح الالهية المتّحدة بطبيعته البشرية والذي يغرس فينا. ينمو هذا البرّ المغروس يوميا من خلال الاتحاد مع المسيح". وأضاف، " بالايمان يصبح الانسان، مشاركًا بالبرّ الالهي، لأن الايمان هو المبدأ الموحّد الذي يجعل المسيح يسكن في قلب الانسان. وحيثما يسكن البرّ الالهي، لا نستطيع أن نرى خطية".

بالغ أوزيندر، في التحدّث عن الاتحاد الجوهري مع المسيح الى حد الذاتانية. وصف الايمان على أنه التماهي مع المسيح. فسّر مشاركة المؤمن في البرّ الالهي من خلال الاتحاد بالمسيح، على أن المسيح يصبح لحمًا من جسمه وعظمة من عظامه. اعتقد أوزيندر أنه بغرس هذا البرّ فينا، فاننا لم نعد بحاجة للشريعة الأخلاقية. اعتقد أوزيندر أن البرّ الداخلي المغروس، يحثّ المؤمن الى السعي وراء القداسة وممارسة الفضائل، لأنه ينشىء عدالة داخلية تعمل بشكل مباشر في الضمير. آمن، أن التبرير تضمّن بالضرورة التقديس، لأن التقديس يأتي فقط نتيجة سكن طبيعة المسيح الالهية، وليس الطبيعة الانسانية في حياة الانسان المؤمن، الأمر الذي أثار حوله الاتهامات بالنسطورية. آمن أوزيندر ببرّ مزدوج، هو: برّ خارجي من المسيح، وبرّ داخلي مستمدّ من جوهر المسيح يزرعه بطبيعته الالهية التي تسكن في الانسان المؤمن. وهذا التعليم، هو بحسب رأي لاهوتيي الاصلاح، يضيف على عقيدة النعمة وحدها التي نادى بها المصلحون، ويخالف التعليم المصلح، بأن تبرير الانسان أمام الله يحدث ببرّ خارجي عن الانسان هو برّ المسيح ، بينما ثمار وفوائد التبرير نجدها في التقديس والقداسة الشخصية التي تظهر في الأعمال الروحية التي تأتي نتيجة قوة التبرير بالايمان. كما ميّز أوزياندر بين: الكلمة الخارجية، والكلمة الداخلية. قال: "الكلمة الخارجية هي الصوت الذي يتلاشى في أذُن السامع، والتي لا يمكن أن ندعوها كلمة الله، لأنه لا يمكن أن تتلاشى كلمة الله الى العدم، كما يحصل للصوت الطبيعي". وأضاف، "نسمع في البداية، الكلمة الخارجية التي تقدّم لنا المسيح بلغة بشرية، لتتلاشى عندما نفهم الكلمة الداخلية المخبّأة فيها، ونحفظها الى أن نؤمن بها. فنحن ننال الايمان من الكلمة الداخلية التي تسكن فينا، فنقبل المسيح بالايمان لتبريرنا، ونعرف أننا بالتأكيد حصلنا عليه في الكلمة الداخلية التي تبقى في قلوبنا. فكلمة الانجيل الخارجية، تجلب لنا كلمة الله الآب الداخلية. قال، "لا تأتي الينا هذه الكلمة في جوهر خارجي، لأننا لا نستطيع ان نفهمها، لكنها تجسّدت وأصبحت الهنا ومخلصنا وشفيعنا يسوع المسيح، الذي يسكن فينا بالايمان".

بهذه الأفكار الغريبة عن أفكار المصلحين الأساسيين، نادى أوزيندر بعقيدة تبرير مختلفة، عن عقيدة الاصلاح الانجيلي، التي علّمت أن التبرير أمام الله ،هو بالنعمة وحدها بواسطة الايمان وحده. يرى لاهوتيو الاصلاح، انه لم يكن هناك اعلان صريح للتبرير في عقيدة أوزيندر، وانما مجّرد وعد وعهد انه سيكون هناك تبرير. وبالتالي، فالتبرير أمام الله هو غير مضمون. أن نظرة أوزياندر هذه الى التبرير، هي نظرة داخلية ذاتانية، لكنّ المصلحين آمنوا أن الله يريد من أولاده أن ينظروا بعيدًا عن أنفسهم وخطاياهم، لا الى وعد نعمة، ولا الى انجاز شخصي، وانما الى يقين ثابت ينبثق ليس من تأملاتهم الذاتانية الداخلية، وانما من خارجهم، من المسيح. دعا التعليم الانجيلي المصلح الخطاة الى أن تكون دعوتهم واختيارهم ثابتين، كما قال الرسول بطرس، "لذلك بالأكثر اجتهدوا أيها الاخوة، أن تجعلوا دعوتكم واختياركم ثابتين" (2 بطرس 1: 10). كان المصلح مارتن لوثر، مدركًا لخطورة أفكار أوزياندر على لاهوت الاصلاح الانجيلي، وذلك قبل أن يطّور أوزيندر أفكاره في الأطروحتين الجدليتين اللتين أعلنهما عام 1550، الاّ أن لوثر مات عام 1546، ولم يتسنّى له الاصطدام مع لاهوته الصوفي، لكن جان كلفن اصطدم معه. قبل فترة قصيرة من موته، قال لوثر: "ستولد من بعدي عدة شيع، وأندرياس أوزياندر سوف يؤسس شيعة له". برز ما يسمى "الجدلية الأوزيندرية" بعد أربع سنوات من موته ، وكانت مدمّرة للّوثرية من عدة جوانب. شنّت على أوزيندر حرب شعواء من قبل معظم المفكرين واللاهوتيين اللوثريين، وسرت موجة من الاعتراضات على تعليمه اذ نشر أكثر من مئة مقالة ومنشور ضده بين الأعوام 1539- 1551. اعتبر مصلحون رأيه تسويقا للصوفية المسيحية. تمّ اتهامه أنه كان يسوّق خفية لعقيدة تبرير كاثوليكية. اعتقد اللاهوتي موهلر، أن آراء أوزياندر عن التبرير، هي كاثوليكية بشكل كامل. قال موهلر: "خالف أوزيندر، تعليم الاصلاح الانجيلي الذي رفع لواء النعمة وحدها بواسطة الايمان وحده. فأوزياندر أراد أن يضيف على انجيل النعمة". كانت مشكلة أوزيندر شغفه في الاستقصاء والبحث والتخمين. خياله وابتكاراته، قادت به الى فوضى عقائدية. ذكر الكاتب كارل لورنز، "تعيش الأوزيندرية في كل الذين يلجأون الى الأبحاث اللاهوتية لصياغة عقيدة تبرير، قد يجدها العصريون أكثر قبولاً لهم من عقيدة التبرير بالايمان، التي علّمها لوثر. لم تتوقف الاعتراضات ضد أوزيندر، بل استمرت حتى بعد موته واثرت سلبيًا على سمعته، الى أن شجب رأيه من قبل الكنيسة اللوثرية، التي رفضت تضمين تعليمه في كتاب "التوافق اللوثري" عام1577 ، الذي تم فيه الاعلان عن عقائد الكنيسة اللوثرية الرسمية. علّق المصلح الانكليزي توماس كرنمار على أفكار أوزيندر قائلا: "إن نقطة أوزياندر حول برّ جوهري يسكن في الانسان، وأن الكلمة الخارجية تتحوّل الى كلمة داخلية داخل الانسان، هي أفكار لا تنسجم مع الاصلاح".

لاهوت كلفن حول الاتحاد السرّي مع المسيح

ان التطوّر اللاهوتي الذي قام به المصلح جان كلفن، في عقيدة لوثر، "التبرير بالنعمة وحدها، بواسطة الايمان وحده"، هو تكلّمه عن "الاتحاد السري بالمسيح"، أو "التطعيم في جسد المسيح". استند في هذا التعليم على مجموعة من الآيات الكتابة، والعبارات التي نطق بها الرسول بولس لا سيما، قوله "في المسيح" أو "المسيح فينا"، هذا بالاضافة الى تحدّثه عن: لبس المسيح، الشركة، أو المشاركة معه، وغيرها. من هذه الآيات: "المسيح فيكم رجاء المجد" (كولوسي1: 26). "فأحيا لا أنا بل المسيح يحيّا فيّ" (غلاطية2: 2). "لأن المسيح هو العامل فيكم، أن تريدوا وأن تعملوا من اجل المسرّة" (فيلبي2: 12-13). أيضا لاحظ كلفن أن المسيح استخدم أيضا هذه اللغة، عندما قال: "في ذلك اليوم تعلمون، أني أنا في أبي، وأنتم فيّ، وأنا فيكم" (يوحنا14: 20). هذه الأقوال المتكرّرة لعبت دورا محوريًا في فهم كلفن لموضوع التبرير

بالايمان، واتحاد المؤمن السرّي مع المسيح. قال كلفن: "إن لغة الرسول بولس هذه، لها انعكاسات روحية عديدة على الطريقة التي يحصل فيها عمل الله". شبّه كلفن، الاتحاد السرّي بالمسيح، أو العلاقة الروحية بين المؤمن والمسيح، بالزواج الروحي بين المؤمن والمسيح. وهي فكرة مشابهة لفكرة الرسول بولس في أفسس، حول الزواج الروحي بين المسيح وكنيسته. كما أنها، مشابهة لفكرة زواج الله مع شعبه اسرائيل في العهد القديم. كتب كلفن، "في هذا الاتحاد بين الرأس والاعضاء، يسكن المسيح في قلوبنا. لهذا، فإننا نعطي لهذا الاتحاد السرّي المنزلة الاعلى، عندما نقبل المسيح بالايمان، وهكذا يجعلنا مشاركين معه في حياته". أضاف كلفن، "صمّم المسيح أن يجعلنا واحدًا مع انسانيته، لا لكي ننظر اليه كمن ينظر من مسافة بعيدة، وإنما ننظر اليه كمطعّمين في جسده، ونفرح في شركة البرّ معه. توقف عند قول الرسول بولس، "إن كان أحد في المسيح، فهو خليقة جديدة. الاشياء العتيقة قد مضت. هوذا الكل قد صار جديدًا" (2كورنثوس5: 16). قال ان عبارة "في المسيح" هي غنية ومعبّرة جدًا، لأننا نحن نغتني في المسيح طالما نحن أعضاء في جسده ومطّعمون فيه، وقد أصبحنا واحدًا معه. لهذا، فالمسيح يجعلنا مشاركين معه في كل شيء قد استلمه من الرب". قال كلفن، "ان طبيعة هذا الإتحاد السري، هي طبيعة خفيه غير مرئية، وهي معاكسة لأي إتحاد، جسدي أو مادي". آمن أن هذا الاتحاد السرّي يتحقّق من خلال الروح القدس، العامل الخفي في هذا الاتحاد، ويظهر في سياق عقيدة الخلاص. وهو يظهر نتائج فداء المسيح، في قلوب جماعة الايمان ليوحّدهم معه. الاّ أن هذا الاتحاد لا يكتمل في هذه الحياة، مع أنه ينمو تدريجيًا من خلال التقديس.

أخضع كلفن، مفهومه عن الاتحاد السري بالمسيح لعقائد: التبرير، والتقديس، وسرّي الكنيسة. يذكر الكاتب دنيس توبرلو، بعض سمات هذا الاتحاد السري مع المسيح، والتي هي: أولاً، انه اتحاد يتحقّق نتيجة تأثير عمل نعمة الله، وليس نتيجة أعمال الانسان . ثانيًا، انه اتحاد ينتج عن معرفة اختبارية لله. ثالثا، أنه اتحاد يتضمّن عقيدة الثالوث. رابعا، طبيعة هذا الاتحاد، هي طبيعة روحية، لا تتضمّن أي مزيج من مجموعة من الجواهر. رابعا، يتضمّن هذا الاتحاد: الإرادة، وعنصر الإدراك الذهني. خامسا، سمة هذا الاتحاد، هو المحبة الفاعلة غير الأنانية، الموجّهة نحو الله والقريب. سادسًا، أنه اتحاد يحدث في سياق الكنيسة وأسرارها المقدسة. قال كلفن: "إن تطعّمنا في جسد المسيح، لا يعني فقط أننا نتطابق معه في مثال الصليب، وإنما باتحادنا السرّي معه، فانه يحيينا بروحه القدوس، فننمو معه، وينقل الينا قوته. وبالتالي، يتحقق هذا الاتحاد بالمسيح، بالنعمة وقوة الروح القدس". آمن كلفن أنه خلال هذا الاتحاد السرّي، يحدث تبادل بين المسيح وجماعة الايمان، إذ ينقل اليهم ما هو له، وينقلون اليه ما هو لهم. وبهذه الطريقة يشارك المسيح مع أعضاء جسده، فيلبسون المسيح ويطعّمون في جسده. قال كلفن، "إن تطعّمنا في جسد المسيح، من خلال هذا الاتحاد السري معه، يمنحنا الفرصة لكي ننمو معه وفيه، وهو يحيينا بروحه القدوس، وينقل الينا قوته". وأضاف، "لا يمكن التعبير عن هذا الاتحاد بشكل كافٍ، لأنه بطبيعته سرّي، وعسر الفهم". لهذا لم يسترسل كلفن، في وصف هذا الاتحاد بكلمات أكثر، لأنه بالنهاية سرّ الايمان المسيحي.

أوضح اللاهوتي الكلفيني في القرن السابع عشر، توماس واتسون، أن هناك مظهرين في الاتحاد مع المسيح بالايمان الذي تكلّم عنه كلفن: الأول،انه اتحاد طبيعي يشترك فيه جميع البشر على السواء، لأن المسيح لبس الطبيعة البشرية بالتجسّد، بعكس الملائكة التي لم تلبس هذا الجسد. الثاني، انه اتحاد روحي، يسميه واتسون "الاتحاد المقدس"، الذي هو الاتحاد السري مع المسيح. قال: "من الصعب جدًا وصف طريقة هذا الاتحاد، الاّ أن لديه الميزات التالية: اتحاد حقيقي وليس وهميا. اتحاد عهدي، بمعنى أن المؤمنين يتجدّدون ويولدون من جديد في المسيح. اتحاد فاعل، بمعنى أنه شبيه بالاتحاد في الزواج، بحيث ان المؤمنين والمؤمنات يصبحون واحدًا مع المسيح. اتحاد كتابي، أي بموجب تعاليم الكتاب المقدس، وأن الروح القدس هو العامل الذي يوحّد بين الأب والابن، فإنه ايضًا هو العامل الذي يوحّد بين المسيح والانسان

المؤمن. قال واتسون، "من خلال الروح القدس، يضمن المسيح لنفسه الذين يحبونه. الاتحاد السري بالمسيح، هو اتحاد الحياة اذ بموجبه تدرك النفس البشرية فرادتها وتميّزها باعتمادها على المسيح الذي يحييها بطريقته، لنصبح مشاركين في انسانية مبررة يكون فيه المسيح هو الرأس".

انتقاد كلفن للبدعة الأوزيندرية

بعد أن قرأ كلفن أطروحتي أوزريندر اللتين أصدرهما عام 1550، اصبح حذرًا جدًا في استخدامه لتعبير "الاتحاد السرّي بالمسيح". في مراجعته لكتابه "أسس الايمان المسيحي" عام 1559، اوضح كلفن ما قصده بتعبير "الاتحاد السري بالمسيح"، ذاكرا أن هذا الاتحاد لا يتضمن اي مزيج بين جوهر الله وجوهر الانسان، الأمر الذي أخطا به أوزيندر. اعتقد كلفن، أن أوزيندر أيّد مفهوما للتقديس تحدّثت عنه الفلسفة المانيكية الفارسية في القرن الثالث، والتي علّمت أن التقديس هو امتلاك الانسان لجزء من الجوهر الالهي كوسيلة للقداسة. الخطر الذي رصده كلفن في تعليم أوزيندر، هو مزجه طبيعة المسيح الالهية، مع طبيعة الانسان في اتحاد بشري. يقول اللاهوتي، كاستنر، "يبدو أن هذا المزج في الطبيعة، هو اعتراض كلفن الأساسي على أوزيندر". لم يتناول هجوم كلفن على مفهوم أوزياندر، حقيقة اتحاد المؤمن بالمسيح، وانما طبيعة هذا الاتحاد، لأن أوزيند قال، "أن المسيح يصبح لحمًا من جسم المؤمن وعظما من عظامه". وهكذا، مزج طبيعة المسيح الالهية، بجسد الناس المؤمنين. تحدث اللاهوتي لويس بركهوف، عن خطرين يتضمنهما هذا الاتحاد الذاتاني الذي تكلم عنه أوزيندر: الأول، خطر اعتبار هذا الاتحاد، على أنه اتحاد في الجوهر. وهكذا تذوب شخصية الواحد في الآخر، لأنه من الضروري جدا أن يبقى كل من المسيح الرب، والشخص المؤمن مميّزين عن بعضهما. والثاني، خطر اعتبار هذا الاتحاد الذاتاني، مجرّد اتحاد أخلاقي او اتحاد محبة وتعاطف، كتعاطف الأصدقاء مع بعضهم، دون أن يتخلّل هذا الاتحاد، تسرّب حياة المسيح وحياة المؤمن الى بعضهما البعض. شدّد بركهوف، على أن هذا الاتحاد، لا يتضمن سوى الالتصاق بشخص المسيح وخدمته والاستعداد لقبول ملكوت الله. أصرّ كلفن، أن طبيعة هذا الاتحاد السرّي مع المسيح، هي طبيعة روحية.

أجاب كلفن على مفهوم أوزياندر، "للتبريرالمزدوج" في مفهومه الفريد "النعمة المزدوجة": نعمة التبرير والتقديس. قال كلفن، "في التبرير (القضائي)، يعلن الله أن الانسان الذي يؤمن بالمسيح، يصبح بارًا ومتصالحًا مع الله. وفي التقديس، يتغيّر المؤمن ويتقدّس يوميًا بواسطة عمل روح المسيح الذي يؤهّله ليعيش حياة القداسة، وهكذا تفيض الاعمال الصالحة في حياة المسيحي نتيجة لايمانه". إن العلاقة المترابطة، بين التبرير والتقديس هي سمة مميّزة في المفهوم الذي صاغه كلفن للخلاص، لتصحيح مفهوم أوزياندر عن البرّ المغروس. أسقط كلفن المفهوم الأخلاقي من التبرير، الذي تضمّنه مفهوم أوزيندر. قال، "ان نعمة الله في التبرير هي مختلفة بل تقريبًا منفصلة، عن النعمة المنسوبة الى برّ المسيح في التقديس". بالنسبة لكلفن، ليست النعمة المزدوجة هي: جذر وغصن، وإنما غصنين مختلفين من جذر مشترك هو اتحاد المؤمن مع المسيح. اعتقد كلفن، أن التقديس لا يولّد التبرير وكأن التقديس غصن ينمو من الجذر، لكن الذي يؤمن: ينال برّ المسيح، وينال النعمة المغيّرة بواسطة الروح القدس بالتقديس. آمن أن التقديس هو خلاص، بقدر ما هو التبرير أيضًا خلاص. اعتقد أن هذين المظهرين للنعمة: التبرير والتقديس، لا يمتزجان ولا يختلطان. وصف عمل المسيح، كنعمة مغيّرة وليس كبرّ يغرس، كما ادّعى أوزيندر. قال كلفن، "يتبرّر المؤمنون، لأنهم يطّعمون في المسيح بالايمان، وليس بناء لبرّ يغرس فيهم". اعتقد أن هذا الترابط المتبادل بين التبرير والتقديس، يحقق لاهوتيًا ما يلي: أولاً، يحمي مفهوم البرّ المنسوب الى المسيح في عقيدة التبرير. ثانيا،

يجنّب ادّعاء أوزياندر بأن لا فائدة من الشريعة الاخلاقية. ثالثا: يعكس عمل المسيح، الذي يخلّص ويغيّر المؤمنين، ويدخلهم في اتحاد سري روحي معه.

هل كان كلفن متصوّفا

يحاول بعض اللاهوتيين في العصر الحديث أن يستغلّوا موضوع تحدّث كلفن عن الاتحاد السرّي بالمسيح، ليشّيعوا أن كلفن كان متصوّفًا لمجرّد تحدّثه عن الموضوع، مع أنه اصطدم مع أندرياس أوزياندر لأن أفكاره ولاهوته تضمّن أفكارا صوفية. صدر في لوزان عام 2001 كتاب لاستاذ في كلية اللاهوت في لوزان، كارل كيلر بعنوان، "كلفن الصوفي: الصوفيةّ في قلب تفكير المصلح"

Calvin Mystique. Au Coeur de la pensée du Reformateur. Petite Bibliothéque du Spiritualité

الذي يتحدث عن بعض الارتباطات بين لاهوت كلفن وبعض مظاهر التصوّف. الاّ أنه يرى لاهوتيون محافظون على خط الاصلاح الانجيلي أنه من المبالغة جدًا اصدار كتاب بهذا العنوان الصادم عن كلفن الصوفي، وتعريفه كصوفي أو كمؤلف كتابات صوفية، لأن هكذا عنوان يخرج كلفن خاصة وباقي المصلحين عامة خارج خط فكر الاصلاح الانجيلي. لم يكن مفهوم كلفن عن الاتحاد السري بالمسيح من خلال الإيمان، تصوّفا كما يحاول البعض تسميته، لكنه مفهوم مصاغ في قالب اللاهوت الكتابي. خلافا لأوزيندر، لم يعتقد كلفن ان هذا الاتحاد السري، يتحقّق بفيض من جوهر المسيح، وانما بالنعمة وقوة الروح القدس. ولم يجد كلفن في هذا الاتحاد تقليدا لمثال المسيح الاخلاقي، وانما نظر اليه بمعنى روحي أصيل.

يجزم الأغلبية الساحقة من المؤرّخين والمتخصّصين في كتابات كلفن، أن مفهوم كلفن عن الاتحاد السرّي بالمسيح، له معطياته ومضامينه، التي لا تنطبق مع معتقدات الفكر الصوفي. من أهم أفكار الصوفية، أن الإنسان المتصوّف، يهيم في محبّته وعشقه لله، فيتّحد به ويصل الى مرحلة الذوبان في الذات الإلهية. قال أحد الدارسين لكتابات ولاهوت كلفن، المؤرخ دونالد بانتون، " بالنسبة لكلفن، الله هو متسام جدا، وكلّي القداسة، بينما الانسان هو خاطىء جدا وغير مستحق. لهذا، لا يمكننا أن نفكّر على الإطلاق، بأن كلفن آمن بأن هذا الاتحاد بين المؤمن والله، يؤدي الى ذوبان الانسان في الذات الالهية، كما في التفكير الصوفي". اعتقد اللاهوتي المصلح ابراهام كايبار، أن كلفن كان حذرًا في استخدام كلماته عندما تكلم عن اتحاد المؤمن ووحدته مع المسيح. فهذا الاتحاد له طبيعة خاصة مميّزة لا يمكن مقارنتها مع أي اتحاد آخر. وصف هذا الاتحاد على أنه، " اتحاد غير مرئي وغير ملموس. ولا نستطيع الادّعاء أننا نفهمه، بل هو يضلّل كل من يحاول سبر غور هذا الاتحاد". أعطى كايبار تشبيها ليصف الاتحاد الذي تكلّم عنه كلفن، فقال: "كما أن الجنين الذي في رحم الأم يعيش على دقات قلب أمه التي هي خارجه عنه، هكذا نحن "في المسيح"، نعيش على دقات قلب ليست من داخلنا وانما خارجًا عنا، عاليًا في السماء". تابع قائلا، "إن اتّحادنا مع المسيح يغيّر عالمنا، من العزلة والانفصال الى عالم يصبح فيه الله عالمنا". أما المؤرّخ فرانسوا فاندال، أحد كتّاب سيرة جان كلفن، فانه في كتابه "كلفن: البدايات، وتطوّر فكره اللاهوتي"، فانه قال، "كان كلفن يخاف أي شيء، يمكن أن يقود الى تأليه الإنسان، حتى من خلال يسوع المسيح، بحيث يصير الانسان المخلوق إلهًا صغيرًا. فكلفن اعتقد، أنه حتى بعد الايمان بالمسيح، يبقى في الانسان المؤمن البعض من بقايا الخطية، طالما انه على الأرض. مع أن المؤمن ينمو في القداسة، لكنه لن يصل الى مرحلة مكتملة الاّ في السماء". يعتقد الدارسون، لطبيعة الاختبارات الصوفية، التي يحدث في بعضها نوع من الاسكات للذهن، وانعدام الفروقات بين الله والانسان، أنه لا يمكن اخضاع تلك الاختبارات للفحص والتدقيق الدقيق. لكن كلفن إعتقد، أنه خلال هذا الاتحاد السرّي، يمنح المسيح المؤمنين والمؤمنات، فهمًا فكريا وروحيّا أعمق للمسيح وللإيمان

المسيحي. ويمنح جماعة الايمان، بصيرة جديدة وتوجّهًا هادفًا في الحياة. شدّد كلفن كثيرا، على أن مهمة اللاهوتي المسيحي، هي تقوية الإدارك والوعي الذهني، من خلال التعلّم وتعليم فقط ما هو حقيقي، وأكيد، ومفيد.

هل هناك صوفية في البروتستانتية؟

يحاول بعض لاهوتيي اليوم تشييع ما يسمّى "الصوفية البروتستانتية". منذ نصف قرن، برز توجّه جديد عند بعض اللاهوتيين الانجيليين المعاصرين نحو اعادة مراجعة واعادة تقييم الموقف الانجيلي من الصوفيّة المسيحية، وبالتحديد من لاهوت "التألّه" الذي يرتبط عادة بلاهوت الكنيسة الشرقية خاصة، لاتخاذ موقف ايجابي من هذا اللاهوت. يعود ذلك من جهة، لتنمية العلاقات المسكونية مع الكنيسة الأرثوذكسية في الشرق، التي تؤمن بلاهوت التأليه. ومن جهة أخرى، لاكتشاف بعض اللاهوتيين المعاصرين أن المصلحين الأساسيين تحدّثوا في بعض كتاباتهم عن التأليه. يعتقد أولئك اللاهوتيون، انه كان للوثر اهتمام حيويّ في هذا الموضوع، عندما فسّر قول الرسول بطرس، بأن الخاطىء المبرّر يشارك في الطبيعة الالهية، كما ورد في رسالته، " قدرته الالهية قد وهبت لنا كل ما هو للحياة والتقوى، بمعرفة الذي دعانا بالمجد والفضيلة، اللذين بهما قد وهب لنا المواعيد العظمى والثمينة، لكي تصيروا بها شركاء الطبيعة الالهية، هاربين من الفساد الذي في العالم" (2بطرس1: 3-4). يعتقد اللاهوتيون الداعمون لهذا التوجّه الحديث، انه كان هناك عناصر صوفية في تعاليم المصلحين لا سيما مارتن لوثر وعدد من المصلحين اللوثريين غير الأساسيين.

مما لا شكّ فيه أن هناك مصلحين أحبّوا وتأثروا بكتابات قديسين في الكنيسة كانت لديهم نزعة صوفية تأملية، ومنهم: مارتن لوثر وجان كلفن، اللذان تأثرا كثيرًا بكتابات القديس برنارد دي كليرفو، الذي عرف بكتاباته العميقة المميّزة وحياة الصلاة والقداسة. الأ أن الذي فعله أولئك المصلحون، أنهم أعادوا صياغة أفكارهم في قالب انجيلي ينسجم مع لاهوت الاصلاح. رفض لوثر، صوفية القديس ديونوسيوس، وأدان بعض عناصرها. ذكر في كتابه "الأسر البابلي للكنيسة"، "أن بعض اللاهوتيين الجهّال جعلوا من لاهوت القديس ديونيوسيوس شأنا كبيرًا. انه لاهوت خطر، لأنه تعليم أفلاطوني أكثر من كونه تعليم مسيحي. فلو كان الامر لي، فإني لم اكن لأسمح لأي نفس مؤمنة أن تعطي أقل انتباه لهذا التعليم". كتب المؤرخ الانجيلي المتخصص في دراسات الاصلاح الانجيلي هايكو أوبرمان، ان العلاقة بين لوثر والصوفية هي علاقة قبول ورفض. أما المصلح جان كلفن، فقد دخل في صدام مع أندرياس أوزيندر لأنه انحرف عن مسار الاصلاح والمصلحين، في موضوع التبرير والتألّه. من المؤكّد أنه كان هناك بعض التشابه بين تعاليم الاصلاح والصوفية. إلاّ أن تصنيف المصلحين من ضمن الصوفيين، يشهد انقسامًا ضمن العلماء واللاهوتيين الانجيليين، لأن هذا التصنيف لا يأخذ بعين الاعتبار السياق التاريخي واللاهوتي والاجتماعي لحركة الاصلاح الانجيلي.

في مقالته "التألّه في اللاهوت المعاصر"، للكاتب روجر أولسون، التي كتبها عام 2007. أشار الكاتب الى توجّه جديد لدى المدرسة الفنلندية لأبحاث لوثر، نحو لاهوت التأله. ذكر الكاتب، "أن العالم اللوثري الفنلندي، ثيودور مانيرما، أقام بحثا عن استخدام لوثر للغة التألّه، فوجد أن تعابير التأله لم تكن ثانوية في كتاباته. اعتقد مانيرما، أن التبرير ليس فقط اعلانا وتصريحا قضائيا بأن الخاطىء أصبح مبرّرًا، وإنما هو أيضًا، تواصل حقيقي بين المسيح والمؤمن، اذ يصبح المؤمن مشاركًا في سمات جوهر الله. هذا التصريح يشكّل صدمة للوثريين التقليديين. يقول اللاهوتي مانيرما، " أطلق لوثر على أحد مظاهر التبرير تسمية تأليه، دون أن ينكر البرّ المنسوب الى المسيح الذي يناله المؤمن". اعتقد مانيمار، أن لوثر ضمّن

مفهوم التأليه، كلحظة في التبرير ولم ينكره في التقديس. وفي كتاب آخر بعنوان "واحد مع الله: الخلاص، كتألّه وتبرير"، الذي كتبه اللاهوتي الفنلندي اللوثري، فيليب ماتي كاركانين، فانه أيضا ذكر بأن عقيدة لوثر تضمّنت التأليه، قال كاركانين: "إن مفهوم لوثر للخلاص، لا يتضمّن فقط التبرير، وانما ايضًا التألّه". اعتقد كاراكانين أن التبرير في مفهوم لوثر، هو المشاركة مع الله من خلال سكن المسيح في قلب الانسان المؤمن بالروح القدس. صرّح قائلاً، "يحقّق الله نفسه وطبيعته في تأليه المؤمن". ان موقف كاركانين، يعاكس القراءة التقليدية للمفهوم اللوثري للتبرير بالايمان، لتصبح عقيدة لوثر تتضمن عاملين: الأول، اعلان الله القضائي للإنسان أنه صار بارًا، والثاني، جعل الانسان بارا. وبالتالي: هناك فعل اعلان أن الخاطىء أصبح بارا، وعملية جعل الانسان بارًا. هذا التفسير، يذكر اللاهوتي المصلح، ميكايال هورتون، يضع كاركانين في نفس خط اللاهوت الكاثوليكي. صرّح هورتون، في ردّه على المدرسة الفنلندية قائلا: "لو كان لوثر اعتقد أن التبرير بالايمان، يتضمن العنصرين: الاعلان القضائي للتبرير، وجعل الانسان مبرّرًا، لماذا قد يحرم ويفصل عن الكنيسة الكاثوليكية؟ لأنه بهكذا مفهوم لا يخالف تعليم الكنيسة الكاثوليكية". اعتقد هورتون أن مفهوم كاركانين، يعتّم على العلاقة بين الخالق والمخلوق. صرّح قائلا، "ان مفهوم كاركانين هو شبيه لمفهوم أندرياس أوزياندر الذي رفضه كلفن والمصلحون". شدّد المصلحون على ضرورة حفاظ المختارين على شخصيتهم الفريدة، خلال اتحادهم مع المسيح، بحيث لا تذوب شخصيتهم. وبنفس الوقت أكّدوا، أن هذا الاتحاد يساعدهم على تحقيق شخصيتهم.

يذكر الكاتب غانون مورفي، في مقالته "التألّه بناء للاّهوت المصلح"، "أن المصلحين عرفوا، عن التكلم عن المبدأ الروحي "يسوع فينا"، الذي يتكلم بغنى عن الاتحاد السرّي بالمسيح، حيث أن المؤمنين ينقلون بالايمان الى الشركة الروحية مع المسيح. وضع كلفن مبدأ "يسوع فينا" الغامض، في اطار تنظيمي لوصف العلاقة بين المؤمن والمسيح، على أنها علاقة اتحاد سرّي، لكنه شدّد على ضرورة تمييز عمل المسيح في هذا الاتحاد السري، وعلى حيوية هذا الاتحاد الذي يجعل المؤمنين والمؤمنات، متّحدين في عائلة الله. اعتقد اللاهوتي المصلح، دونالد بلوش، أن لاهوت التألّه يقلّل من شأن انجيل التبرير بالنعمة وحدها بواسطة الايمان وحده. شدّد المصلحون على أن المشاركة الحقيقية في المسيح، هي ليست مجرد تقليد نموذج حياة المسيح الاخلاقية. صرّح بلوش قائلا: "اللاهوت التقليدي البروتستانتي حول الاتحاد السري مع المسيح، يقوم بكل ما يمكن أن يقوم به لاهوت التأليه، بدون الوقوع في سقطات ذلك اللاهوت". أما اللاهوتي الانجيلي المعاصر كارل بارت، فقد رفض فكرة التألّه كتغيير وجودي حقيقي، وشدّد على العلاقة الشخصية الفريدة بين الانسان المؤمن والمسيح، والتي تتلّخص في علاقة: "أنا-أنت". ينظر الانجيليون الأمينون للتراث الانجيلي المصلح، الى الصوفية على أنها: فردية، استنباطية، تهتم بنشوة المؤمن الروحية مع اهتمام قليل أو حتى عدم الاهتمام بحاجات الناس في محيطهم وعالمهم. ينظرون اليها على أنها احدى مظاهر الاعتماد على الجهود الانسانية للبحث عن الله، على رجاء الاتحاد معه الى حد الاندماج وحدوث نوع من الذوبان بين الله والانسان. رأوا هذه الميول والأفكار تتعارض بشكل مباشر مع مبادىء الاصلاح الانجيلي الأساسية، التي هي : الكتاب المقدس وحده، النعمة وحدها، والايمان وحده.

الفصل السابع

المصلحون ما بين علم الفلك والتنجيم

نظرة تاريخية الى التنبؤات الفلكية

يرجع الاعتماد على الفلك للتنبوء، الى الحضارات القديمة. يخبرنا العهد القديم أنه عندما سبى الملك البابلي نبوخذنصر اليهود من أورشليم، ونقل جزءا منهم الى بابل، فان بعضا منهم تأثّر بالممارسات البابلية الفلكية، ووقع في خطية عبادة النجوم. وعند رجوعهم الى بلادهم ، جلبوا معهم تلك الممارسات الوثنية. رأى الأنبياء، في جلب تلك الممارسات الغريبة عن الايمان اليهودي، إشارة كبيرة الى تقهقر إسرائيل. أدانوا كل أنواع السحر والشعوذة والتنجيم، ونظروا اليها على أنها عبادة أوثان. حذّرت شريعة التثنية الناس من تبنّي تلك الممارسات بالقول: "لئلا ترتفع عيناك إلى السماء، وتنظر الشمس والقمر والنجوم، كل جند السماء التي قسمها الرب إلهك، لجميع الشعوب التي تحت كل السماء لجميع الشعوب، وتسجد لها وتعبدها" (تثنية4: 19). أخذ الفلاسفة الرواقيون، علم الفلك على محمل الجدّ . اطلقوا على الكواكب والنجوم أسماء محدّدة، لقناعتهم بأنها تحكم الأوقات، ومصائر الناس وأوقات موتهم. اعتبر مسيحيو روما الأوائل، الفلكيين أعداءهم الشرسين. اعتقدوا أن تنبؤاتهم لعبت دورا سلبيا، في تحريض السلطات

الرومانية عليهم واضطهادهم. مع أن بعض المسيحيين، تصالحوا مع التنبؤات الفلكية، في بدايات الكنيسة، لأنهم اعتقدوا أن الله، هو خالق الكواكب والنجوم كآيات للأوقات، "وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين" (تكوين1: 14). ورأوا في النجم الذي ظهر على المجوس لقيادتهم إلى المسيح، تشجيعًا لهم. الاّ أن التوجّه العام في الكنيسة كان مناوئا للفلكيين وللتنبؤات الفلكية. اتّخذ آباء الكنيسة الأوائل موقفا صارما في رفض تنبؤاتهم الفلكية، لا سيما منها القدرية والخرافية. إعتبروا أنها تقوّض الأسس الأخلاقية للسلوك المسيحي. وجدوا في تلك التنبؤات تهديدًا للإيمان المسيحي، وتحدّيا كبيرا لسلطة الله المتجسدة في الكنيسة على الأرض. عرف الكلدانيون باطلاقهم لتنبؤات فلكية، فنودي بطردهم من بين الجماعة المسيحية. وعندما أعلن الملك قسطنطين المسيحية، دين الإمبراطورية الرومانية ، دخل الكنيسة أعداد من المسيحيين من خلفيات وثنية، وأدخلوا معهم ممارسات وعادات غريبة عنها، ومنها تنبؤات فلكية قدرية. وفي العام 321، أصدر الامبراطور قسطنطين مرسومًا، هدّد فيه كل الكلدانيين والمجوس وأتباعهم بالموت، إذا ما مارسوا خرافاتهم الفلكية.

في القرن الرابع، وضع آباء الكنيسة، الفلكيين في نفس مصاف : المشعوذين والمنجّمين، والسحرة. ورفضوا تعميدهم. حذّر آباء الكنيسة ، من أن اهتمام أي مسيحي، في التنبؤات الفلكية، قد يعرضه للاخراج من الكنيسة. منع الكهنة من التعاطي في هذا المجال. أدانت العديد من المجامع الكنسية التنبؤات الفلكية. من تلك المجامع: مجمع لاودوكية 365، مجمع توليدو 400، مجمع براغا 561، مجمع توليدو 633. أطلقت اللعنات على الذين اعتقدوا أن النجوم والكواكب، تؤثر على أجسام ونفوس الناس. تساءل القديس أوريجانوس في القرن الثالث: "كيف تحفظ حرّيتنا، اذا ما كانت الكواكب تقرّر مصائرنا؟ كان القديس اوغسطينوس يطلب استشارة الفلكيين عندما كان شابا، لكن بعد تحوله الى الايمان المسيحي صار من ألدّ المحاربين لتنبؤاتهم ، لأنه وجد أنها تعارض عقيدة سيادة الله. لهذا اعتبرها إيحاءات شيطانية. آمن آباء الكنيسة أن موت المسيح وقيامته، حرّر الكنيسة من التنبؤات الفلكية القدرية. وجدوا أن الكتاب المقدس، يتضمّن تحذيرات كثيرة من التنبؤات القدرية، والوقوع تحت سلطتها. تساءل آباء الكنيسة، كيف يمكن الجزم أن سمات الإنسان الفيزيولوجية والذهنية، تعتمد على تقرير الكواكب والنجوم أثناء الحبل أو الولادة؟ كيف يمكن أن يكون شخصان ولدا في يوم واحد، ومن أم واحدة، أن يكونا مختلفين، في سماتهما ومزاجهما؟ أنزل الأسقف يوسيبيوس أسقف إيرسنا عن كرسيه، من قبل رعيته التي طردته بسبب اهتمامه بالعلوم الفلكية، لا سيما القدرية منها.

نظرة لوثر الى الاهتمامات الفكية

انزعج المصلح مارتن لوثر كثيرًا من اهتمامات شريكه فيليب ميلنكتون الفلكية. لاحظ بعض التغيّر في مزاجه، رآه بعض الأوقات يرفض السفر خلال ظهور القمر. رأى أن التنبؤات الفلكية، سبّبت الكآبة له، فقلق عليه. قال: "لم أصدّق أن ميلنكتون، يأخذ التنبؤات الفلكية بهذه الجديّة. أما بالنسبة لي: "أنا لا أخاف من النجوم والكواكب. لا أهتّم للأحلام والرؤى. لديّ شيء أكثر يقينية من تنبؤاتها، إنها كلمة الله". أضاف: "نحن لا نخضع لظواهر فلكية، لأننا ملك للمسيح وحده". وجد لوثر أن الخرافات الفلكية، تدبّ الخوف والذعر في نفوس الناس. حاول بعض الفلكيين، رصد الخارطة الفلكية لزمن ولادة مارتن لوثر. كانت النتيجة أن البعض شجّعه واعتبره "النبي الصغير". والبعض الآخر أدانه وهاجمه. وقد استاء كثيرا، من تصرفاتهم تلك. قبل مارتن لوثر بالفلك كعلم، لكنّه رفض الخرافات المرتبطة به. رآها تخالف

الوصية الأولى من الوصايا العشر، التي تدعو للإيمان بالله وحده، "أنا هو الرب الهك، لا يكن لك آلهة أخرى أمامي". قال لوثر: "خرافات الفلك هي عبادة أوثان، وتشكّل تهديدًا للإيمان بالله وحده، المعلن في الكتاب المقدس". لم ير الوثنية في الإهتمام بعلم الفلك، وانما في الاستسلام للخوف والهلع . قال: "ليس علم الفلك، خطية بحدّ ذاته، لكن استخدامه لتيئيسنا هو الخطية". اقتبس قول النبي إرميا: "وهكذا قال الرب، لا تتعلّموا طريق الأمم. ومن آيات السموات لا ترتعبوا" (إرميا10: 2). لهذا دعا الناس الى الثقة بالله وحده، قائلا: " فلنخف الله وحده، ولا حاجة لنا أن نخاف من ظلمة المستقبل".

بنى لوثر اعتراضاته على التنبؤات الفلكية، على أسس عدم اتباعها الطريقة السليمة والمنطق الصحيح، الذي يتبعه الفلاسفة اليونانيون الحكماء في الاستنتاج. قال، "ليس لهذه التنبؤات، أية قواعد وقوانين وبراهين مثبتة. انها عرضة للكثير من الأخطاء". وجد أنها تطلق تصريحات عامة، لا تنطبق على أفراد. أعطى مثلا عن أولاد إسحق: يعقوب وعيسو، الذين وُلدوا في نفس الوقت ومن نفس الرحم. الأ أنه، كان لكل منهما، مزاج وشخصية مختلفة جدا. وبالتالي، كيف ستثبت التنبؤات الفلكية التي تقدّم قاعدة عامة على أخوين مختلفين في المزاج والشخصية. قدّم لوثر بعض الأسباب اللاهوتية لرفضه التنبوءات الفلكية، والتي هي: الأول، تحدّد من المفهوم المسيحي بأن الله هو كلّي القدرة. الثاني، تقزّم من قيمة وشأن الانسان، لأنها تعتمد على مخلوقات الكواكب والنجوم قد خلقها الله لتحدّد مصيره. قال لوثر: "ليس من العدالة للإنسان المخلوق على صورة الله، أن تقوم احدى خلائقه، الكواكب والنجوم بتحديد مصيره. فما هي الاّ مخلوقات. فنحن لسنا خاضعين لظواهر سماوية. فالكواكب والنجوم هي لنا. ونحن للمسيح. والمسيح من الله". الثالث، يقلّل الفلكيون من أهمية وجدّية الخطية الأصلية على الانسان. قال لوثر: "ميولنا نحو الخطية، لا تنحدر من الكواكب والقدر، وإنما من الخطية الأصلية". الرابع، يقلّل الفلكيون من أهمية قوة عمل الله. قال: "ليس من العدالة، أن يعتقد أحد، أن الإصلاح الإنجيلي هو نتيجة تنبؤات فلكية. فالاصلاح هو عمل الله". الخامس، تحرم التنبوءات الفلكية الناس، من شعورهم بمسؤوليتهم كبشر، لتضع مسؤولية ما يحدث معهم على الكواكب والنجوم. قال لوثر: "لا نحمّل نتيجة شرورنا للكواكب والنجوم. فالميول الشريرة، نجدها في داخلنا، وليس خارجنا في الكواكب والنجوم". السادس، حيث أن بعض التنبؤات الفلكية، تتحدث عن سوء طالع الناس، فهي تتضمّن خطورة على الناحية الرعوية في الخدمة. صرّح قائلا، " سوف أقبل الصعوبات والآلام بصبر، إذا ما أتت من الله فقط، وليس من الكواكب والنجوم".

تمييز كلفن بين علم الفلك الطبيعي والقضائي

إعتقد المصلح جان كلفن، أن كل ما يبدو حظًا في نظر الناس، هو جزء من العناية الإلهية. لم يؤمن بوجود الحظ في الايمان المسيحي. آمن أن الله يعمل من خلال الإنتظام الطبيعي للكون، لأنه خلقه في نظام دقيق. ميّز بين ثلاثة أنواع من العناية الإلهية: الأول، "عناية الله العامة" المتجسدة في انتظام الكون. اذ أن الله يحكمه بناء لحكمته الإلهية. الثاني، "عناية الله الخاصة"، التي تتجسّد في اهتمام الله بكامل المجتمع البشري إذ يرسل خيراته على الجميع، يرسل الشمس والمطر على الأشرار والأبرار. يقول بمزاح: " نرى في بعض الأوقات، ان صحة الأشرار أفضل من صحة الأبرار". الثالث، "عناية الله المميّزة بمختاريه"، إذ يسود عليهم بالروح القدس. قال كلفن: "بما أن الله يسكن في كنيسته، فإنه يظهر بالبراهين رعايته الأبدية لأولاده، من خلال رعاية خدّامه للمختارين. ميّز كلفن، بين ما أسماه: "علم الفلك الطبيعي"، و"علم الفلك القضائي". عرّف، "علم الفلك الطبيعي"، على أنه التأمّل بما خلقه الله في الفلك. قال، "انه

معرفة: إنتظام وإنسجام وتناسق، الكواكب والنجوم والأجرام السماوية التي خلقها الله بحكمته الفائقة المعرفة، والتي تشهد لمجده"، كما يقول المرنم " السموات تحدّث بمجد الله، والفلك يخبر بعمل يديه" (مزمور19: 1). اعتقد إن علم الفلك الطبيعي، يرصد مواقع الكواكب، وطريقة حركتها: إن كانت دائرية أم بيضاوية. قال، "هو العلم الذي يتابع مسار النجوم، ومدة سيرها، والفترة الزمنية التي تستغرقها لتكمّل دورتها. فالنظام الفلكي يؤثّر على تتابع الفصول: الشتاء والصيف والربيع والخريف. وحركة الكواكب هي المسؤولة عن المد والجزر". وجد كلفن في علم الفلك أهمية كبيرة. قال: "يمكن أن نسمّي علم الفلك الطبيعي، أبجديّة اللاهوت، لأنه لا أحد يتأمّل بطريقة عمل هذه الأجرام السماوية، دون أن يندهش بحكمة الله وقدرته اللامتناهية. فما ندعوه علم الفلك، ليس هو إلاّ إصبع الله في خليقته". اعتقد كلفن، أن التأمّل في النظام الفلكي، هو أساسي وجوهري لدراسة علم اللاهوت، لأنه يمدّنا بمعرفة أعمق عن الله، ويكشف لنا عن حكمته الالهية المذهلة". قال "لا يمكنك أن تكون لاهوتيًا، إن لم تدرس علم الفلك الطبيعي".

علّق كلفن، على قصة ظهور النجم للمجوس وقيادته لهم الى بيت لحم، بقوله: "لقد أعدّ الله كل ما هو ضروري للتأكيد على جلاله الإلهي. قاد المجوس من المشرق الى اليهودية لعبادة يسوع. وقد رأينا في هذا الحدث إنسجامًا وتناسقًا كبيرًا في عمل الله، الذي استخدم نجما ليعلن لهم خبر ولادة يسوع الملك المخلّص". وصف النجمة قائلا، "إنه نجم تميّز عن باقي النجوم. لم تكن نجمة عادية، بل ربما شابهت المذنّب (نجمة ذو ذنب)... طبعًا إن قيادة النجمة بمفردها، لن توصل المجوس الى يسوع الملك. لذا، حصل المجوس على مساعدة إلهية من روح الله، لقيادتهم إلى الطفل السماوي، ولقائهم بالملك الآتي... أراد المجوس أن يحيّوه ويستقبلوه بناء للعادة الفارسية، فأتوا بهداياهم إليه". خاطب كلفن رعيته، قائلا: "إذا ما أظهر الله عظمته للمجوس بهذه العلامة السماوية، التي أثّرت كثيرًا على المجوس، فسجدوا له. كيف بالأحرى يجب أن يكون موقفنا، نحن الذين رأينا يسوع الملك، ولا نزال فاترين وغير متأثّرين بقوة عمله في حياتنا؟". الاّ أنه بمقابل تقديره الكبير لعلم الفلك الطبيعي، ولعلماء الفلك الذي يتعاطون مع هذا العلم المميّز، انتقد وهاجم كلفن بشدّة ما أسماه، "علم الفلك القضائي". إستخدم تعبير "القضائي"، للاشارة، الى القضاء والأحكام التي يصدرها علماء الفلك القضائيين على مصائر الناس بتنبؤاتهم عن مستقبلهم. قال: "صحيح ما يقوله علماء الفلك القضائيون، أن الأجرام السماوية تؤثّر على ما يحدث في الأرض، إلاّ أنهم يخطئون ويزوّرون الحقيقة عندما يقولون، أنها تؤثّر على صحة الناس ومستقبلهم. أسمى كلفن "علم الفلك القضائي" علما زائفًا لأنه لا يستند الى مقاييس علمية، وانما يعتمد مجرّد تخيّلات افراد. اعتبر أن إدّعاءات علماء الفلك القضائيين، إدّعاءات شيطانية. قال، "ادّعاءاتهم هي، خروج عن الانتظام الطبيعي والأخلاقي، الذي وضعه الله للكون. فالله هو سيّد الكون، وسيادته مطلقة عليه، ولا يخضع لإملاءات البشر والمنجّمين. فقد عيّن الله مسبقًا، في حكمته الأزلية، كل شيء وقراره الأزلي الأبدي لا يتغيّر". قدّم كلفن أمثلة، لدحض اعتقادات علماء الفلك القضائي، فقال: "إذا ما سقط ستة آلاف في معركة واحدة. فهل هذا يعني أنهم مولودون تحت نفس الكوكب أو النجمة؟". وأضاف: "صحيح أن الشمس تؤثّر على الأرض، وتمنحها الحرارة، لكن شرور الناس، تأتي من قلوبهم الشريرة". إعتبر، علماء الفلك القضائين: جاهلين، كاذبين، مخادعين، وعرّافين. إقتبس قول النبي إشعياء، لإدانتهم: "هكذا يقول الرب فاديك وحاملك من البطن، أنا الرب صانع كل شيء. ناشر السموات وحده، وباسط الأرض. من معي، مبطل آيات المخادعين وتحمّق العرّافين. مرجع الحكماء الى الوراء، ومجهّل معرفتهم" (اشعياء44: 24-25).

اعتقد كلفن: أن "علم الفلك القضائي"، نشر الكثير من الخرافات التي أتت من بابل، الى الإمبراطورية الرومانية الوثنية، ومنها الى الكنيسة المسيحية. وقد أدمن عليه الكثيرون من الكنيسة. أدان،

محاولة معرفة الإنسان المؤمن ما يخبئه عنه المستقبل. قال، "أن نحاول معرفة مستقبلنا ومصيرنا، خارج إرادة الله المعلنة في الكتاب المقدس، هو أمر غير مسيحي". دعا كلفن، جماعة الايمان، الى عدم الخشية والخوف، من تنبّوءات "علماء الفلك القضائيين". قال: "تنبؤاتهم الزائفة، لا فائدة منها ولا تؤثّر في حياة الناس انها مجرّد ثرثرة". اعتبر كلفن كلام النبي ارميا موجّها اليهم: "هكذا قال الرب، لا تتعلّموا طريق الأمم ومن آيات السموات لا ترتعبوا، لأن الأمم ترتعب منها" (إرميا10: 2). قال كلفن، "أدان الكتاب المقدس تنبؤات المنجّمين، وزوّدنا بالعلاج لمقاومة تنبؤاتهم. فالعلاج هو بتكريس نفوسنا وأجسادنا الى الله، وتأسيس أنفسنا والآخرين على مخافة الله. وهذا ما يجب أن يكون اهتمام كل إنسان". استخدم، إختبار الرسول بولس، المدوّن في رسالته للكورنثيين، كمرجع كتابي لعدم جواز معرفة الانسان المسيحي لمستقبله: يذكر بولس، "أعرف انسانا في المسيح، قبل أربع عشرة سنة. أفي الجسد لست أعلم، أم خارج الجسد لست أعلم. الله يعلم. إختطف هذا الى السماء الثالثة. وأعرف هذا الانسان، أفي الجسد أم خارج الجسد، لست أعلم. الله يعلم. أنه إختطف الى الفردوس. وسمع كلمات لا ينطق بها، ولا يسوغ لإنسان أن يتكلّم بها" (2كورنثوس12: 2-4). علّق كلفن على اختبار الرسول بولس قائلا: لم يكن مسموحا للرسول بولس، أن ينطق بالكلمات التي سمعها في اختباره السماوي، ولم يكن مسوغا لأي انسان أن يتكلم بها. لهذا لا نعرف حقيقة ما حدث معه. ولم يخبرنا بولس بمضمونه. لهذا ، ما يقوم به، علماء الفلك القضائيون المزّيفون، بنشر اخبار أمور غيبية، عن مستقبل ومصائر الناس، انما هم ينشرون أضاليل، يرفضها الكتاب المقدس.

انتقاد بيركينس الاعتماد على الأبراج

من الأمور التي إعتبرها غير مشروعة، اللاهوتي الكلفيني وليم بيركينس الذي برز في نهاية القرن السادس عشر، لجوء الناس إلى من سمّيوا، "أطباء الفلك" الذين ادّعوا التنبوء بمستقبل صحة الناس ومصيرهم، إستنادًا لقراءتهم لحركة الفلك والأبراج. انتشر في ذلك الزمن مجموعة، دعيوا: "أطباء الفلك"، وهي فئة متعلّمة قدّموا النصائح والعلاجات لكل الأعمار والأمراض. ادّعى "أطباء الفلك" أن حقل عملهم، يستند الى العقل والعلم، ولا يتعاكس مع الإيمان. افترض، "أطباء الفلك"، أن لكل من القمر والشمس والكواكب والنجوم سمات خاصة وتمارس تأثيرًا ملموسًا على صحة الإنسان. انتشر في ذلك الوقت، كتاب للفلكي، يوهانس غانيفت، بعنوان، "صديق الأطباء"، الذي صدر عام 1496 وترجم الى العديد من اللغات. تحدث فيه غانيفت، عن: الأجرام الساوية، وتأثير الشمس والقمر وحركة الكواكب والنجوم على الناس. كما يعالج الكتاب، مواضيع الأوبئة والأمراض، وأسبابها وطرق معالجتها، ونتائجها في حياة الإنسان، وحول ما إذا كان الإنسان يُشفى أو لا يُشفى من مرض ما. إعتقد غايفت، أن الأبراج الأثني عشر، لها تأثير على أعضاء جسم الإنسان. مثلاً: برج الحمل، له تأثير على الرأس والوجه. برج الثور، له تأثير على الرقبة والقصبة الهوائية، وغيرها من الأمور. ادّعى غانيفت، أن كوكب المشتري له علاقة بالأوبئة، وكوكب المريخ له علاقة بارتفاع حرارة الإنسان الشديدة، وكوكب عطارد له علاقة بالجنون. عندما قرأ اللاهوتي وليم بيركينس الكتاب، انتقد بشدّة، الأسس التي بنى عليها نظرياته، لا سيما الادعاء، بوجود علاقة بين الأبراج، وأعضاء جسم الإنسان. علّق قائلا: "التكلّم عن الأبراج، ينتمي إلى حقل التخيّلات وليس إلى حقل العلم، لأنه لا يوجد مثل هكذا شيء في السماء". سأل كيف يمكن أن نقبل هذه التخيّلات في عالم العقل والمنطق؟ هي تخيّلات مختلقة لا تمتّ إلى الحقيقة بصلة. قال، "، قد يكون لحركة ومواقع بعض النجوم في السماء تأثير على الأرض في الزراعة والحصاد وتغيّر الفصول، لكنها لا تحدّد مواضيع الصحة والمرض في حياة الناس، لا بشكل عام، ولا بشكل خاص. إعتبر بيركينس أن هذه الإفتراضات، إنما هي

ضروب من الخداع. علّق باستخفاف على بعض الأقوال التي قالها، "أطباء الفلك"، قائلا، "تنبّأ أحدهم أنه من الأمراض التي ستؤثّر على الناس، السعال والرشح والتورّم في القصبة الهوائية وغيرها." ثم سأل: "ما هو الجديد في هذه التنبوءات؟ فهذه الأمراض يُصاب بها الناس في هذا الفصل من كل سنة، بغضّ النظر عن حركة الكواكب والنجوم".

إنذهل بيركينس، بحقيقة أن الناس كانوا يذهبون إلى أطباء الأبراج للشفاء في وقت المرض، أكثر مما يلجأون إلى الأطباء العاديين، ليصفوا لهم العلاجات والأدوية الصحيحة. أسف أن الناس، لم تكن تميّز، بين الوسائل المشروعة وغير المشروعة. قال: "أن تصف دواء لمريض، على أساس حركة الكواكب والنجوم، هو أمر مرفوض. من الأفضل للمريض أن يستشير طبيبًا حقيقيًا، يعرف كيف برز المرض وعوارضه وطريقة مساره. ويأخذ أدوية العلاج التي يقترحها". رأى بيركينس أن نظرية الأبراج، التي تتنبأ بصحة الناس ومستقبلهم، هي غير مشروعة، بل تسبّب ضررا كبيرا للناس. وهنا تساءل: "كم من المرات حدّد اطباء الأبراج، الوقت الذي يموت فيه إنسان ما، عند استشارتهم، فجعلوه يموت، في رعب إنتظار الموت". طمأن بيركينس الناس أن دولاب الأبراج، لا يؤثّر على حياتهم فلا يخافون ولا يقلقون. قال، "هذ النوع من الممارسات، تحمل في طيّاتها تعدّيا على: ناموس الله، وسيادته، وعنايته الإلهية. اقتبس من الكتاب المقدس، مجموعة آيات، تشير الى أنه من يذهب الى غير الله، لوضع حياته ومستقبله بين يديه، يكون مكروها عند الرب. من هذه الاقتباسات قول شريعة التثنية: "لا يوجد فيك من يجيز إبنه أو ابنته في النار. ولا من يعرف عرافة. ولا عائفا ولا متفائلا ولا ساحرا ولا من رقي رقية، ولا من يسأل جانًا أو تابعة، ولا من يستشير الموتى. لأن كل من يفعل ذلك مكروه من عند الرب" (تثنية18: 10-12).

الفلكي المصلح فيليب ميلنكثون

تظهر أدبيات القرن الخامس عشر، انه كان هناك انتشار واسع بالاهتمامات الفلكية لدى المسيحيين، لا سيّما بين العلماء والكهنة داخل وخارج الكنيسة. كانت التنبؤات الفلكية، تثير الرعب والخوف والهلع في نفوس الناس، والتنبؤات الأبوكليبتية القدرية، شغل الناس الشاغل. من الأمور الرئيسية، التي تميّز بها المصلح فيليب ميلنكثون، عن باقي المصلحين الانجيليين، إهتمامه الشديد بعلم الفلك. بالرغم من معارضة المصلح مارتن لوثر، لإهتمامه هذا. درس علم الفلك، إلى جانب دراسته للاّهوت. وكان إستاذه، عالم فلك معروف، اسمه يوهانس ستوفلر. لم يرَ ميلنكثون أي تناقض بين علم الفلك والإيمان. آمن، أن الله لا يخلق شيئا دون هدف، بل هناك هدف في كل شيء خلقه، وإن كان يخفى علينا في كثير من الأحيان. توافق ميلنكثون مع باقي المصلحين الانجيليين أن الكواكب والنجوم، لا تحدّد مصائر ومستقبل الناس، التي هي بين يدي الله. اعتقد أن الكواكب والنجوم هي بوابات المستقبل، الاّ أنه في نفس الوقت اعتقد ان الإنسان ليس عاجزًا أمامها، بل قادرا من خلال التربية والتعليم، على تغيير المستقبل.

نظر ميلنكثون الى الفلك كعلم، وليس كخرافات وتنبؤات مستقبلية. اعتبره، جزءا من العلوم الطبيعية، لأنه يركّز على تأثيرات ضوء الكواكب: الشمس والقمر والنجوم، على الأرض. مثلا: شروق الشمس يدفيء ويجفّف الأرض، بينما ضوء القمر يجعلها رطبة. تؤثّر الكواكب على تغيّر الفصول، وتسبّب المدّ والجزر، وغيرها. اعتقد أنها قد تؤثر، على أمزجة الناس، وطبائعهم وميولهم، لكن لا تؤثر على صحتهم كما اعتقد "أطباء الفلك". قال: "كما أنه من المفيد لنا، ان نتبع نشرة الأرصاد الجوية في الزراعة أو الملاحة. فإنه أيضًا من المفيد لنا، أن نرصد الآيات التي وضعها الله في السماء، لأنها تجعلنا أكثر وعيا،

وتنبّها، وادراكا، لنوعية طبيعتنا وميولها، كيما تساعدنا في تغذية وتمكين الأشياء الصالحة فينا، وتحذّرنا كيما نتجنب الأمور غير الصالحة". اقتبس قول عالم الفلك بتولمي: "كما أن النفس الحكيمة، تساعد عمل السماء بحكمتها، وأفضل المزارعين يساعد عمل الأرض، من خلال حراثتها وتنظيفها من الشوائب. هكذا، يحسّن علم الفلك نوعية حياتنا". أيضا اعتبر ميلنكثون علم الفلك، فنّا. في تعريفه للفن، قال: "الفن، هو استخدام المعرفة الحقيقية، من أجل فائدة الانسان". فوضع علم الفلك في مصاف الطب والسياسة. دافع في خطابه، بعنوان "كرامة علم الفلك" الذي ألقاه عام 1535، عن معتقداته المسيحية. قال، " أطلب منكم في البداية، عدم التوقّف عند أخطاء أسياد هذا الفن. يجب أن نتّفق على تعريف علم الفلك، لتمييزه عن الخرافات". وأضاف، "يعمل الفلكيون، من خلال رصد تحركات فلكية معيّنة أولا. ثم تأتي التفسيرات الكثيرة، لما تمّ رصده. لكن، يجب علينا ألاّ نحتقر هذا العلم، إن لم ير كل شيء. فكم من المرّات نخطىء في الزراعة، وغيرها. بالنسبة لي، ليست الفائدة من علم الفلك، هي في ما يُرى، وانما في رؤية الإنسجام الرائع، بين الأجرام السماوية وانعكاساتها على الأرض. فهذا الإنتظام والإنسجام الدقيق، يذكّرني بأن الكون لم يُخلَق بالصدفة، لكن العناية الإلهية هي التي تقوده". آمن ميلنكثون أن المنظومة السماوية، تمجّد الله في حركتها، ومن يرصدها، يرصد آثار خطى الله. بالرغم من ايمانه، بأن كل شيء في الكون تحت سيادة الله، وأنه يعيش حياته بناء لخطة الله. إلاّ أنه إعتقد أيضا بأن الله لا يجرّدنا من معاني الأمور

تصادق ميلنكثون مع عالم فلك ألماني، هو يوهانس شونر، الذي تحوّل إلى الإيمان الإنجيلي بفضل شهادته الصادقة لايمانه. فكتب له مقدمة الكتاب، الذي أصدره شونر، بعنوان "أحكام ولادة المسيح". مما جاء في المقدمة: "لقد رغب الله أن يترك بعض النور في أذهان الناس، من خلال معرفة: الأرقام ، وقوانين الطبيعة، وغيرها من الأمور الطبيعية، بالرغم من الضعف الشديد الذي سبّبته الخطية في حياة الانسان". وأضاف، "أعتقد انه إذا ما تمّ التعامل مع تأثيرات الكوكب والنجوم، بمهارة وحذر، فإنها من الممكن أن تكون مفيدة للإنسان". شهد شونر عن يلنكثون، قائلا: "تناولت أبحاث ميلنكتون مواضيع عدة إعتبرها البعض أمورا غريبة. دافع عن علم الفلك، بناء لأسس مسيحية. وحيث أنه لاهوتي وعالم فلك في آنٍ معًا، فإن ما كتبه هام جدًا. فعلى الذين يعترضون على علم الفلك، من منطلق مسيحي، أن يقرأوا ما كتبه لأنهم سيستفيدون جدا". قال الكاتب، ستيفن كاروتي: "إن الأمر الأكثر تميّزًا في ميلنكثون، هو الأسس اللاهوتية التي يستند عليها، في اهتمامه بعلم الفلك، وإيمانه بخطة الله للعناية بالإنسان وخلاصه". إتّبع ميلنكثون التقنيات الفلكية، التي استخدمها عالم الفلك اليوناني بتولمي. ترجم عمله،"الكتب الأربعة"، من اليونانية الى اللاتينية عام 1553، ليستخدم في منهاج جامعة ويتنبرغ. أصيب ميلنكثون بخيبات كثيرة، من أخطاء علماء الفلك، لا سيما: التنبوءات الأكوليبتية بفيضان يغرق أوروبا، عام 1524، والدراما التي سبّبتها. ومحاولة بعض الفلكيين، قراءة خارطة مارتن لوثر الفلكية، ليوم ولادته. ساهم ميلنكثون في اصدار كتابات هامة حول علم الفلك، اعتبرت كجسر عبور من علم الفلك الكلاسيكي، الى علم الفلك الحديث.

التمييز الحديث بين علم الفلك والتنجيم

يمزج معظم الناس بين مصطلحي، أسترولوجيا وأسترونوميا، اذ يعتقدون انهما نفس الشيء، الاّ ان الحقيقة أنهما حقلان مختلفان عن بعضهما البعض اختلافًا شاسعا. ففي حين ان أسترونوميا هو علم الفلك ، فان أسترولوجيا هو التنجيم أو قراءة النجوم، الأمر الذي لا قاعدة علمية له. منذ زمن بعيد، كان الحقلان ممتزجان، لأن أصولهما كانت مشتركة. لم يكن هناك سوى مصطلح أسترولوجيا، لكن التمييز بين

المصطلحين، حدث بين القرنين السابع عشر والثامن عشر، فصارت تعتمد كلمة التنجيم، لما لا قاعدة علمية له. وعلم الفلك، للقاعدة العلمية الذي يتّبعه. ان "علم الفلك" ، هو دراسة الكون، وكل ما يوجد خارج الأرض: مواقع، وحركات الأجرام السماوية، وسماتها. ان هدف "علم الفلك"، فهم الكون وبنيته وطريقة عمله. أما قراءة النجوم، فهدفها التنبّوء بتأثير الكواكب والنجوم على: الأحداث، وحياة الناس، ومستقبلهم.

منذ أن مشى الإنسان على الأرض، حدّق في السماء، فرأى النجوم وتأمّل فيها بإعجاب، واعتقد أنها توثّر على حياتنا اليومية. إعتبرت، ممارسة قراءة النجوم لآلاف من السنين، علما مثل الجيولوجيا، اذ كان المنجّمون يتنبؤن بشخصيات الناس، وبعض ميّزاتهم دون أن يكون لديهم براهين علمية، يستندون اليها. في كتابه "علم الفلك، والنبوءة في عصر النهضة" الذي صدر عام 2011، ذكر الكاتب وليم إيمون، " إن الحدث الإعلامي الأكبر في القرن السادس عشر، حصل في الفترة: 1523-1524 عندما أثار علماء الفلك هيستيريا جماعية لدى الشعب، بالإعلان عن إنتهاء العالم بفيضان ثانٍ كبير، لأن أربعة كواكب رئيسية: المريخ، المشتري، الزهرة، وزحل، سيتزامن لقاؤها على شكل حوت. انتقلت نبؤات علماء الفلك، بسرعة هائلة من خلال الوعظ في الكنائس والإعلانات. حدثت فوضى إعلامية كبيرة، إذ أن البعض تحدّث عن توفر دلائل فلكية، بينما البعض الآخر أنكرها. خلق هذا التنبوء هلعًا كبيرًا عند الناس. وعليه، بنى رئيس برلمان تولوز، فلكًا على الجبل استعدادا للفيضان. وعندما حان الوقت، المشار اليه، لم يحدث شيء، الاّ هطول بعض الأمطار في أماكن في أوروبا، ولم تمطر في أمكنة أخرى. إن فشل التنبوء بالفيضان الذي أعلن عنه الكثيرون من علماء الفلك، ومنهم أستاذ المصلح الانجيلي فيليب ميلنكثون، يوهانس ستوفلر، أدّى إلى خسارة التنجيم أو قراءة النجوم لمصداقيته، ودمّر بشدة السلطة الكبيرة، التي امتلكها المنجّمون على الشعب. عندما حلّ عصر العقلنة، في القرن الثامن عشر، فقد أخضع كل شيء للتفكير والتحليل والعقلنة، وتوفّر الدلائل والإثباتات. فالذي صمد أمام تلك المقاييس العلمية الثابتة، إعتبر علمًا. وما لم يثبت، إنتزعت عنه صفة العلم، واعتبر مجرّد معتقدات شعبية، وخيال وخرافات. بناء لهذا المقياس، اعتبرت الأسترولوجيا علما زائفا، ورفض الفلكيون اعتبار التنجيم أو قراءة النجوم، فرعا من علم الفلك. ينظر علماء الفلك الى قراءة النجوم، على أنه مملكة الخيال والخرافات. يذكر عالم الفلك المعاصر، آلن ماكروبرت، قائلا،" مع أنه ليس هناك علاقة بين الكواكب والتنجيم، لكن لا يزال للتنجبم قاعدة شعبية بين الناس. فإذا ما أردت أن توصل رسالة ما إلى كنّتك التي تؤمن بالتنجيم، فالطريقة لتقوم بذلك، هي ليس بالذهاب الى فيزيائي او عالم فلك، بل الى المنجّم".

هل وافق كلفن مع كوبرنيكوس أن الارض تدور حول الشمس؟

شهد زمن الاصلاح الانجيلي في القرن السادس عشر، بروز نظرية العالم الفلكي البولوني نيكولاس كوبرنيكوس، اذ أصدر كتابه الشهير "دوران الأجرام السماوية" عام 1543، والذي أعلن فيه بأن الارض والكواكب هي التي تدور حول الشمس، وليس الشمس هي التي تدور حول الأرض كما آمنت الكنيسة والمصلحون. أفصح كوبرنيكوس عن نظريته منذ عام 1539، أي قبل اربع سنوات من صدور كتابه. مثّلت نظريته، التي ثبّت صحّتها لاحقا، تهديدًا لقناعات الكنيسة والمصلحين الانجيليين، الذين رفضوها وأدانوها، مدّعين أنها لا تنسجم مع تعاليم الكتاب المقدس. الاّ أن هناك بعض الأبحاث التي تميل الى استثناء المصلح الانجيلي جان كلفن من بين الرافضين. في كتابه "الاصلاح الانجيلي ونشوء العلم الحديث"، نسب الكاتب غريتش الى المصلح كلفن، أنه أدان كل من قال أن الارض ليست مركز الكون. الاّ

أن الدارسين وجدوا أن هذا الادعاء المنسوب الى كلفن، يفتقد لوجود دليل أو مرجع يؤكد صوابيته. في مقالته "موقف كلفن من كوبرنيكوس"، يجادل الكاتب ادوارد روزن، مفترضًا أن كلفن: إما قرأ كوبرنيكوس، أو كان منسجمًا مع الخطوط العريضة لنظريته.

ينقسم الدارسون الى قسمين في اعتقادهم، حول أن كان كلفن يعلم أم لم يعلم، أو وافق أو لم يوافق مع نظرية كوبرنيكوس. اعتقد البعض أن كلفن لم يسمع بنظرية كوبرنيكوس. لكن آخرون، رفضوا هذا الإدّعاء، قائلين: ليس هناك سبب مقنع بأن كلفن كان أقل فضولاً أو ذكاء من لوثر وميلنكثون اللذين علما بالنظرية وأعلنا موقفهما الرافض لها. تساءل الدارس جوزيف راتنر: "كيف لكلفن أن يتجاهل وجود هكذا نظرية، بعد أكثر من عشرين سنة على انتشارها، كون أن كلفن مات عام 1564. اعتقد غريتش، أن كلفن عرف بنظرية كوبرنيكوس، ولم يجد هناك حاجة للاصطدام معه لسبب ما. واستنتج الكاتب الفرنسي بيار مرسيل، في كتابه "العلم بالنسبة لكلفن"، أنه بعد دراسة كتابات كلفن، وجد أن العلم بالنسبة له لم يكن يشكّل مشكلة، كما شكّل لمؤيديه وأتباع لاهوته اللاحقين. اعتقد كلفن أن العلم هو اعلان الله عن نفسه في الطبيعة التي هي مسرح الله. لهذا، لن يكون مغايرًا مع اعلان الله عن نفسه في الكتاب المقدس. فالحقيقة هي واحدة. والله نبع الحقيقة هو واحد. قال كلفن: "إذا ما أخذنا بعين الاعتبار، أن روح الله هو نبع الحقيقة، فإننا لن نرفض الحقيقة ولن نحتقرها عندما تظهر، إلاّ اذا أردنا ان نسيء الى روح الله". يقول غريتش: "ليس هناك شيء في تفاسير كلفن، قد تمنعه من قبول نظرية كوبرنيكوس. لكن على العكس، فإن مبدأ "التكييف أو التوفيق" الذي كان يعتمده كلفن في تفسير الكتاب المقدس، يمكن أن يجعلنا نعتقد ان كلفن كيّف ووفّق نظرية كوبرنيكوس مع أفكار الكتاب القدس. اعتقد كلفن، أن الله اعلن عن نفسه في الكتاب المقدس، بعبارات يمكن أن يفهمها ويتكيّف معها، الانسان البسيط والمفكّر العميق، العامة غير المتعلّمين. وهذا المبدأ، قد يحرّر كلفن من أي تفسير حرفي ضيق. استخدم كلفن تعبير، "نزول الله"، عندما تكلم عن وحي الكتاب المقدس. قال،" جعل الله لغته سهلة، كيما تتطابق مع فهمنا الإنساني الجزئي غير الكامل. نزل الله الى عدم نضجنا. فعل هذا انطلاقًا من محبته الكبيرة لنا". أوضح الكاتب باركر، مفهوم نزول الله عند كلفن، بقوله: "غالبًا ما استخدم كلفن هذا التعبير عن الوحي، لتشبيه الله الكامل الناضج بنزوله، للتواصل مع انسان بسيط غير ناضج. وغالبًا ما استخدم تشبيه الأم، التي تنزل لتتواصل مع ابنها الطفل، وتستخدم عبارات طفولية قريبة منه لتتواصل معه ويفهمها على طريقته. وبهذه اللغة، توصل الأم بشكل صادق، ما تقصد أن تقوله لطفلها وهو يفهم أمه. فتصبح هذه اللغة، ليست نفس اللغة التي تتواصل بها الأم مع الآخرين". اقتبس غريتش، تفسير المصلح كلفن لقول المرنّم: "الصانع انوارًا عظيمة، لأن الى الابد رحمته" (مزمور136: 7)، اذ علّق كلفن قائلا: "من الواضح أنه لم تكن نيّة الروح القدس، أن يعلّم علم الفلك عندما كان يقدّم التعليم والارشاد للناس، بل قصد أن يكون تعليمه للعامة والأكثر بساطة. استخدم الروح القدس، موسى والانبياء، الذين استعملوا اللغة الشعبية وحتى اللغة الطفولية ليفهموا رسالة الله لهم. في تعليقه على قول المرنم، "الصانع أنوارًا عظيمة ... الشمس لحكم النهار ... القمر والكواكب لحكم الليل" (مزمور 36: 7-9)، قال كلفن: "لم يرد داود أن يتكلّم عن موضوع الشمس والقمر، بشكل علمي كما لو كان يتكلّم مع الفلاسفة. لكنه كان يتوجه الى الناس البسطاء المتواضعين في معرفتهم. لهذا اكتفى بتقديم الأمور ببساطة كما يراها كل إنسان مراقب عادي، ينظر الى السماء. وأضاف: "يدعو موسى، الشمس والقمر أنوارًا عظيمة، لكن هناك كواكب أخرى، أكبر من القمر مثل كوكب زحل. ولكن ما تراه عيوننا، هو القمر وليس زحل، بالرغم من أن كوكب زحل، هو أكبر من القمر".

يذكر الكاتب أوغسطس ليسرف في كتابه، "الكلفينية والعلوم الفيزيائية والطبيعية"، أن موضوع مركزية الارض، لم يكن يلعب دورًا حيويًا في فكر كلفن. فالذي يشكّل قيمة وكرامة المؤمن، هو اختيار الله له وليس المكان المادي الذي يشغله. اقتبس ليسرف، تفسير كلفن لقول النبي ارميا: "صانع الارض بقوته، مؤسس المسكونة بحكمته، وبفهمه بسط السموات" (ارميا 10: 13) الذي قال فيه، "الله حرّ. فقد يكون قد قرّر المسائل ، بطريقة مختلفة عمّا نعرفها أو نعتقد أننا نعرفها". لم يكن الموضوع الفلكي، إن كان دوران الشمس حول الارض، أو دوران الأرض والأجرام السماوية حول الشمس، موضوعًا اساسيًا في الكلفينية الكلاسيكية. فإن كان يسكن الانسان على كوكب متحرّك أم لا، فان هذا الامر لا يغيّر شيئًا، بالنسبة للايمان الكلفيني. إلاّ أن الامر الهام، هو أن يكون الله محور الكون والحياة لدى جماعة الايمان. رأى الكلفينيون، أن واجب المسيحي أن يعيش في طاعة شاكرة لله، وان يقدّم لخالقه وفاديه كل المجد والاكرام.

الفصل الثامن

منهج المصلحين في مواجهة الأمراض والأوبئة

منهج لوثر في مواجهة وباء الطاعون

كان المرض الأكثر فتكا، في قرون عديدة من التاريخ، وفي زمن الاصلاح الانجيلي في القرن السادس عشر، مرض الطاعون، الذي أطلق عليه تسمية، "الموت الأسود". كان الطاعون ينتقل عبر لسعات الحشرات، التي كانت تحط على القوارض، التي ملأت أماكن كثيرة، وسبّبت بموت الكثيرين. كانت نسبة الموت بسبب الطاعون، ما بين 30% وحتى 60% من الشعب. فتك مرض الطاعون القاتل، في العام 1527 في مدينة ويتنبرغ، مسقط رأس لوثر وموقع إنطلاق حركة الإصلاح الإنجيلي. أغلقت جامعة ويتنبرغ، وهرب الكثيرون خوفا من العدوى. طلب الكثيرون ومن بينهم حاكم المدينة، إلى لوثر أن يهرب مع عائلته من المدينة، لكن لوثر رفض ترك المدينة، وقرّر أن يبقى وزوجته كاترينا، كي يساعدوا المصابين بالطاعون. وهكذا بقيوا واستقبلوا بعض مرض الطاعون في بيتهم. أعطى لوثر تعليماته الى المستشفيات لبذل قصارى جهدهم لتطبيب المرضى المصابين. وطلب من المسيحيين، تقديم التبرعات المالية السخيّة لمساعدة المحتاجين. استمر يعظ على منبر الكنيسة، طالبًا من مستمعيه أن يساعدوا المحتاجين ويظهروا المحبة والرعاية لجيرانهم المرضى.

سئل لوثر: "هل يجب على المسيحي أن يهرب أثناء مرض الطاعون، ويلجأ إلى مكان آخر؟". فأجاب برسالة مفتوحة من أربع عشرة صفحة، كتبها إلى زميله في الخدمة، القس جان هيس، بعنوان: "أنهرب أم لا، من طاعون مميت"؟ قدّم فيها، فلسفة بل منهجًا لاهوتيًا وعمليًا لمواجهة المرض، تضمّن تعليمات حول كيفية تصرّف المسيحيين في مواجهة المرض. ذكر في رسالته: "لا يعيش المسيحي في ذاته، وإنما في المسيح وفي قريبه الآخر، وإلاّ لن يكون مسيحيًا. يعيش في المسيح بالايمان، وفي قريبه في المحبة" . خاطب مسيحيي ويتنبرغ، قائلا: "لدى المسيحيين الحريّة والمسؤولية في تقرير البقاء، أو عدم البقاء في ويتنبرغ للمساعدة. لكني أسأل كل مسيحي: ماذا كنت ستفعل لو كان يسوع مصابًا بالطاعون؟ أجاب قائلا: "أنا أعلم أنه إذا ما علمت أن يسوع أو أمه مريم، مطروحان في الفراش بسبب الطاعون، فإنك حتما ستسرع للمساعدة. سوف يكون كل منكم جريئا، ولن يخاف من المرض بل سيهبّ للمساعدة. وأنا أقول لكل منكم: إذا ما أردت أن تخدم يسوع في هذا الظرف البالغ الصعوبة، إذهب إلى جارك المريض،

جارك القريب منك، واخدمه في ضيقه. وبالتأكيد، سوف تجد المسيح فيه". آمن لوثر، أن الخدمة التي يقدّمها المؤمنون والمؤمنات بالمسيح للمصابين بالمرض، ما هي إلاّ أمرا صغيرا بالمقارنة مع وعود الله ومكافآته الأبدية لهم. ربط خدمة ومساعدة مسيحيي ويتنبرغ للمرضى، بخلاصهم الأبدي. قال: "يجب أن نخدم بعضنا بعضًا، لكي لا نخسر خلاصنا ونعمة الله. فالشيطان يملأ الناس بالرعب والخوف والهلع، لكي يتركوا المدينة ويهربوا، دون أن يمدّوا يد المساعدة لأحد". طلب من المسيحيين، أن يروا في هذا الظرف الاستثنائي، دعوة استثنائية من الله لهم، و فرصة ذهبية للكرازة للذين هم في مواجهة مباشرة مع الموت. رأى، في قرار تطوّع المسيحيين لخدمة المرضى، حربا روحية. اعتبر أن المسألة هي مسألة الضمير المسيحي. قال: "لا ينبغي على أحد أن يترك جاره المصاب بالمرض، لأن يسوع قال، "كنت مريضًا فزرتموني" (متى 25: 36). وبّخ لوثر، الرجال الذين تركوا نساءهم، وفرّوا حفاظًا على صحتهم.

تحدث لوثر عن نوعين من الناس: أناس أقوياء لديهم إيمان قويّ أمام الموت، وآخرون ينقصهم ذلك. خاطب الأقوياء في الإيمان، قائلاً: "بما أن البعض أقوياء والبعض ضعفاء في الإيمان، فإننا لا نستطيع أن نضع نفس حمل مساعدة مرضى الطاعون على الجميع. لهذا، على الأقوياء أن يبقوا في المدينة بالرغم من المجازفة بحياتهم، ويمكن للضعفاء المغادرة. الاّ أني أطلب من الأقوياء، عدم إدانة الضعفاء الذين يتركون. طلب من الجميع اتخاذ كل الاجراءات الضرورية للوقاية من المرض وحماية أنفسهم من العدوى. عدّد، فئات الناس الذين ينبغي أن يبقوا في ويتنبرغ لمساعدة المرضى. فذكر: أولاً، القسوس الذين يقومون بخدمة الناس الروحية. ثانيًا، االموظّفون الذين يتقاضون أجرًا للإهتمام بحياة الناس، مثل: الأطباء، الأجهزة الأمنية، القضاة، رؤساء البلديات. ثالثا، المسيحيون غير المدربين. قال، "على كل مسيحي أن يكون السامري الصالح، ويتبع ناموس المحبة والقوانين المدنية، ويساعد المحتاجين الى المساعدة. نصح، الذين يخدمون المرضى وخائفين من الاصابة بالوباء، بأن عليهم ألاّ يفكّروا أن ما يقومون به هو قسرا واجبارا، دون رضى داخلي. حثّهم الى عدم النظر الى خدمتهم للمتألمين بشكل ناموسي، وإنما استجابة لمراحم الله ومحبته، كيما يكون عملهم نابعًا من قلب صادق. اعتبر ان هذا الموقف هو الموقف الايجابي الأفضل الذي يمنحهم السلام وراحة الضمير وهم يعتنون بمصابي وباء الطاعون. آمن لوثر، أن عقيدة التبرير بالنعمة وحدها بواسطة الايمان وحده، دون اية شرطية أو استحقاقات في الانسان، هي اساسية جدًا في قبول المرضى، ومداواتهم لهم دون أية شروط.

قدسية الحياة من أهم مبادىء مساعدة المرضى

أشار لوثر الى مبدأ أساسي يجب اعتماده للمساعدة هو قدسية الحياة: حياة المرضى، وحياة المتطوّعين للمساعدة. فاحترام الانسان لقدسية حياة الآخرين، يجب أن يحثّه لبذل قصارى جهده لمساعدة المصابين. واحترام الانسان لقدسية حياته، يتطلّب من المتطوعين للمساعدة، توخّي الحذر وعدم التهوّر في تعريض أنفسهم لخطر انتقال العدوى اليهم. فالرسول بولس قال، "فإنه لم يبغض أحد جسده قط، بل يقوته ويربيه" (أفسس5: 29). طلب لوثر الى المتطوّعين الالتزام بإجراءات الصحة العامة، وطلب الرعاية الطبية لأنفسهم عندما يرون حاجة لذلك. قال لوثر: "بالنسبة لي، سوف أطلب من الله الرحوم أن يحمينا. سوف أستخدم موادًا مطّهرة، سأتناول الدواء. سأتجنّب الأمكنة والأشخاص حيث وجودي فيها غير ضروري، لكي لا ألتقط العدوى أو أُعدي الآخرين، وأتسبّب بموتهم بسبب إهمالي. فإذا ما شاء الله أن يأخذني إليه، سوف يجد بأني قد فعلت، ما أنتظر مني أن أقوم به، ولا أكون المسبّب بموتي وموت الآخرين.

إذا ما احتاج لي جاري، لن أتردّد في الذهاب إليه حيث هو. لكن سألتزم بالاجراءات، التي قرّرت أن أقوم بها، لأحفظ نفسي من العدوى. هذا هو الإيمان الذي نسمّيه مخافة الله، لأنه ايمان غير متهوّر، ولا يجرّب الله". تكلّم لوثر، عن ضرورة تحلّي الجميع بالمسؤولية الروحية والأخلاقية الكاملة، التي تتجسّد بعدم اخفاء من هو مصاب بالوباء، اصابته لكي لا ينقل العدوى للآخرين. ذكر في كتيّبه"أنهرب أم لا، من طاعون مميت": يخفي البعض اصابتهم بالوباء، ويختلطون بالآخرين معتقدين أنه بنقلهم العدوى للآخرين وتسميم أجسامهم، يمكنهم أن يتخلّصوا أنفسهم من المرض ويستعيدوا صحّتهم. وعليه، يدخلون الشوارع والبيوت، محاولين تعريض صحّة الاطفال والمتطوّعين للخطر، معتقدين أنهم يمكنهم أن ينقذوا صحتهم. الاّ أنهم يجهلون أنه باختلاطهم بالناس، ينقلون العدوى الى: طفلٍ هنا، وسيدة هناك".

عندما ضرب الطاعون مدينة جينيف عام 1542، كان المصلح جان كلفن، من أوائل الذين هبّوا لمساعدة المصابين. دخل الى بيوتهم. زوّد المدينة بالمستشفيات. جمع التبرّعات لتأسيس مستشفى متخصّصة لمرضى الطاعون. لكن، كونه قائد الاصلاح الانجيلي الأول في المدينة، طلب منه مجلس كنيسة جنيف، وقف اختلاطه مع الناس لئلا يعرّض حياته لخطر الموت، للحاجة القصوى اليه لاستمرار الاصلاح، مع أنه لم يكن يرغب في ذلك. وهكذا قام المجلس بتعيين راع للمساعدة. فمات الراعي الأول، ومن ثم الثاني ومن ثم الثالث من مرض الطاعون. علّق كلفن على قول الرسول بولس: "فرحًا مع الفارحين، وبكاءً مع الباكين" (رومية12: 15)، قائلا، "لنتعاطف مع المرضى والمتألّمين، كيما نكيّف مشاعرنا مع مشاعرهم. يجب ألاّ نرى إخوتنا وأخواتنا يتألّمون، دون أن نقف الى جانبهم. يجب إحتضان آلامهم واعتبارها، وكأنها آلامنا". قدّم كلفن ثلاثة مبادىء لاهوتية لمواجهة المرض: الأول، تذكّر، أنه ليس للموت سلطان على المسيحيين. الثاني: إعترف بخطاياك. الثالث: إرتم في أحضان مراحم الله.

مهمة الراعي العناية بالمرضى وليس فقط الوعظ

طلب لوثر، من الرعاة أن يقوموا بتوعية أعضاء الكنائس عن مرض الطاعون، وتثقيفهم عن مخاطره كي يتّخذوا كل الاحتياطات الواجبة للتصرّف بمسؤولية والمساهمة في وقف انتشار الوباء. لم يفصل لوثر أبدًا بين الوعظ والرعاية. إعتقد أن الاثنين استندا على كلمة الله. اعتقد لوثر أن مهمة الراعي، ليس فقط الوعظ على المنبر، وانما أيضا رعاية الرعية في كل ظروفها. في محاضراته لتلاميذه حول رسالة بولس الرسول الى أهل غلاطية، تحدّث لوثر عن دعوة الراعي للخدمة، فقال: "إذا ما كنت خادمًا لله، عليك أن تعظ، أن تشجّع، وأن تشفي منكسري القلوب". وأضاف: " تفرض الضرورة على القسوس أن يبقوا ثابتين في وجه خطر الموت، لأن المصابين الذين هم على حافة الموت، يحتاجون الى رعاة صالحين، ليقوّوهم، ويعزوّهم، ويصلّوا معهم. فالمسيح أوصانا، وصية واضحة ، اذ قال: "الراعي الصالح، يبذل نفسه عن الخراف" (يوحنا 10: 11). تقتضي المسؤولية الروحية، على الرعاة والقسوس الذين يمثّلون صورة يسوع المسيح الراعي الصالح، الذي لم يترك خرافه للذئاب، أن يبقوا في المدينة لتشجيع المصابين والصلاة معهم وتشجيعهم، لا سيما الذين منهم في أيامهم الاخيرة على فراش الموت ". دعا لوثر الرعاة الى الاصغاء الى وجع الناس ومخاوفهم وقلقهم واحباطاتهم، لأن الاصغاء أمر حيوي للرعيّة، وله بعد روحي ونفسي هام، يساعد المصابين وعائلاتهم لإجتياز تلك المرحلة الصعبة التي يمرّون بها.

طلب لوثر من الرعاة، تقديم أخبار الانجيل السارة للمرضى. آمن، أن الإنجيل يقدّم للانسان ثلاثة أنواع من الشفاءات، للنفس، والفكر، والارادة. الأول، شفاء النفس: آمن لوثر، أن الانجيل يشفي النفس

باتحادها المتواصل مع المسيح. قال، "يحاول إبليس أن يستغّل المرض والألم، كيما يسبّب انقطاع في علاقتنا مع الله. والألم يمكن أن يطعن أقوى المسيحيين، لكن الانجيل يسعى لأن يعيد ضم أولاد الله المتألمين مع أبيهم السماوي، من خلال التركيز على شركتهم المستمرة معه، الأمر الذي يعيد الشفاء لنفوسهم. الثاني، شفاء الفكر: آمن لوثر أن الانجيل يشفي الفكر، من خلال دعوة المسيحيين الى تركيز أنظارهم على الرب، وذلك عبر: قراءتهم للكتاب المقدس، الاعتماد على بساطة الايمان، والادراك بأنهم مخلّصون بدم المسيح". قال، "يسعى إبليس لأن يسيء تفسير الألم، كيما يقنع المرضى المتألمين، بأن الله غاضب منهم. وهذا التفكير قد يطال أكثر المؤمنين نضجًا، الا أن الروح القدس يقنع المسيحيين، كي يفسّروا أمراضهم وآلامهم، من خلال عدسة الانجيل. الثالث، شفاء الإرادة: آمن لوثر، أن الانجيل يشفي الارادة من خلال الارشاد والتشجيع الذي يقدّمه لنا. اعتقد أن الانجيل يزرع الشجاعة في إراداتنا عندما ندرك أن المسيح هو فينا ومتّحد معنا. لكن إبليس، يحاول دائما أن يحبط عزيمتنا من خلال تشكّيكنا في الله وفي أنفسنا، لينزع منا الشجاعة. وهذا التشكيك، يمكن أن يدمّر أكثر المؤمنين نضجًا. لهذا، يدعو لوثر جميع المسيحيين الى الانفتاح على عمل الروح القدس فيهم، لأنه يعيد القوة والحياة الى إرادتهم.

وصايا بيركينس للمرضى

أحد اللاهوتيين الذين تأثروا في فكر المصلح كلفن، اللاهوتي الانكليزي، وليم بيركنس الذي عاش في القسم الثاني، من القرن السادس عشر. من الأمور التي تطرّق اليها، أسئلة حول كيفية مساعدة الراعي للمرضى، وكيفية تصرّف المريض أثناء مرضه. لعب بيركينس دورًا فاعلا في تغيير نظرة الناس الى الأمراض، لأن لها تفسيرات طبيعية، وليس أسبابها: السحر الأسود، والمشعوذون، والعين الشريرة، والشيطان، وغيره، كما كان سائدا آنذاك. انتقد بيركينس، امرأة أطلق عليها اسم "ساحرة الشفاء" أوهمت المريض أنها تشفيه باسم الشيطان. فأسماها بيركينس "وحش ساحرة الشفاء". سأل بيركينس المرضى قائلاً: "هل أنتم مستعدون أن تدفعوا هذه الكلفة الباهظة للشفاء، بأن تكونوا تحت سيطرة إبليس؟ من الأفضل للإنسان المريض أن يموت في مرضه، من أن يسلّم نفسه للشيطان". إعتقد بيركينس، أنه ليس هناك أي مبدأ من مبادىء الإصلاح الإنجيلي، يمنع الإنسان من تحمّل المسؤولية الكاملة عن قراراته، والحفاظ على صحته الجسدية والنفسية. اعتقد أن قيمة الصحة الجيّدة، تكمن في قدرة المسيحيين على تقديم المساعدة للمرضى وفعل الخير لأعضاء الكنيسة وللآخرين. كما اعتقد أن الصحة الجيدة، تمنحنا الوقت الكافي، لنحضّر أنفسنا روحيًا للسماء. خلال إنتشار مرض الطاعون، فكّر الكثير من الناس بعدم معالجة مرضاهم، معتقدين أنهم بموقفهم السلبي هذا، يعارضون إرادة الله، لأنه سمح بإرسال هذا الوباء لتأديب الناس وإرجاعهم اليه. لكنّ الأطباء الإنجيليين رفضوا هذا الموقف الاستسلامي، ودعوا الى معالجة المرضى. قرأ بيركينس كتاب يوهانيس غانيفت، "صديق الأطباء"، الذي جاء فيه أن حركة الشمس والقمر والكواكب والنجوم، تسبّب الأمراض، وتؤثر على صحة الناس". انتقده بشدة، قائلا، "أن يصف طبيب أبراج دواء لمريض، على أساس حركة النجوم هو أمر مرفوض. من الأفضل للمريض أن يستشير طبيبًا حقيقيًا، يعرف كيف برز المرض وعوارض المرض وطريقة مساره. وعلى ذلك الأساس، يتناول أدوية العلاج. أوصى المرضى، أن يكونوا حذرين في اختيارهم لأطبائهم، الذين يلجأون إليهم. وضع أربعة مقاييس رئيسية لاختيار المرضى لأطبائهم، هي: أولا، أن يكون للطبيب إيمانا حقيقيا. ثانيا، أن يكون لديه ضميرا صالحا. ثالثا، أن يكون لديه ثقافة طبية جيدة. رابعا، أن يكون لديه خبرة كافية في ممارسة الطب. إعتقد باركينس أن مفهوم الحظ الأعمى هو مفهوم وثني، ليس له أيّة صلة بالمفهوم المسيحي، الذي يرى أن كل شيء

يحدث في الكون يخضع لعقيدة سيادة الله على كل تفاصيل الحياة. قال، "على المريض أن يدرك، أن المرض لا يأتي إليه بالصدفة أو بالحظّ، إنما كل الأمور تأتي بسماح من الله وبعلم الله".

أسِف باركينس أنه عند إصابة معظم الناس بالأمراض، فانهم يطلبون الأطباء أولاً، ثم يطلبون الراعي عندما يصبحون نصف أموات، وكأنهم يظنّون أن الرعاة يستطيعون أن يجترحوا العجائب لهم . آمن بيركينس، أن الله يحضر مع المريض، من خلال التعزية الداخلية الروحية والنفسية التي يمنحها له، ومن خلال التلطيف من آلامه والتخفيف من عذاباته. لم يعتقد أن ازدياد الأوجاع تشير الى ازدياد عقاب الله، لتكاثر خطاياه ، كما اعتقد البعض. قال، "يجب ألاّ نحكم في حالة المريض الروحية، من خلال آلامه الجسدية الكثيرة". اعتقد بيركينس ، أن مهمة الراعي الأساسية، هي تقديم الإرشاد الروحي للمريض لتوجيهه حول كيفية النظر الى مرضه، لاتخاذ الموقف المناسب. قال، "تعني الرعاية، إعطاء راحة للذين لا راحة لهم. والرجاء للذين في طريقهم الى الموت". فإذا ما كان المرضى والألم، يقتطع جزءًا من الإنسان، فالرعاية الجيدة يمكنها أن تعيد بعض اللحمة إلى الجسد المتألم. علّق باركينس، على قول الرسول يعقوب: "أمريض أحد بينكم، فليدع شيوخ الكنيسة فيصلّوا عليه، ويدهنوه بزيت باسم الرب" (يعقوب5: 14)، قائلاً: " ان أناس الله القديسين، خدّام الكلمة، هم أطباء الله الذين يشفون جروح المنكسرين، ويقيمون الساقطين ويوجّهون الضعفاء في الإيمان إلى مصدر النعمة الحقيقية. لهذا، يجب علينا أن نقدّرهم ونحبّهم لأجل العمل الصالح الذي يقومون به".

تعزيات لوثرالأربع عشرة للمرضى

دعا مارتن لوثر المرضى، للتحلّي بصفتين رئيسيتين، هما: الصبر، والرجاء. قال، "من الأمور التي تسبّبها الأمراض والآلام، هو تقليل اهتمامات المريض بالأمور الأرضية، ليوجّه اهتماماته نحو الحياة الأبدية... فلن يوجد الصبر عند الناس الذين يعيشون، في حالة من الراحة والرخاء. فالصبر الحقيقي يمتحن في حالات الألم والتجارب". لم يقلّل لوثر من شدة تدمير الألم والمرض لحياة المرضى. قال، "نحن بشر ولسنا آلهة. لهذا، يجب أن يكون لدينا ثقة في مواعيد الله والخلاص الأبدي، لأنه ليس لنا أي بديل آخر". دعا لوثر المرضى والمتألمين، الى أن يكون لديهم نظرة أوسع الى الحياة، والتي تتمثّل في تحويل أعينهم: عمّا هو رأي في هذا العالم الساقط، الى ما هو غير مرئي، والى تحمّل الصعوبات والتمسك بثبات بكلمة الله. وأضاف، "فضيلة الرجاء، تنبع من فضيلة الصبر. ويمكن أن يطلق على فضيلة الصبر، تسمية "الرجاء الروحي". قال: "إذا ما استطاع الإنسان المتألّم، أن يصبر تحت وطأة آلامه، فإنه سيجد الرجاء". رأى لوثر ارتباطا وثيقا بين فضيلتي: الصبر والرجاء. قال: "أن يعيش الإنسان في رجاء، يعني أن لا يعتمد على أعماله واستحقاقاته وقدراته الشخصية". وتابع قائلا، "كما أنه لا يمكن أن يوجد الصبر، في حالات الراحة والرخاء، وإلاّ لن يعتبر صبرًا. هكذا أيضًا الرجاء، فالرجاء الذي يستند على أعمال واستحقاقات الانسان ليس رجاء". نظر لوثر بشكل واقعي، الى كيفية تفاعل المرضى المتألمين مع فضيلة الرجاء، فقال، "قد لا يشعر المريض، الذي يعيش تحت وطأة آلام وأوجاع كثيرة، بالرجاء. وإنما سيشعر بهذا الرجاء المخبّأ، بعد عبور فترة الألم... فالتعزية الأرضية، تصرّ على رؤية الانسان لأوضاعه الصحية تتغيّر ومشاعره تتبدّل، هنا في حياته على الأرض. لكن التعزية الإلهية، تأتي من القراءة، والتأمّل في كلمة الله المعلنة في الكتاب المقدس. شجّع لوثر المرضى، كي لا يتوقفوا كثيرًا عند حالة آلام الزمان الحاضر التي يعيشونها، بل يتوقفوا عند حالة المجد الأبدية، العتيدة أن تستعلن في الحياة الأبدية.

كتب مارتن لوثر أربع عشرة تعزية، لتشجيع المرضى بشكل عام، ومرضى الطاعون بشكل خاص، حتى يتّمسّكوا بالمسيح، ويعيشوا برجاء الايمان وبقوة الروح القدس حتى الرمق الأخير من حياتهم. قال مارتن لوثر، "ان ما يحتاج إليه الإنسان الذي يفتك به الألم والمرض، هو التعزية التي تنبع من الكتاب المقدس. تعني كلمة "تعزية" تشجيع، وتستخدم الكلمة لتشجيع طفل صغير، أو مريض كيما يتشدّد ثانية. يخبرنا لوثر أنه تعزّى بكلمة الله، وعزّى الآخرين بها. الهدف من التعزية، هو التأكيد على أنه في نهاية المطاف، فإن إرادة الله هي التي ستسود في حياة الانسان. عندما تكلّم لوثر عن التعزية من الكتاب المقدس، اقتبس قول الرسول بولس لكنيسة روميه: "لأن كل ما سبق فكتب، كتب لأجل تعليمنا، حتى بالصبر والتعزية بما في الكتب، يكون لنا رجاء" (رومية15: 4). اعتقد لوثر، أن الكتاب المقدس يقدّم التعزيات من خلال: الشرور والبركات معًا، مستندا في اعتقاده على قول كاتب سفر الجامعة، "في يوم الخير، كن بخير. وفي يوم الشر، اعتبر. ان الله جعل هذا مع ذاك، لكيلا يجد الانسان شيئا بعده" (جامعة 7: 14). استنتج لوثر، أن الكتاب المقدس يدعونا، الى التأمّل ببركات الله في يوم الشر، والتأمّل بالشرور، في يوم الخير. انطلاقا من هذا السياق، تحدث لوثر عن ضرورة تفكير كل مريض مسيحي: بسبعة شرور، وسبع بركات، تمتزج في معظم الأحيان مع بعضها البعض.

الشرور السبعة

الأول، الشر داخلنا

فسّر لوثر، أن الشر الذي في داخلنا، هو طبيعتنا الخاطئة والفاسدة، التي تنتج الشرور، الأمر الذي ما يدفعنا الى التمسك في عناية الله الكلي السيادة، كأب لنا.

الثاني، الشر أمامنا

فسّر ،الشر الذي أمامنا، على أنه المآسي والأمراض الكثيرة التي تصيبنا. حدّد الموت على انه أعظم الشرور، ووضعه في المرتبة الثانية، بعد مرتبة السقوط من النعمة. لكنن بالرغم من هذا الشر العظيم، دعا المؤمنين المتألمين، الى النظر الى الموت على أنه الوسيلة النهائية التي تخلّصنا من سيادة الخطية علينا، لأن الخطية هي أخطر من الموت.

الثالث، الشر وراؤنا

قصد لوثر ، الشرور التي أصابتنا في الماضي أثناء الأوقات المظلمة والصعبة، وأصبحت وراءنا. لكنه يسرع ليؤكد، قائلا، "إذا ما لمسنا رعاية الله لنا في وقت الشرور في الماضي، فان الله حتما سيرعانا بمراحمه الواسعة في وقت مرضنا وصعوباتنا في الحاضر، حتى ولو اننا في بعض الأحيان، لا نشعر بحضوره بسبب آلامنا ومرضنا، التي تغلقنا على أنفسنا.

الرابع، الشر تحتنا

انه، شر الجحيم الذي تحتنا، والذي سيتحقق عند دينونة الأشرار. قال، "إذا ما أدركنا، أن هذا الشر لن يصيبنا، كوننا أولاد الله المؤمنين بابنه يسوع المسيح، فإن تبنّي الله لنا، سيمنحنا العزاء".

الخامس،الشر عن يدنا اليسرى

قصد بذلك، العصور المتعددة من الشرور، التي مرّت فيها الإنسانية ككل في هذا العالم الساقط. اعتقد أن التأمل في العصور المتعددة الماضية من الشرور التي أصابت البشر، يجعلنا ندرك تماما، أن حالة هذا العالم الشرير، هي منذ زمن بعيد. لهذا ، عندما ننظر الى هذه الشرور التي يُصاب بها الأعداء والأصدقاء، تخفّ آلامنا.

السادس، الشر عن يدنا اليمنى

قصد به، الشر والآلام التي اختبرها القديسون، الأحياء والأموات، والتي هي أكثر وأعظم من آلامنا. لهذا فانه بمجرّد تذكّر آلامهم الكبيرة، تخف آلامنا.

السابع، الشر فوقنا

قصد به، آلام وموت المسيح، الذي نفّذه أشرار العالم، بتعليقهم إيّاه على الصليب. فسّر الكاتب دنيس نيجن، اعتقاد لوثر، بقوله: "آمن لوثر، أن المسيح يجري تحويلا في حياة الإنسان المسيحي، فيقلب شرور الحياة رأسًا على عقب، حتى نستطيع ان نرى في موت المسيح، الذي اعتبره العالم شرا، كامل معنى الحياة. وهكذا ننظر الى موت المسيح، ليس كمصدر للحزن والألم، وانما كمصدر للفرح والرجاء". قال لوثر، "إن لمسة المسيح الذي تألّم لأجلنا، تقدّس كل آلام وأحزان المتألّمين المؤمنين بالمسيح". وهكذا، فإن لوثر، يأخذ حقائق الحياة وآلامها وأمراضها، ويمزجها ويخيطها في لاهوت الصليب.

البركات السبعة

الأولى، البركة داخلنا

انها البركات أو الهبات التي منحها الله في داخل كل انسان. وهي نوعان: بركات جسدية: كالقوة، والصحة، والجمال، والحواس الخمس. وبركات فكرية: كالعقل، والمعرفة، والحكمة، والتمييز. فهذه البركات نادرًا ما نراها ونفكّر بها. قال لوثر، يجب أن نتذكّر دائما، أن يدّ الله هي التي منحتنا هذه البركات، ونكون شاكرين لله حتى في وسط أمراضنا. فلو تذكّرناها، لشعرنا أننا نسكن السماء، كما قال المسيح: "لأن ها ملكوت الله داخلكم" (لوقا17: 21). فالله برحمته يبقي هذه البركات مخبّأة، ألى أن تُظهر أنفسها في أوقات معيّنة. هذه البركات، هي مثل قطرات الماء التي ترويئا، ولا تظهر هذه البركات بملئها، إلاّ للنفس المتألّمة.

الثانية، البركة أمامنا

قال لوثر، سوف يجد غير المسيحيين، تعزية قليلة وسط هذه الشرور التي تحيط بنا، لأنه بالنسبة لهم الأمور غير أكيدة. لكنّ المسيحيين الحقيقيين، يختبرون الرجاء. الرجاء يعني، توقّع أوقات وأيام أفضل. الرجاء يعني، بأن شرور هذا الدهر الحاضر سوف تنتهي. وأضاف، "إن تفكيرنا في الموت في أوقات الألم والمرض، يجب أن يرتبط بالتأمّل في موت المسيح، الذي كسر قوّة الموت، وحوّله الى مجرّد ظل. لهذا، صار يُسمّى الموت للمسيحي، رقادا أو نوما، وليس موتا". وبالتالي، هذه البركة، هي بركة الرجاء في وقت الموت. انها عطية من الله. الأمر الثاني حول هذه البركة، هي أن الموت لا ينهي فقط آلام وشرور هذه الحياة، ولكن أيضًا يُنهي الخطية والرذائل، ويجعل الموت أمرًا مرغوبًا به للنفوس المؤمنة، لأن شرور النفس أي الخطية وتجلياتها، هي أسوأ من الموت. فالموت يخلّصنا من أخطار هذا العالم ويزيل الخطية منّا، الا أنه بواسطة نعمة المسيح، يصبح الموت بالنسبة للمسيحيين نهاية الخطية، وبداية حياة البر.

الثالثة، البركة وراؤنا

قصد لوثر، أن يقول، بأن على المتألمين المسيحيين، التأمّل في حياتهم في السنين الماضية، ورؤية كيف أن عناية الله، رافقتهم في الأيام الصعبة في الماضي. وانطلاقا من عناية الله لنا الماضية، نطلب منه العناية بنا وسط الشرور التي نواجهها في الحاضر. اقتبس قول القديس أوغسطينوس: "ليهتّم بك الله الذي خلقك، فان الله الذي اهتّم بك حتى قبل أن تولد عندما كنت جنينا، فكيف لا يهتّم بك الآن. فأنت الآن ما أرادك الله أن تكون". واقتبس قول المرنّم: "يا رب قد اختبرتني وعرفتني. أنت عرفت جلوسي وقيامي. فهمت فكري من بعيد... نسجتني في بطن أمي" (مزمور 139: 1-2و13).

قال لوثر، البركات الثلاث الأولى نجدها في داخلنا. أمّا البركات الأربع الأخيرة، فنتعرّف عليها خارج أنفسنا:

الرابعة، البركة تحتنا

قصد لوثر بذلك موت الخطاة في آثامهم ودينونتهم. قال: " بالايمان بقوة صلاح الله، نستطيع أن نجد بركات، حتى في أكثر الشرور. فالذين يموتون في آثامهم ويذهبون للدينونة، هم مثال لنا للتأديب والتعليم الذي في البرّ. ولتوضيح فكرته، اقتبس قول إشعياء ، "لذلك هكذا قال السيد الرب: هوذا عبيدي يأكلون، وأنتم تجوعون. هوذا عبيدي يشربون، وأنتم تعطشون. هوذا عبيدي يفرحون، وأنتم تحزنون"(اشعياء 65: 13). وبالتالي، هذه البركة تذكّرنا بدينونة الله، للذين يموتون في آثامهم. وبنفس الوقت، تذكّرنا بأننا لن نلقى المصير نفسه نحن المؤمنين. فهذه البركة العظيمة، تشعّ حتى وسط الموت والدينونة.

الخامسة، البركة عن يدنا اليسرى.

قال لوثر، "ننال هذه البركة عندما نتأمّل بحياة الأشرار حولنا، الذين يجمعون الثروات ويعيشون حالة الرفاهية. صحيح أن رؤية أولئك الأشرار يستمتعون بحالة الرفاهية، يجعلنا نشعر بالغيرة المرّة. لكن حتى القديسون شعروا بتلك الغيرة ، كون أن أولئك الأشرار يفرحون بما لديهم، ونحن نتألّم في حالتنا الصعبة. أشار لوثر الى حالة المرنم في المزمور الثالث والسبعين، الذي شعر بالغيرة المرّة عندما قارن بين حالته البائسة المليئة بالمرض والفقر، وحالة الأشرار المتكبرين. وبسبب غيرته كان على وشك الانزلاق في الخطية. كما تذكر كلمات المزمور، "انما صالح الله لاسرائيل، لأنقياء القلب. أما أنا فكادت تزلّ قدمايّ. لولا قليل لزلقت خطواتي، لأني غرت من المتكبّرين إذ رأيت سلامة الأشرار. لأنه ليس في موتهم شدائد" (مزمور 73: 1-4). يكمّل لوثر قائلا، "يذكر الكتاب المقدس كل هذا، كيما ندرك كم أن الله صالح، للذين هم أنقياء القلب، وهذا يمنحنا التعزية والتشجيع". اعتقد، أن البركات التي يحصل عليها المؤمنون عند رؤيتهم الأشرار يستمتعون ببركات أرضية ومادية، تجعلهم يتوقعون بشوق وحنين، بركات الله الروحية السماوية غير المرئية التي تنتظرنا. علّق على ذلك الوضع قائلا، " مع أن خطايا أولئك الأشرار الذين يعيشون حياة رخاء، هي عثرة للضعفاء. إلاّ أنها تمارين في الفضيلة وفرصة للتأمّل ببركات الله غير المرئية، للأقوياء في الإيمان".

السادسة، البركة عن يدنا اليمنى

هذه البركة نجدها في: جماعة القديسين، خليقة الله الجديدة، إخوتنا في المسيح، الذين من خلالهم ننال بركات وتعزيات، ليس في عيون الجسد، وانما في عيون الروح. قال لوثر، "يجب ألاّ نهمل هذه البركات التي تأتينا من خلالهم، بل علينا أن نتعلّم منهم كيف يعزّينا الله. إنها من بركات الله، أن نكون جزءا من كنيسة القديسين. لأننا نتعزى ونتشجع، بصلواتهم وأصوامهم من أجلنا، وبمواساتهم التي تخفّف من آلامنا. فهم

يساعدوننا في حمل أثقالنا"، كما قال بولس: "إحملوا بعضكم أثقال بعض" (غلاطية 6: 2). اختصر لوثر هذه البركة بقوله، "أنا أستطيع أن أجد مجدًا وفرحًا حقيقيًا، في البركات التي يحملها لي الاخوة والأخوات الآخرون، في الكنيسة شركة القديسين".

السابعة، البركة فوقنا

انها بركة التمتّع برؤية يسوع المسيح ،ملك المجد القائم من الموت، وجهًا لوجه. فبموته وقيامته، منحنا البركة الأعظم. لأن بقيامته، لن يسود عليه الموت بعد الآن. فما حقّقه المسيح في موته وقيامته، سيمنحه ويهبه لأولاده بشكل كامل، كما يقول بولس: "الذي لم يُشفق على ابنه، بل بذله لأجلنا أجمعين. كيف لا يهبنا أيضًا معه كلّ شيء؟" (رومية 8: 32). عدّد لوثر، ما حقّقه المسيح بقيامته والتي هي: " سحق الموت. الانتصار على الجحيم . أعادة الحياة . اخراج البّر الى النور. ومنحنا المجد الأبدي". قال، "هذه البركات الثمينة التي لا تقدّر، أصبحت ملكا لنا. وعلى المسيحي المؤمن، أن يفتخر باستحقاقات المسيح هذه، وكل البركات التي ربحها من موت المسيح، حتى وسط آلامه وأمراضه". صنّف لوثر، هذه البركة، على أنها الأسمى بين كل تلك البركات التي تأتينا من فوق، لأنه من خلالها، نرتفع ليس فقط فوق شرورنا، ولكن أيضًا فوق البركات الأخرى". لهذا، دعا المسيحيين المتألمين، أن يتذكروا دائمًا، أن هذه البركات تكفيهم وتملأهم بالتعزيات الكثيرة، وتجعلهم يرون مجدًا حتى في اضطراباتهم وآلامهم.

الفصل التاسع

أدبيات الموت في القرون الوسطى

لم يكن هناك وقت في التاريخ، شعر فيه الناس بقرب موتهم، مثل وقت انتشار وباء الطاعون الذي سمّي "الموت القاتل"، الذي قضى على أعداد هائلة من الناس. شهدت أوروبا موجات متتالية من وباء الطاعون الفتّاك. كان هناك نقص كبير في النظافة. لم يكن هناك علاج موثوق به. ساهمت ظروق العيش القاسية في موت الكثيرين في عمر مبكر. في ذلك الزمن الصعب، الذي كان زمن امتداد حركة الاصلاح الانجيلي في القرن السادس عشر. ووسط انتشار الرعب والخوف الشديد بين الناس من الأوبئة. برزت أدبيات كثيرة تتحدّث عن حقيقة الموت وضرورة استعداد الانسان روحيا للموت. وجدت حقيقة الموت المؤلمة طريقها الى فنون تلك الفترة. ما عرف "رقصة الموت" كان مشهدًا فنيا شائعًا، في الرسومات والمنحوتات والنقش على الخشب. من تلك الصور، هيكل عظمي يجرّ انسانًا الى القبر. كان القصد منها، تذكير الانسان بمدى هشاشة الحياة الأرضية، للزهد بها والنظر اليها بمنظار أبدي.

تداول الناس آنذاك بالكثير من الخرافات والعادات الاجتماعية، والممارسات الكنسية الشائعة، لاعداد الانسان نفسه للموت. انتشرت ممارسات، مثل، تكرار آيات محدّدة من الكتاب المقدس بينما يلفظ المريض أنفاسه الاخيرة. كان الاسقف ثيودولفوس، قد وضع في القرن الثامن، تعليمات لتحضير الانسان روحيا للموت. تضمنت تعليماته: تلاوة الصلاة الربانية، وقانون الايمان، ورسم اشارة الصليب، ومسحه بسرّ المسحة الأخيرة، وذلك بهدف طرد النشاطات الشيطانية من حوله، فكانت تلك التعليمات الاكثر استخداما زمن انتشار وباء الطاعون في نهاية القرون الوسطى. وزّع كهنة الكنيسة، كتيّبات حول ما سميّ "الموت الجيّد"، لاعداد النفس روحيا جيدا للموت. شجّع المرضى ليعترفوا للكهنة بخطاياهم بصدق، كيما يحلوّهم من خطاياهم ، لكي لا يعيق شعورهم بالذنب واليأس، والحزن المفرط، وجهة انطلاقهم نحو السماء.دعا الكهنة الناس، الى تجنّب قدر الامكان ميتات مفاجئة، مثل: حوادث، أزمات قلبية وغيرها، لأن هذه الأنواع من الميتات لا تسمح للكاهن بالتواجد للقيام بواجباته الكنسية، ومسحهم بسرّ مسحة المرضى التي هي الفرصة الاخيرة لهم، كيما يحلّهم الكاهن من خطاياهم، ويطلقهم بسلام الى السماء. انتشرت معتقدات وممارسات، تفيد أنه ان لم يعدّ المصابون بالطاعون أنفسهم جيدا للموت، واستسلموا لليأس والقنوط، ستنهض مخلوقات الشيطان السوداء التي تنتظر تحت سريرهم، لتنقضّ على نفوسهم وتمضي بها الى الهلاك الأبدي. أما اذا ما استعدّوا بالتوبة والايمان، ستأتي الملائكة وتحمل نفوسهم وتطير بها عاليًا الى السماء، وهكذا تحبط خطة الشياطين. تجذّرت تلك الادبيات، في الاعتقاد بأن الانسان يكسب خلاصه من خلال أعماله وجهوده الشخصية.

الخوف من الموت موت في ذاته

من الأمور التي شغلت تفكير المصلح مارتن لوثر، موضوع الخوف من الموت. قدّم لاهوتا كتابيا عميقا، ليخفّف من وطأة الموت على الانسان المسيحي، أو ربما حتى لم يعدّ يهتّم بالموت، الذي يطارد الانسان أينما يذهب. يخبرنا لوثر، انه قبل أن يختبر عقيدة التبرير بالايمان وحده، فقد مرّ

بمرحلة من القلق والرعب والخوف الشديد من الموت الأبدي، بسبب نظرته الى الله على أنه إله غاضب وديّان يحاسبنا ويعاقبنا على آثامنا وخطايانا. الاّ أن اختباره لتبرير الله له بالايمان وحده، غيّر نظرته الى الله، من إله ديّان وغاضب الى إله رحمة ونعمة. هذا الاختبار الشخصي الروحي، غيّر كامل حياة مارتن لوثر. فسّر قصة يونان النبي والخوف الشديد من الموت الذي اختبره عند رميه في البحر وابتلاع الحوت له، ليتحدّث عن اختباره الشخصي من الخوف من الموت. قال لوثر، "لن تدرك ما إختبر يونان النبي من غضب الله عليه، إذا ما كنت مجرّد متفرّج على القصة. ولكن، إذا ما كنت مشتركًا في الحدث، عندها ستدرك ما معنى الخوف من الموت بسبب غضب الله عليك. كتب قائلا: "عندما رمي يونان في البحر، اعتقد أنه انتهى كليّا جسدًا ونفسًا. يذكر النص، قول يونان: "لأنك طرحتني في العمق في قلب البحار، فأحاط بي نهر. جازت فوقي، جميع تياراتك ولججك، فقلت قد طردت من أمام عينيك" (يونان 2: 3-4). علّق قائلا: "هذه الكلمات ليست كلمات فارغة، لكن لا يستطيع أن يفهمها، إلاّ الذي مرّ في هذا النوع من اختبار الخوف من الموت الصعب، لأنه سيشعر، أن الله ضدّه، وضميره أيضا ضدّه". وأضاف، "من المستحيل أن تتصرّف الطبيعة البشرية بشكل معاكس لما تشعر به. فلا يمكنها إخضاع هذه المشاعر الصعبة، وتعبيد الطريق أمامها الى الله، ولا تستطيع أن تصلّي الى الله، في الوقت الذي تشعر أنه ضدها وتعتبره عدوًا لها. قال لوثر، "أثناء الرعب والخوف من الموت، يشعر الانسان على انه محروم بشكل كامل من أيّ عون داخلي أو خارجي، فيصرخ من أجل خلاصه".

طلب لوثر من سامعيه أن يتأمّلوا ويتصّوروا موتهم، كي يستجمعوا مشاعر الخوف من الموت. قال لهم: "تذوّقوا الموت كما لو كان موجودًا، لتروا كيف ستشعرون في ساعة موتكم". قدّم مثلا، عن تذوّق الخوف من الموت وتدخّل الله، من اختبار يونان الذي توقّع موته الحتمي، ليظهر كيف أن الله يتعامل مع أولاده في حالات مماثلة، وينقذهم. يخبرنا الكتاب المقدس، أنه عندما غضب الله من يونان، لأنه تمرّد عليه ورفض سماع وصيته، بأن يذهب الى نينوى وينادي بالتوبة، فإنه هرب من وجهه وركب سفينة الى ترشيش. ثم طلب من الملاحين أن يرموه الى البحر، ليهدأ النوء العظيم الذي حدث بسببه. وعندما رموه ابتلعه الحوت. وصف لوثر المشهد المخيف، قائلا: "يبدو أن غضب الله لا يهدأ بالموت والعقاب، وكأنه لا يستطيع أن ينتقم بشكل كافٍ من يونان. كم كان المشهد مرعبًا ليونان المسكين، لا سيما عندما فتح الحوت فاه الواسع، وشاهد يونان أسنانه الكبيرة الحادة، كالأعمدة الحادة. وهكذا دخل من بوابة فمّ الحوت، الى جوفه". أضاف لوثر، "حتى هذه النقطة، كان لا يزال يونان يتصارع فقط مع أفكار الموت الى أن أتاه فكر تدخّل الله في ذلك الوقت الصعب". تكلّم لوثر بلسان يونان قائلا: "فقط عندما طرحت في عمق الموت. عندما بدا الأمل في مرحلته النهائية، وبان أن هناك استحالة كاملة لي أن أعيش، ظهرت يا الله في المشهد. قدرتك ومعجزتك، قادت طريقي بعيدًا عن الموت". علّق لوثر قائلا: "فقط في مثل هذه الحالات النفسية الصعبة، يعمل الله كيما يفدينا ويخلّصنا من خوفنا. ينقطع الحبل، عندما يكون في أشدّ حالاته انشدادًا". قال، "كان على يونان أن يطرح نفسه بين أحضان رحمة الله، بينما كان مرعوبًا يواجه غضبه". حول اختبار يونان في انقاذ الله له، بقذفه الى البرّ قال لوثر، "يمنح الله الانسان المؤمن، أولاً النعمة والروح لكي ينعش قلبه، ويذكّره بمراحمه ويطرد منه الأفكار التي تلامس غضب الله. ومن ثمّ يوجّه قلبه من الله الغاضب الديّان، الى الله الأب الرحوم". توقف لوثر ليقول: "هذا كله ليس عمل الانسان، بل عمل الله وحده، لأن يونان قال، "حين أعّيت فيّ نفسي، ذكرت الرب فجاءت اليك صلاتي، الى هيكل قدسك" (يونان2: 7). فعندما أعيت نفسه فيه، ظهرت قوة الله. وبالتالي، فقط الروح القدس وليس شيء آخر، يجعلنا نذكر الرب ونفكّر فيه" لا سيما أوقات الشدة والضيق وخطر الموت".

قال لوثر، "يطل علينا الموت من كل زاوية، وقد قسم بأن ينال من كل منّا. إبليس هو سيّد ومسبّب الموت، الذي يسعى وراءنا لاصطيادنا". وأضاف: "الخوف من الموت، موت بحدّ ذاته، ولا شيء غيره... لكن من تغلّب على الموت في قلبه، لا يعود يخاف من الموت". اعتقد لوثر، أن المسيحي ليس بدون استعداد، لمواجهة الموت الجسدي الحتمي. لهذا، عليه أن يتّجه دائمًا نحو مراحم الله لا سيما وسط بؤسه وآلامه واضطراباته. وعليه أن يتعلّم أن يجد عزاءه الدائم في ايمانه بالله وغفران الله له. وجد في مفهوم سرّالمعمودية، فرصة للاستعداد للموت والقيامة. ونظر الى كل الحياة المسيحية، على أنها امتداد لمفهوم المعمودية. قال، "ليست هذه الحياة، سوى معمودية روحية، لا تتوقف الا عند الموت". نظر لوثر الى الموت، نظرة ايجابية، على أنه لا ينهي فقط أوجاع وآلام الانسان، وإنما ينهي أيضا الرذائل والآثام وشرور الحياة التي تحيط بنا من كل صوب وناحية. ان نظرة لوثر هذه الى الموت، ودعوته للتخلّص من الموت بالايمان وحده، تجلب تعزية كبيرة للضمائر المنكوبة والنفوس المضطربة التي تعيش بخوف ورعب من الموت، ليجدوا سلامهم وعزاءهم في بالمسيح. آمن لوثر، أنه بالرغم من صعوبة الموت، الاّ أنه في الوقت نفسه، يؤمّن الموت الاثنين: النصرة النهائية، والهزيمة النهائية لإبليس. قال، " لن يستفيد ابليس كثيرًا من موت الأتقياء، بل سيكون وكأنه كسر جوزة فارغة لا ثمرة فيها.

عظة "فن الموت"

عايش مارتن لوثر، وباء الطاعون ثلاث مرات خلال حياته. في سياق أدبيات "التحضير للموت الجيّد"، كتب لوثر عام 1519 كتيبا من ثماني صفحات، بعنوان "فنّ الموت"، انطلاقا من عقيدة الاصلاح الأساسية، "التبرير بالنعمة وحدها بواسطة الايمان وحد"ه. وضع لوثر ايمان الانسان وحده، الضمانة في تحديد مستقبله الأبدي. أسرع الناس لشراء كتيّبه وقراءته. أصدر منه ستا وعشرين طبعة في ست سنوات. كما كتب، أربع عشرة تعزية روحية لتشجيع المرضى. أرسل العديد من الرسائل الرعوية الى الحزانى، داعيا اياهم الى التعلّق بالمسيح المعزّي، والتمسّك بالايمان، وقراءة الكتاب المقدس. يذكر المؤرخ مارتن برخت، "كان على لاهوت مارتن لوثر الاصلاحي، أن ينجح أمام امتحان تهدئة خوف الناس من الموت في اللحظات الاخيرة من حياتهم، وذلك من خلال اعدادهم روحيًا جيدا وتوجيههم نحو الله".

طلب حاكم منطقة سكسوني من لوثر، ارسال بعض كلمات التشجيع الى أحد مستشاريه، مارك شان، الذي كان مريضا ومضطربًا جدا بأفكار الموت، فكتب عظة طويلة بعنوان، "فن الموت"، وجّهها الى كل انسان مضطرب بأفكار الموت، ليعدّ نفسه روحيًا للموت. اعتبرت عظة لوثر هذه، إحدى مساهماته في أدبيات المرحلة التي تشهد انتشار وباء الطاعون، لتتحوّل الى ارشاداته الروحية حول، التحضير والاستعداد الجيّد للموت. دعا لوثر، مارك شان مستشار الحاكم الى تعديل أسلوب تفكيره، واعداد نفسه لملاقاة الله. أكّد أن أفكار الموت والخطية والدينونة والجحيم، مرعبة جدًا. طلب من المستشار، ومن كل مضطرب، أن يحوّل أنظاره وأفكاره، من واقعية الحاضر الأليم المليء بالموت، ليشخص الى شخص يسوع السماوي. دعاه للتخلّص من التقاليد والممارسات الكنسية والخرافات غير الكتابية التي انتشرت آنذاك، منها: ممارسة التماس مساعدة أربعة عشر قديسًا؛ داعيا اياه أن يفكّر في مفهوم شركة القديسين الأوسع التي تؤمن به الكنيسة، كيما يتّحد معهم بالايمان. قال له، "يجاهد إبليس وملائكته بشدة، كي يبعدوا المريض الذي في طريقه الى الموت، عن اليقين الالهي، لكن إذا لم يسمح المريض لمشاعر الذنب والكآبة والحزن الشديد، أن تتحكّم به، فإنه وبمعونة يسوع المصلوب وشركة القديسين، سيكون خلاصه مؤكّدًا.

أطلق، على مشاعر اليأس والاحباط والخوف الشديد، اسم "أسلحة الموت". قال: "أسلحة الموت هذه، تجعلنا فريسة للقلق والاضطراب، أكثر من أي عدو شخصي". دعا المضطربين بأفكار الموت، الى الايمان بوعود المسيح التي أعلنها في الكتاب المقدس، وأن يحتضنوا الفوائد الروحية التي تحملها. والى التذكّر أن المسيح يسوع لم يواجه فقط الموت، لكنه أيضا انتصر عليه وأعطانا الحياة والخلود، حتى بمثاله نتعلم كيفية مواجهة الآلام والموت. ذكّر مستشار الحاكم بكلمات المسيح القائلة: "لا تضطرب قلوبكم ولا ترهب. آمنوا بالله وآمنوا بي" (يوحنا14). مع تشديد لوثر الكبير على أهمية، الايمان الشخصي بالمسيح. فانه أيضا ذكّر المستشار، بأهمية تناول العشاء الرباني عند دنو الموت، (بخلاف جان كلفن، الذي لم يعتقد انه على القسيس أن يحمل عنصري الخبز والخمر، ويذهب الى المستشفيات وبيوت المرضى لاشراكهم بالعشاء الرباني، بل اعتبر أن العشاء الرباني، هو خدمة تجري في الكنيسة فقط وليس خارجها، ويشارك فيها جماعة الايمان)، وذلك لا لمعنى السرّ بحدّ ذاته أو فعّاليته، وانما للوعود المرافقة التي وعدها المسيح، عن تذكّر موته والمشاركة في موته وقيامته، وللتعزية الكبيرة التي تقدمها. اعتقد لوثر، أن عنصري الخبز والخمر، هما علامة مرئية، تستمد قوتها من وعود المسيح، التي تهدىء من اضطراب ضمائرنا وقلوبنا. أيضا دعاه لوثر لكي يطلب من خادم الكنيسة أن يمسحه بسرّ مسحة المرضى. (في ذلك الوقت الباكر من الاصلاح، كان لا يزال لوثر يؤمن بسر مسحة المرضى، التي تغفر الخطايا بحسب معتقد الكنيسة. الاّ أنه بعد حوالي السنة، أقلع عن هذا الايمان، وآمن ليس بأسرار الكنيسة السبعة، وانما فقط بسرّي: المعمودية، والعشاء الرباني). ختم لوثر عظته بالقول: "يجدر بنا أن نشكر الله بقلوب فرحة، لإظهار رحمته ونعمته المذهلة، التي بها انتصر على الجحيم والموت". دعا كل المضطربين الى تمجيد نعمة الله، التي ظهرت في المسيح والتمسك بها لمواجهة الموت بطمأنينة.

رسائل لوثر لتعزية الحزانى

يذكر الكاتب، ثيودور تابرت، "أن مشاعر قرب الموت، لعبت دورًا كبيرًا في حياة مارتن لوثر"، وذلك لكثرة أعداد الذين يموتون في عمر مبكر بسبب المرض والأوبئة. كان لوثر قد قدّم نذرا لله، أنه اذا ما تعرّض لحادث قاتل ونجا منه، فإنه سيدخل الدير ويكرّس حياته لله. وهذا ما نفّذه عندما وقعت صاعقة بقربه في طريقه الى الجامعة، أشعره الحادث بقرب الموت منه. نتيجة للحادث وفى بنذره، ودخل الدير ليصبح راهبًا أوغسطينيًا. عند اكتشافه لعقيدة "التبرير بالنعمة وحدها، بواسطة الايمان وحده"، أجرت تلك العقيدة تغييرا كبيرا في منهجه اللاهوتي وفي كل نظرته للحياة والموت، وكل شيء آخر. أعادت تلك العقيدة الأساسية تشكيل حياته وأولوياته، فرفض كل شيء لا ينسجم مع توجّهه اللاهوتي الجديد. مرّ لوثر، في أوقات شعر فيها بأن الله نسيه كليًا وهجره للجحيم. اختبر شكوكًا مدمّرة لأكثر من أسبوع. عندما كان يقوم بحملته لاصلاح الكنيسة ، كتب قائلاً، "أشعر أني قريب من أبواب الموت والجحيم. إرتعبت. اضطربت كل أعضاء جسدي. هزّني اليأس، وغمرتني كوابيسه. شعرت بالتعرّق، وبتسرّع في دقات قلبي. شعرت أني أخسر يسوع بشكل كلّي". الاّ أنه، وسط ذلك الوقت الصعب، لحّن مزمور الاصلاح الانجيلي،"الله ملجأ لنا وقوة على الدوام. لذاك لا أخشى ولو تزلزلت الارض، وانقلبت الجبال الى قلب البحار"(مزمور 46 : 1-2). لعبت الموسيقى، لا سيما عندما اندمجت مع نصوص من الكتاب المقدس، دورًا كبيرًا في تقديم الشفاء الروحي لنفسه، واعادة السكون الى حياته. كان يصلّي في أوقات الشدة والضيق الصلاة الربانية ثماني مرّات يوميا. كان يشعر بأن عليه أن يلجأ دائمًا الى الله. قال: "عندما تصيبنا الاضطرابات، يستخدمها ابليس ليبعدنا عن الله، ويقول لنا: أنظروا كيف أن الله يرميكم في هذا السجن، ويعرّض حياتكم للخطر. فهو

يكرهكم، وغاضب منكم. لأنه لو لم يكرهكم، لما كان سمح بحدوث ما حدث معكم. فابليس بهذه الطريقة، يحوّل عصا الأب الى حبل مشنقة، والعلاج الشافي الى سمّ مميت". تابع لوثر قائلا، "إبليس سيّد غير معقول. يختلق أفكارًا من طبيعته. لهذا، من الصعب جدًا علينا أن نفرّق، في أوقات الشدة والاضطراب، بين الذي يقتل والذي يؤدب". دعا لوثر الحزانى، ليجدوا عزاءهم في المسيح. ساعدهم لاعادة تشكيل وجهات نظرهم واعادة ترتيب أولوياتهم وسط ظروف الحياة الصعبة، لتتمحور حول الانجيل. قال لأناس يتألمون: "هل رأيتم قلب المسيح الذي كان معلّقًا على الصليب، كيف كان يتألّم لأجلنا ليجعل الموت حقيرًا ومائتًا؟ ان محبة المسيح المضحّية هذه، تشقّ طريقها الى قلوبنا وتنقش في عمق مشاعر أذهاننا. فآلام يسوع المسيح القدوس، قدّست آلامنا. لمسته، باركت اللعنة، ومجّدت العار، وأغنت الفقر، كيما يصبح الموت: بابًا للحياة، واللعنة ينبوع بركة، والذلّ أم المجد. لقد تغلّب يسوع على الألم بدم جسده الذكي، فجعله مقدّسًا، غير مؤذٍ، ومباركًا لأجلكم. فليس هناك شيء، لا تعطيه آلامه وموته حلاوة، وحتى الموت نفسه".

اختبر لوثر الألم والحزن، عندما مات والده ووالدته واثنان من أولاده الستة. عندما مات والده، كتب لشريكه في الاصلاح فيليب ميلنكثون قائلا، "سبّب موت والدي، حزنًا كبيرًا وجرحًا عميقًا في قلبي. لم اعتقد أن الموت هو بهذه القساوة". قال، "الموت يحزن جدا. فالذين يستطيعون مواجهة الموت بمشاعر باردة، هم الوثنيون لأنهم لا يهتمّون كثيرًا لله والحياة العتيدة". عندما كانت والدته مريضة جدًا، على وشك الموت، كتب لها قائلاً: "حبيبتي وعزيزتي والدتي. تلقيّت رسالة أخي حول مرضك الشديد، الأمر الذي سبّب لي حزنًا شديدًا، لا سيما أنني لا أستطيع أن أكون الى جانبك وأحضر اليك". وعند موت ابنته مجدلية، عن عمر أربع عشرة سنة، رافقه الحزن عليها عددا من السنين. بعد ثلاث سنوات على موتها، كتب لصديقه الذي خسر ابنه قائلا، "أعلم من اختباري الأليم لفقدان ابنتي، كم هو ألمك وحزنك كبير بخسارتك لإبنك. ربما يبدو غريبًا، أنه بعد ثلاث سنوات على موتها لا أزال غير قادر على نسيانها". اعتراه شعور ممتزج من الاضطراب والايمان. تعجّب لوثر كيف استطاع أن يكون مضطربًا في جسده، وبنفس الوقت شاكرًا في روحه. لم يكن لوثر يخاف من الموت. كان يردّد دائمًا، عندما كان يُصاب بالمرض، أنه يضع حياته بين يديّ الله، لكن همّه الأساسي كان، حاجة أولاده الصغار إليه، ومسألة من يعتني بعائلته من بعده . اعتقد لوثر، أن طبيعتنا البشرية الساقطة تخذلنا في وقت الحزن، لأنها تتذمّر ممّا تمرّ به، وتتطلّع الى الحزن والفقدان، من عدسات ضعفها وفهمها الناقص.

في أحاديثه مع طلابه حول المائدة، كان يحدّث لوثر تلاميذه بأمور الحياة، وكانوا يسجّلون أحاديثه. وبعد موته جمعت ووضعت في كتاب أطلق عليه "أحاديث المائدة". من الامور التي ذكرها لوثر، "أنّ قاضيا في ويتنبرغ اسمه هيرفينغ غود، لم يعتقد أنه كان على وشك الموت. كما اعتقد أن الطقوس الاخيرة للاستعداد للموت غير ضرورية، لكنه مات بعد سنتين. لهذا، يجب انذار الناس أنهم يجب أن يستعدّوا جيدًا لموتهم، لأنه علينا أن نترك عالمنا باستعداد روحي". اعتقد لوثر، أن الذين يستسلمون للانتحار والقتل هم مذنبون، لأنهم لم يعدّوا انفسهم للقاء الله. كان دائمًا يشجّع الناس المتألمين بالقول، "إعداد أنفسنا للموت عبر تحضير أذهاننا وقلوبنا بشكل روحي، يمنحنا حالة من الراحة والاطمئنان عندما نتواجه في ظروف صعبة تؤدي بنا الى الموت". إعتقد لوثر، أن تقبّل المؤمن لفكرة موته، هو دليل على علاقة المؤمن المطمئنّة مع الله. عندما كانت عمّة زوجته على فراش الموت، قال لها، "ليكن ايمانك مؤسّسًا على شخص يسوع المسيح الذي هو القيامة والحياة، ولن يعوزك شيء. بهذا الايمان لن تموتي، بل ترقدين كطفل صغير في سريره، الى أن ينبلج نور الصباح وتقومين لتعيشي معه الى الابد". نصح المسيحيين المتألّمين أن يكونوا شجعانا. دعاهم للفرح مهما قست عليهم ظروف الحياة. ركّز على محورية المسيح في تعزيتنا. قال، لأحد المتألمين:

"من غير المسيح يستطيع أن يلطّف من أحزانك؟". آمن لوثر بسيادة الله، في كل ما يحصل معنا في الحياة، لأن كل ما يحصل، ليس صدفة وانما بناء لمعرفة الله وتحكّمه في عالمه. آمن أنه في نهاية الامر، يؤكد الموت على سيادة الله، وهو فرصة لنا لنفكّر قبل كل شيء في قوة الله التي تحفظنا، إن كنا أحياء أم أمواتا، لأنه كما يقول الرسول بولس، "إن عشنا، وإن متنا فللرب نحن"(رومية 14: 8). صرّح لوثر قائلا: "هذا هو الموت الجيد. أن يدعو الذي يواجه الموت، المسيح وحده ويسلّم ارادته بشكل كلّي له. وهذا مدعاة شكر لله على هذه النهاية المباركة التي يؤكّد فيها الانسان المؤمن عن ثقته بارادة الله. في كتابه "الكنز الأعلى من كل الكنوز: مارتن لوثر حول الموت بطريقة جيدة"، يذكر الكاتب، ماثيو هايت، مساهمة لوثر الكبيرة في أدبيات استعداد الانسان للموت.

كتب الكاتب، نيل لاروس، كتابا بعنوان "مارتن لوثر المعزّي: كتابات عن الموت" سلّط فيه الضوء على لوثر الراعي الذي يعرف جيدًا كيف يعزّي الناس في أحزانهم وخساراتهم لأحبائهم. من الأفكار الرئيسية التي يذكرها لوثر في رسائله الرعوية، أذكر ما يلي: أولا، الله الذي يعلم أكثر منّا، قد أخذ فقيدنا اليه. ثانيا، موت أمين افضل من حياة بائسة. ثالثا، لقد خلقنا الله مخلوقات تشعر وتحب، لهذا من الطبيعي أن نشعر بالحزن والفقدان. رابعا، لا يزال الله محور العالم إن كان في الحياة أو في الموت. خامسا، يجب أن نحافظ على الاعتدال في الحزن. سادسا، أفضل المعزّين هم: الله، المسيح، والكتاب المقدس. كان لوثر يستند دائمًا الى أسس ومراجع كتابية ليسند عليها تعزياته. قال، "لا يستطيع من يفقد حبيبا له، أن يرى إلهًا محبًا في أوقات الحزن والألم، إلاّ من خلال الايمان. وأضاف، "من الأسهل لنا أن نتأكّد من وجود أحبائنا عندما نراهم ونسمعهم ونلمسهم، لكن في حالة فقدانهم، فاننا لا نستطيع أن نرى ارادة الله، كما نرى أحباءنا الذين انتقلوا الى جوار المسيح، الاّ أننا نقبل ما يحدث بالايمان، لأننا بالايمان نسلك لا بالعيان". شجّع لوثر المتألمين، على تقبّل خسارتهم لأحبائهم، انطلاقا من لاهوت الصليب الذي يتمحور، ليس فقط على آلام المسيح، وإنما أيضًا على آلام الانسان المسيحي، بانتظار القيامة. بالرغم من الميل الانساني أن نتّهم الله بالتسبّب بالشر والألم والموت، لم يرد لوثر، أن يرى الحزانى أن الله هو خصم لهم ، بل منخرط معهم في حزنهم، ومرافق لهم في مأساتهم، لكي يختبروا نوعًا من التعزية. دعا الحزانى الى مراقبة حزنهم، لكي لا يبتلعوا من شدة اليأس، ويخسروا الرجاء الذي منحه المسيح بقيامته من الموت. قال لهم: "اعلموا أن رحمة الله، أقوى من مأساتكم". خاطبهم بكلمات المسيح قائلا، "لا تضطرب قلوبكم ولا ترهب. أنتم تؤمنون بالله، فآمنوا بي" (يوحنا14: 1).

استخدم لوثر بعض الاوقات، تعابير تتميّز بالمبالغة للتعاطف بقوة مع الانسان المحزون، وبنفس الوقت لايصال فكرته بوضوح. عندما توفّت زوجة أمبروس برندت، الذي كان تلميذًا له في جامعة ويتنبرغ، أثناء ولادة طفلهما، دخل أمبروس في حزن شديد، حتى كان قريبا من حافة اليأس. أرسل له رسالة، مظهرا تعاطفه الشديد معه، قال فيها: "أفهم جيدًا كم هو فقدانك كبير. إني لست بلا انسانية لكي لا أشعر معك. حزنك وألمك، مؤسسان على عاطفتك المقدّسة التي تربط الزوج بزوجته". وصف حزن أمبروس الشديد على زوجته ومولوده، أنه يضاهي الألم والموت بذاته. قال، "هذا الحزن الشديد، هو بمثابة أن يدفن الانسان نفسه في القبر وينزل الى الجحيم. ليس هناك حزن، يمكن أن يصيب أبا، أقسى من هذا الحزن. انها مشاعر قويّة جدًا ليس من السهل زعزعتها". اعتقد لوثر، أن البكاء بحدّ ذاته أمر معزّ يريح الحزين، لكن يجب ألاّ يكون بإفراط، لأن الحزن المفرط يمنع الحزين من الوصول الى مرحلة قبول خسارته. طلب لوثر منه أن يراقب حزنه لكي لا يبتلع فيه، ويتحوّل معارضًا لإرادة الله. ذكّره، كم كانت زوجته أمينة لدعوتها وواجباتها العائلية حتى الرمق الأخير من حياتها، اذ كانت تقوم بواجباتها العائلية بكل

تقوى ونقاوة وايمان ثابت بالمسيح. قال له، "عندما شعرت زوجتك باقترابها من الموت، صلّت مرارًا وتكرارًا وسلّمت نفسها لإرادة الله الصالحة". وأضاف، "إذا ما قارنت بين الهبات الروحية والهبات المادية، فإن الهبات الروحية هي أعظم. إن اهتمامنا فقط بالهبات المادية، يدمّر قدرتنا على رؤية هبات الله الروحية في حياتنا". دعاه الى التفكير بهبات الله الروحية التي تمتّعت بها زوجته، قائلا له: "إشغل فكرك في تلك الهبات الروحية التي امتلكتها زوجتك، تحكّم بحزنك من خلال كلمة الله التي تقدّم العزاء الكامل. ولنصلّ لكي يمسح الله دموعنا جميعًا بالايمان"..

كتب رسالة الى شخص باسم، كورداتس خسر ابنه، قائلا له، "ليمنحك الله العزاء وأنت تمرّ في هذا الألم والحزن الشديد. وأضاف " كم نشعر بالألم الشديد، عندما يستعيد الله ما أعطانا اياه، لكن ارادته الصالحة هي أعظم وسيلة لتعزيتنا. من يمكنه أن يلطّف ويخفّف من حزنك الشديد هذا، غير المسيح؟ تحدّث عن اختباره الشخصي في ألم الفقدان، قائلا "لقد مررت أنا أيضًا بهذا الاختبار الأليم الذي يشعر فيه الأب عندما خسرت ابنتي. إنه ألم يقطّع القلب، أكثر من سيف ذي حدّين". طلب من كورداتس، أن يعطي لله ما كان له أصلا بفرح، لأن الله الذي أعطى، له الحق أن يأخذ ما هو أعطاه.

بعد أن توفّت زوجة برثولوميو ستاريمبادك، وكان في حزن شديد. نصحه لوثر، أن يتّخذ موقف النبي يعقوب الذي قال بعدما خسر عائلته: "الرب أعطى والرب. أخذ فليكن اسم الله مباركًا"(أيوب1: 21). قال له، "لقد أعطاك الله زوجتك وأخذها، فليكن موقفك الرب أعطى والرب أخذ، فليكن اسم الرب مباركا الى الأبد".

كتب لرجل خسر زوجته مارغريت، قائلا: "أدرك جيدًا مدى ألمك، بخسارتك لزوجتك مارغريت. ان حزنك وعاطفة المحبة فيك، مصدرها الله الذي يربط زوجًا بزوجته برباط قوي جدًا. فهذه المشاعر الصادقة، ليست غير مرضية أمام الله. إنها تعبير يقيني عمّا زرعه الله بكما. ولن أعتبرك زوجًا صالحًا، ما لم تظهر حزنك وخسارتك بهذه المشاعر العميقة". واذ كان يقيم لروحها سهرات صلوات يومية حتى نصف الليل، نصحه أن يتقبّل خسارته، ويتوقّف عن تلك الممارسات وترداد كلمات لا فائدة منها، معتبرا اياها غير مسيحية. دعاه الى قراءة الكتاب المقدس، ونصحه أن يسلّم زوجته الى يديّ الله المحبّة".

كان لوثر مدركًا أن الافراط في الحزن، يمكن أن يدفع الانسان باتجاهين معاكسين: امّا الغضب من الله والتخلّي عنه، أو الالتجاء الى الله وايجاد العزاء به. في حديثه مع تلاميذه حول المائدة، قال لهم، "الله يكره ويحب عاطفتنا في آن واحد: يحبّها، عندما تدفعنا الى الصلاة. ويكرهها، عندما تدفعنا الى اليأس. لهذا، يجب على الحزانى أن يحرصوا لكي لا تدفعهم عاطفتهم الى اليأس، لأن هذا يظهر فقدانهم للثقة بالله". كتب الى أوزيندر الذي فقد ابنه، قائلا له: "من الطبيعي جدًا أن نحزن على أولادنا، لأن الله لم يخلقنا كالحجارة دون مشاعر. فإن ارادته، أن نحزن ونبكي على أمواتنا، وانما باعتدال وضمن حدود، وإلاّ سوف نبدو وكأن لا محبة لنا. فمحبتنا لأفراد عائلتنا، هو جزء من طبيعة خلق الله لنا". قارن لوثر، حزن أوزياندر الشديد على فقدانه ابنه، بتقديم ابراهيم ابنه اسحق، ذبيحة محرقة لله. قال له، "يجب أن تقدّم إسحاقك (حزنك على ابنك) كذبيحة محرقة ورائحة عطرة الى الله، لأن الافراط في الحزن يؤثّر على علاقتك مع الله". حثّ لوثر الحزانى، كي يرفعوا عيونهم الى العلاء ويعيشوا بانتظار فرح لقاء أحبائهم في السماء. شدّد على ضرورة اعتدال الحزانى في حزنهم، ويرفعون الشكر لله لأن أحباءهم ينتظرونهم في السماء.

ان ميزة لوثر، أنه انطلق من العقيدة الى الممارسة وليس العكس. لم يفصل بين الألم وسيادة الله. ادرك جيدًا خطورة الألم الشديد الذي قد يقود الانسان الى امكانية رفض الشكران، الأمر الذي قد يؤدي في

النهاية، الى الانفصال عن الله. شدّد على ضرورة ارتمائنا في حضن الله المريح وسط آلامنا. طلب من الحزانى أن ينظروا الى واقع خسارتهم المرير بعدسات مختلفة. قال لهم، "الايمان يدعوكم الى التمسّك بما بقي معكم، وليس بما فقدتموه. الايمان يؤهل المتألّم والمتصارع مع حزنه، أن يتحوّل تدريجيًا ليشابه صورة المسيح". كان لوثر يتطلّع دائمًا الى ما وراء الحزن والألم، الى وقت التعزية. شدّد على الايمان الأصيل لأنه وحده يستطيع أن يميّز بين ما هو وقتي وزائل، وبين ما هو أبدي ودائم. ان السؤال الجوهري الذي يطرحه لوثر في رسائله الرعوية، هو: هل أنّ ايماننا أصيل وحقيقي يمكّننا من البقاء متماسكين وقت المصائب والآلام؟

لحظات كلفن الأخيرة على فراش الموت

لم يمت جان كلفن، من جرّاء مرض الطاعون، بالرغم من أنه أكمل خدمته وسط انتشاره، لكن كان لديه الكثير من الآلام والأمراض. كان لديه أوجاع في المعدة، بحص في المرارة، نزيف دمّ داخلي، ماليريا، وغيرها. في تفسيره لتعريف كاتب الرسالة إلى العبرانيين للإيمان: "وأما الإيمان فهو الثقة بما يرجى، والإيقان بأمور لا ترى" (عبرانيين11: 1)، قال كلفن: "نحن موعودون بالحياة الأبدية. لكن هذا الوعد هو للأموات. أخبرنا المسيح عن القيامة المباركة، لكننا لا نزال نعيش في الفساد. أعلن لنا الله، أننا أصبحنا أبرارًا في النعمة، لكن الخطية لا تزال تسكن فينا. نسمع أننا مباركون، لكننا لا نزال منهمكين بمآسي الحياة التي تفاجئنا. وعدنا الله أنه سيأتي إلينا، لكن يبدو أنه أصمٌ لصُراخنا. لكن لكل هذه الأسباب، يعرّف كاتب العبرانيين عن حق، أن جوهر الإيمان، هو الايقان بأمور لا تُرى". قال كلفن: "القلب النقي يختبر إنقسامًا وتشتّتًا في داخله، إذ هو أحيانًا يبتهج بإدراكه لصلاح الله، وأحيانًا أخرى يشعر بالحزن بسبب الآلام التي تصيبه. أحيانًا يضطرب من فساد طبيعته وأحيانًا يعتمد على وعد الإنجيل. أحيانًا يشعر بالخوف من الموت. الاّ أنّ قوة الإيمان تنتصر في النهاية على هذا الإنقسام الداخلي".

عندما تدهورت حالة كلفن الصحية كثيرًا وخارت قواه، توسّل إليه أصدقاؤه أن يقلّل من عمله ولا يرهق نفسه. فأجابهم، "هل تريدون أنه عندما يأتي الرب يجدني عاطلاً عن العمل". طلب إلى الله أن يبقي عقله سليمًا، حى نهاية حياته حتى يستطيع أن يعمل من فراشه. فكان يقرأ، وآخر يكتب كلماته. في نيسان من العام 1564، صلّى الى الله، قائلا: "أقدّم الشكر لله الذي رحمني وخلقني وأوجدني في هذا العالم، وخلّصني من ظلام الوثنية الشديد الذي غرقت فيه، كيما يخرجني إلى نور الإنجيل ويجعلني شريكًا في الخلاص الذي كنت من أقلّ الناس إستحقاقًا له. لقد تحمّل الله ضعفاتي وخطاياي التي لا تؤهلّني إلاّ للدينونة. إلاّ أنه رحمني بلطفه واستخدمني في الوعظ، ونشر حقّ الإنجيل. حاولت في عظاتي وكتاباتي، أن أعظ بكلمة الله بنقاء، وأنشر كلمته المقدّسة. ليس لديّ أي صلاح يشفع فيّ. ليس لديّ أيُ ملجأ ألجأ إليه، ما عدا تبنّيه المجاني لي لأكون ابنه. هذا هو الأمر الوحيد الذي أستند عليه بكليّتي، وأنا أعانق رحمته من خلال فداء المسيح وغفرانه لخطاياي وجرائمي، وازالتها من ذاكرته، لأني لست سوى خاطىء بائس. فاني، أستظلّ في ظلّ جناحيه، وأقف أمامه في كرسي الدينونة، معتمدًا على وسع رحمته وخلاصه الذي أظهره لي في المسيح. أما بالنسبة لما تبقّى من أيام حياتي فإني أرغب أنه بعد إنطلاقي في هذه الحياة أن يودع جسدي التراب بانتظار يوم القيامة السعيد). وعندما ساءت حالته أكثر، قال : "إني بصعوبة أتنفّس وفي أية لحظة أتوقّع أن ألفظ أنفاسي الأخيرة، لكن يكفي أني أعيش، وأموت للمسيح". سمعه المصلح ثيودور بيزا، خليفته في رعاية كنيسة جنيف، يقول: "سكتّ يا رب، لأن هذا ما أنت أردت. إسحقني يا رب، ويكفيني أن

أعلم أنه من يدك". بعد ذلك رقد كلفن بسلام وهدوء، عند الساعة الثامنة مساءً في 27 أيار عام 1564. كان هناك رثاء عام في مدينة جينيف. دفن في مقبرة في موقع سرّي، لم يوضع اسمه على المقبرة، تنفيذًا لقناعاته التي عبّر عنها عند تعليقه سابقًا على موت ودفن النبي موسى، إذ كان قد قال: "من الجيد أن أناسًا معروفين يدفنون في مقابر، لا توضع أسماؤهم عليها". رفض أن يذكر اسمه لأنه قال، "ربما يأتي الناس ويجعلون من قبري مزاراً دينيًا لهم". كان يرفض ذلك بشكل قطعي. كتب كلفن حكمته عن الرحيل من هذا العالم، فقال: "من الممكن أن نترك هذه الحياة، ونحن نعاني من الضيقات والأمراض والجوع والبرد والاحتقار والإساءات، وظروف غير موافقة، لكننا نرحل ولدينا اليقين، أن ملكنا لن يتركنا أبدًا. وأنه سوف يسدّ احتياجاتنا، الى أن ننتهي من معركتنا الروحية، وسوف يدعونا للنصر".

الفصل العاشر

نظرة المصلحين الى العجائب

النظرة الآبائية الى العجائب

كان المنحى العام لآباء الكنيسة، الإيمان باجراء الله للعجائب التي تخرق الإنتظام العادي لقوانين الطبيعة، لكن البعض منهم، أمثال: القديس أوغسطينوس، والقديس يوحنا فم الذهب، والقديس توما الأكويني، الذين بالرغم من عدم انكارهم للعجائب الالهية فوق الطبيعية، الاّ أنهم شدّدوا أكثر على رؤية عمل الله العجائبي، من خلال عمل الطبيعة المنتظم. ذكر القديس أوغسطينوس قائلا ،"حيث أن الله هو الخالق والمؤسس لكل الكون بقوانينه وأنظمته، فإنه لا يقوم بشيء مخالف للقوانين المنتظمة التي هو أسّسها". وأضاف: "حتى لا تسعى أذهاننا دائمًا نحو الأمور المرئية، فان على المسيحيين ألاّ يتعوّدوا على العجائب التي كانت تحدث زمن الرسل، كي يضرموا ايمانهم". يذكر القديس أوغسطينوس، أن العديد من العجائب حدثت على زمنه، وقد شهد بعضها. أما القديس يوحنا فم الذهب، فقد قال: " إذا ما مارس الانسان المسيحي الفضائل المسيحية، لا سيما المحبة، فإنه لن يحتاج الى العجائب. ولن تقدّم العجائب شيئًا للمسيحي، الذي تغيب الفضيلة عن حياته"، مقتبسا قول التلميذ توما: "طوبى للذين آمنوا، ولم يروا" (يوحنا20: 20). في عمله "مختصر اللاهوت"، فصل لاهوت العجائب، قال القديس توما الأكويني: "كما أن نظام العدالة ينبع من الله، هكذا أيضا نظام الطبيعة. فاذا ما تجاوز الله نظام العدالة، يظهر وكأنه يقوم بشيء، ضد نفسه وارادته وعلمه المسبق". هذا لا يعني أن القديسين، لم يؤمنوا أن الله يقوم بعجائب مخالفة للإنتظام الطبيعي، عندما يتعلق الأمر، بصلاة أو طلبة أو توسّل الى الله. لكن اعتقدوا أن عجائب الله ليست ظواهر منفصلة، بل تحدث في سياق روحي. وبالتالي، لم ينكر آباء الكنيسة، أن العجائب فوق الطبيعية لا تزال تحدث، وإنما ليس بنفس الوتيرة والكثرة التي كانت تحدث في الكنيسة الأولى. ذكر البابا فيكتور الثالث، الذي عاش في القرن الحادي عشر، أن الله القدير يظهر لنا عجائبه، ليس فقط في الأمور الكبيرة، وإنما أيضًا في الأمور الصغيرة، كيما يزيد إيماننا أكثر فأكثر، فنرفع الحمد والتسبيح لخالقنا. إنشغل آباء الكنيسة، في التمييز بين: العجائب الحقيقية، والعجائب الزائفة. عندما انتقد الفليسوف الوثني سيلسس في القرن الثاني، عجائب المسيح، قائلاً: "أنها لم تختلف عن العجائب التي أجراها السحرة". أجابه القديس أوريجانوس، في مقالته "ضد سيلسس"، قائلاً: "لم تكن من أهداف المسيح، المباهاة والتظاهر بالسلطة، بل ترافقت عجائبه مع تعاليمه. كان دورها، حثّ السامعين على التوبة وإصلاح الحياة".

تستند الروحانية الكاثوليكية كثيرًا على العجائب. تتحدث الكنيسة الكاثوليكية عن عجائب حدثت وتحدث. تعتقد الكنيسة، أن الله يستخدم وسائل ثانية، مثل: العجائب، الذخائر، شفاعات القديسين، الأسرار الكنسية، وغيرها ليظهر قوته. من متطلبات تطويب الكنيسة الكاثوليكية لقديس ما، صنعه أعجوبتين على الأقل. إرتبط موضوع، إجراء العجائب في الروحانية الكاثوليكية، بالقداسة الشخصية، اذ أنه كلما عاش الإنسان حياة أكثر قداسة، كلما إزدادت عجائبه أو كانت أكثر قدرة وفعّالية. من العجائب المعروفة في الكنيسة: أعجوبة حدثت مع القديس فرنسيس الأسيزي في القرن الثالث عشر. يقول القديس فرنسيس، "أن المسيح تكلّم معه من على الصليب، وطلب منه أن يصلح بيته الذي سقط وأصبح خرابًا". أيضًا، تذكر الكنيسة عجائب حدثت مع القديس أغناطيوس ليولا، مؤسس الرهبنة اليسوعية في القرن السادس عشر، اذ يذكر القديس ليولا، "أنه إختبر عددا من العجائب والرؤى الروحية، لعبت دورًا في نموه الروحي وقادته الى تطوير مفهوم "تمييز الأرواح". يستخدم ما كتبه، كدليل للتوجيه الروحي في الرياضات الروحية. تتحدث المؤرخة الأسترالية، ألكسندرا والشن، عن أهمية العجائب بالنسبة لليسوعيين وكم جذبت الناس الى الإيمان.

شكوك المصلحين في العجائب

تؤمن الكنيسة الكاثوليكية، أن العجائب تؤكد على عدم توقّف الله عن اهتمامه بشعبه وانخراطه في كنيسته. استندت التقوى الشعبية في القرون الوسطى الى حدّ بعيد على العجائب. انتشرت: مزارات القديسين، والصلبان العجائبية، والمياه المقدسة، والشموع المباركة، وغيرها. آمن الناس، أن هذه الممارسات التقوية، تزوّدهم بالحماية الروحية والجسدية. انزعج المفكّر الكاثوليكي الكبير، ديزيدروس إيراسموس، الذي كان يعمل على اصلاح الكنيسة من الداخل، من كثرة العجائب المسجّلة في المزارات والأماكن المقدسة. فضل دائما اتبّاع العقل على ما أسماه الخرافات الكنسية. في خطابه المشهور، "رحلة حج من أجل الإيمان"، انتقد ايراسموس الناس الذين يتركون كنائسهم لأشهر بل لسنين، ويذهبون الى أماكن بعيدة باحثين عن عجائب في الأماكن المقدسة لشفاء مرضاهم وحصول على مساعدة القديسين. ذكر في رسالة أرسلها الى أسقف انكليزي عام 1528، قائلا: "الايمان المسيحي في هذه الأيام لا يتطلب عجائب. أنت تعلم، كم هناك من القصص الكاذبة التي يختلقها بعض الناس المهرة الملتوين". عندما قام بعض الانجيليين بتمزيق صور القديسين في مدينة بازل، علّق ايراسموس قائلا: "من الغريب أنه لم تقم أية صورة باجراء أعجوبة، كيما تنتقم لكرامتهم...كما أنه لم يحرّك ساكنا أي قديس، حيال ما جرى".

اعتقد المصلحون الانجيليون في القرن السادس عشر، أن العجائب تعكس لاهوت التبرير بالأعمال الى جانب الإيمان، لكنهم آمنوا بعقيدة التبرير بالايمان وحده". اعتقدوا أن الاعتماد على العجائب، هو بمثابة وضع الثقة، في غير مكانها. اعتقدوا أن السعي وراء القديسين لإجراء العجائب، يقلّل من قيمة الايمان بالله الكليّ القدرة. علّموا أن الإعتماد على غير الله تجديف، لأن الإيمان ينطلق من كلمة الله فقط. لم يكن مقياس المصلحين في تقييم تلك العجائب، الكنيسة بل الكتاب المقدس. أعلنوا بوضوح، أن إيمانهم وتعاليمهم غير مؤسسة على العجائب ولا تنبثق منها، إنما مؤسسة على كلمة الله ومنها تنبثق. ركّزوا على صدقية كلمة الله. وآمنوا، أنه من غير المقبول أن تعطى العجائب الأولوية، على كلمة الله. لم يخصّص المصلحون مواضيع منفصلة للتحدث عن موضوع العجائب، بل تطرّقوا إليها في وعظهم وتفسيراتهم، للعجائب المدوّنة في الكتاب المقدس. شكّكوا بصانعي العجائب، لأنه بدراستهم للكتاب المقدس، وجدوا أن السحرة أيضًا يجرون العجائب. قدّموا مثالا على ذلك، استقدام فرعون مصر سحرة، أجروا عجائب مماثلة لعجائب النبي موسى. يذكر النص: "فدعا فرعون أيضًا الحكماء والسحرة. ففعل عرّافو مصر أيضًا بسحرهم كذلك (مثل هرون). طرح كل واحد عصاه، فصارت العصي ثعابين" (خروج7: 10-11). اقتبس المصلحون، تحذير يسوع تلاميذه من أنبياء ومسحاء كذبة، قد يستخدمون عجائب لتضليل الناس، اذ قال: "حينئذ إن قال لكم أحدٌ، هوذا المسيح هنا أو هناك، فلا تصدّقوا، لأنه سيقوم مسحاء كذبة وأنبياء كذبة، ويعطون آيات عظيمة وعجائب، حتى يضلّوا لو أمكن المختارين أيضًا. ها أنا قد سبقت وأخبرتكم" (متى24: 24). اقتبسوا، تحذير الرسول بولس من العجائب الخادعة التي وراءها ابليس، اذ يقول: "وحينئذ سيستعلن الأثيم، الذي الرب يبيده، بنفخة فمه ويبطله بظهور مجيئه. الذي مجيئه بعمل الشيطان، بكل قوة وبآيات وعجائب كاذبة، وبكل خديعة الإثم في الهالكين، لأنهم لم يقبلوا محبة الحق، حتى يخلصوا. ولأجل هذا سيرسل إليهم الله عمل الضلال، حتى يصدّقوا الكذب، لكي يُدان جيمع الذين لم يصدّقوا الحق، بل سرّوا بالإثم" (2تسالونيكي2: 8-11). وبالتالي، إعتقد المصلحون، أن العجائب قد تكون أعمال إبليس، كيما يدهش الناس ويضلّهم ويبعدهم عن الإيمان الصحيح، ويجعل منهم عبدة أوثان. أيضا يذكر احد المؤرّخين، أن معظم المصلحين، لم يعتقدوا بوجود عجائب مباشرة مرئية في حياة الناس، وذلك لإحترامهم للانتظام الطبيعي العجائبي الذي خلقه الله في الكون والطبيعة.

كتب اللاهوتي اللوثري، يوهان ماربارخ، عام 1571، كتابًا بعنوان "حول الآيات والعجائب"، إنتقد فيه إيمان الناس بالعجائب دون إخضاع العجائب الى ميزان ومصفاة الكتاب المقدس. قال، "ما يحدث هو أمر غير كتابي". وحول الاتهام الذي وجّه للمصلحين من قبل الكنيسة، أنه لا عجائب تحدث في كنائس الاصلاح الانجيلي. أجاب ماربارخ: "طبعًا، لا تزال تحصل العجائب في الكنيسة، وإنما ليس كعجائب عصر الرسل. انها عجائب قوة النعمة الإلهية في الحياة، كيما يعلن الله خطته ويثبّت خلاصه الإلهي". وأضاف: "إذا سألتم: ما هي تلك العجائب؟ أجيب: أن أعظمها أعجوبة حركة الإصلاح الإنجيلي. أعجوبة ترجمة الكتاب المقدس الى لغات الشعب. أعجوبة إنتشاره الى القارة الأوروبية، بعد أن كان محجوبًا عن الناس لمئات السنين". رأى المصلحون، أن السبب وراء اعتقاد الناس بكثرة إنتشار العجائب، هو عدم معرفتهم لكلمة الله. أرجعها البعض الى تخيّلات شيطانية. ركّز المصلحون على نوعية التعليم الكتابي الصحيح، والكرازة بكلمة الله، التي تغيّر الحياة والكنيسة والمجتمع. تذكر المؤرخة الأسترالية، ألكسندرا والشن، " أنه بينما شدّد اليسوعيون على العجائب في إنكلترا في القرن السادس عشر، فانه بالمقابل شدّد الإنجيليون على صدقية كلمة الله، وعلى العلاقة الروحية المباشرة بين الله والناس، دون أية وساطة ثانية". وأضافت، "لا عجائب، ولا قدّيسين، ولا ذخائر، ولا كهنة. ليس هناك في نظر المصلحين، ارتباط عضوي بين: الاصلاح، والقداسة الشخصية". اعترف المصلحون بضعفهم، وأقرّوا بأخطائهم. عرف مارتن لوثر، بلسانه السليط في الانتقاد ومهاجمة قادة الكنيسة. قدّم الإصلاح الإنجيلي، مفهومًا غير تقليدي للقديسين والعجائب. فالعجائب في نظرهم لا تعكس قداسة أفراد معينيين، إنما هي شهادة لقوة عمل الله وسلطته ومجده. اعتقد المصلحون أن القداسة، غير محصورة ببعض الأشخاص المميّزين جدا، بل أن القداسة هي دعوة الله لكل مسيحي. وكل مسيحي ينضج في إيمانه، هو قديس.

تتقدّس الناس بكلمة الله وليس بالعجائب

من الأمور التي كانت تثير حفيظة مارتن لوثر، ترك الناس كنائسهم المحلية والذهاب الى مزارات وأمكنة مقدّسة، طلبًا للعجائب. قال: "هذه ليست إشارات صحية للكنيسة، لأنه لو كان لأولئك الناس إيمان حقيقي، لوجدوا ما يطلبونه في كنائسهم المحلية". إنتقد، تمجيد القديسين وطلب شفاعتهم، والاعتماد عليهم للحصول على العجائب. آمن أن قوة إيمان الرسل، وليس استحقاقاتهم الشخصية، جعلتهم يجرون الآيات والعجائب. كما فعل الرسول بطرس، اذ قال للأعرج من بطن أمه: "باسم يسوع المسيح الناصري، قمّ وامشِ" (أعمال الرسل3: 6). قال لوثر، "لا تؤكّد العجائب على قداسة الإعتقاد، لأن إبليس أيضًا قد يجري عجائب كاذبة ليخدع الناس ويضلّهم عن الإيمان الصحيح". وأضاف، "عندما تتحاجج مع كاثوليك يتحدثون عن آيات وعجائب كثيرة في تقاليدهم. فقط أعطِ جوابًا مختصرًا: لنرى ما أنتم لديكم، وما نحن لدينا. أنتم لديكم العجائب وشفاعة القديسين والذخائر والقداديس وأمور أخرى. ونحن لدينا كلمة المسيح التي اختبرنا قوتها في التغيير العجائبي التي قامت به في حياتنا. فالعجائب يمكن أن تخدع، لكن كلمة الله لا تخدع أبدًا". استشهد بقول الرسول بولس: "ولا عجب، لأن الشيطان نفسه يغيّر شكله، الى ملاك نور" (2كورنثوس11: 14).

في تفسيره للإصحاح العشرين من إنجيل يوحنا، حول قيامة المسيح، كتب لوثر دفاعا عن لاهوت العجائب. قال: "من المستغرب أن يبني أحد إيمانه على العجائب، لأن الايمان يجب أن يبنى على كلمة الله، ووعوده الصادقة والأمينة. فالعجائب في الكتاب المقدس، أكّدت على صدقية الإيمان المسيحي،

وساهمت في تحضير أذهان الناس، كي يقدّموا الوقار الأكبر لكلمة الله، لأن الإيمان يستند على كلمة الله. أضاف، "ستكون للعجائب فائدة كبيرة، عندما ترتبط بكلمة الله وتوجّه الإيمان المسيحي. فالناس تتقدّس بكلمة الله، وليس بالعجائب. إسم الله يجب أن يقدّس دائمًا في كل مكان وزمان، إن كان من خلال العجائب أو بدونها ". إعتبر لوثر، أن تناقل الناس لأخبار عجائب كثيرة، ما هي الاّ مجرّد إختلافات بشرية، جاءت بسبب البعد عن كلمة الله، وعدم الأمانة لها. وجد لوثر في بعض الآيات الكتابية، تحذيرا كبيرا للناس، حول إمكانية إستخدام بعض الأنبياء الكذبة، العجائب لأهداف مضلّلة، كما قال المسيح: "لأنه سيقوم مسحاء كذبة وأنبياء كذبة. ويعطون آيات عظيمة وعجائب، حتى يضلّوا لو أمكن المختارين أيضًا" (متى 24: 24). علّق لوثرعلى تحذير المسيح قائلا: "من المؤكّد أن العجائب الكاذبة سوف تظهر، وسيعتقد المسيحيون أنها حقيقية، لهذا يحب علينا الحرص كيما نخضع كل شيء لمقياس ومصفاة كلمة الله".

تحدّث مارتن لوثر، عن إختبارات عجائبية في الصلاة. أرجع لوثر، تقويّة الله له ومساندته اياه، في موقفه الصارم برفض التراجع عن الاصلاح الإنجيلي وحرق كتبه، بالرغم من ضغوطات أعلى السلطات الزمنية والروحية، الى قوة الصلاة العجائبية. حدثت الأعجوبة عندما رتّب الله أن ينقذه من الموت، من خلال ما قام به صديقه الأمير فريدريك السكسوني، اذ تمّ توافق على أخذه وتخبئته في مكان سرّي لمدة سنة، ترجم خلالها العهد الجديد الى لغته الألمانية. قدم لوثر مثلا عمليا آخر عن قوة أعجوبة الصلاة، فذكر أن صديقه فيليب ميلنكثون مرض ووصل الى حافة الموت. فصلّى لأجله بحرارة، مستلهمًا بوعود الله في الكتاب المقدس حول الشفاء. قال لوثر: "عندها شعرت بإيمان فوق عادي في قلبي. إلتفتّ الى صديقي المريض، ومسكته بيده، وقلت له: تشجّع يا فيليب، لن تموت. وإذ بميلنكثون يستعيد صحته". استشهد صديقه لاحقًا بصلوات لوثر الحارة من أجله، قائلاً: "كان يجب أن أكون ميتًا لو لم يستدعني لوثر من الموت، بصلواته الحارة".

عناية الله العجائبية بديل عن العجائب

تمايز جان كلفن عن مارتن لوثر، في نظرته الى أي أقنوم من أقانيم الله الثلاثة، يجري العجائب. عزا لوثر العجائب الى عمل الآب الأقنوم الأول، بينما عزا كلفن العجائب الى عمل الأقنوم الثاني، الإبن يسوع المسيح. في عمله اللاهوتي الضخم، "أسس الإيمان المسيحي"، يقول جان كلفن، "يهاجمون مسيحيتنا المصلحة بالقول: نحن لا نثق بمذهبكم، لأنه لا عجائب لديكم لإثباته، لكني أجيب أن مجرّد مطالبتكم إيانا بالعجائب فإنكم تظهرون عدم صدقكم. فنحن لا نختلق إنجيلاً جديدًا ولا تعاليم جديدة، لكننا فقط نحافظ على نفس الإنجيل الذي أثّبتت حقيقته كل معجزات المسيح والرسل الأوائل. يعلّمنا الكتاب المقدس، أن هدف تلك العجائب كان التأكيد على أن عمل المسيح والرسل هو عملٌ إلهي". توقف كلفن، بجديّة كبيرة عند تحذيرات الكتاب المقدس حول العجائب الخادعة. قال: "نحن ندرك أن لإبليس حيله وعجائبه الخادعة، فعبادة الأوثان تغذّت على العجائب. العجائب في الكتاب المقدس، تركّز على عمل الله وليس على عمل الإنسان". قدّم كلفن، مثلا تاريخيا عن عجائب البدعة الدوناطية، التي إنتشرت في الكنيسة، بين القرن الرابع والسادس، والتي كانت تدهش الناس البسطاء بعجائبها الكبيرة. قال: "نردّ على الذين يتّهموننا أن إيماننا غير صحيح لأن لا عجائب لدينا، كما ردّ القديس أوغسطينوس على بدعة الدوناطيين، بقوله: "لقد جعلنا الله حذرين من صانعي العجائب، عندما تنبّا عن بروز أنبياء كذبة في الكنيسة، غايتهم

تضليل الناس والمختارين إن أمكن". وضع كلفن اللوم في إجراء العجائب الخادعة، على تخيّلات البعض الشيطانية، وعدم تمييزهم بين: قوى الله العجائبية، والعجائب الخادعة.

أيضا تمايز جان كلفن عن مارتن لوثر، في نظرته حول توقّف أم عدم توقّف العجائب فوق الطبيعية بعد زمن الرسل. لم يعلن لوثر، بشكل واضح عن توقّف العجائب فوق الطبيعية بعد زمن الرسل، بينما أعلن كلفن عن توقفها منذ ذلك الزمن. اعتقد كلفن أن العجائب فوق الطبيعية كانت مؤقتة وكانت من سمات الرسل، كونهم كانوا معيّنين مباشرة من قبل المسيح، ومعاينون لقيامته. اعتقد أنها كانت لبن الكنيسة الأولى عند إنطلاقتها، لكن بعد أن انطلقت، إبتدأ الله يطعم أولاده من لحم كلمة الله الدسم. لهذا، لم يعد هناك حاجة للبن. في تفسيره لقول الرسول يعقوب: "أمريض أحد بينكم، فليدع شيوخ الكنيسة، فيصلّوا عليه ويدهنوه بزيت، باسم الرب. وصلاة الإيمان تشفي المريض والرب يقيمه" (يعقوب5: 14-15). قال كلفن: "أشار الزيت في الكنيسة الأولى، الى هبة الروح القدس التي يمنحها الرب للشفاء. فممارسة المسح بالزيت، كانت مجرّد رمزا للشفاء، لكنها لم تكن تشفي بحدّ ذاتها. تابع قائلا، "لم يكتف الرسول يعقوب بتلك الكلمات، لكنه أكملها قائلا، "وصلاة الإيمان تشفي المريض، والرب يقيمه". وبالتالي، صلاة الإيمان هي التي تشفي وليس الزيت". أعلن كلفن موقفه بشكل واضح قائلا: "إن موهبة اجراء أعجوبة الشفاء، هي مثل باقي المواهب التي أراد الله في حكمته أن يظهرها لفترة من الزمن الذي هو زمن المسيح والرسل، لكنها إختفت كيما يجعل الله الوعظ بالإنجيل بشارة مدهشة مغيّرة الى الأبد. فالرب دائمًا حاضر مع شعبه في كل مكان وزمان، وهو يشفيهم من خطاياهم". قال كلفن، "يتوقّع الله منا، أن نعرف الحقيقة المعلنة في الكتاب المقدس، ولا ننتظر أن نبني إيماننا على عجائب، لأنها قد إنتهت". آمن كلفن أن الغاية الأساسية من العجائب، كانت الشهادة لعمل الله وتمجيده، وختم الله للتأكيد على الحقيقة التي أعلنها المسيح ورسله بعده. اعتقد أنه لم تعد العجائب ضرورية للتأكيد على ألوهية المسيح، لأن هذه العقيدة قبلت من المسيحيين. ولم يعد هناك ضرورة، للتأكيد على الشرعية الالهية لرسالة الانجيل، كما كان الحال مع الرسل الأوائل الذين منحهم الله موهبة اجراء العجائب. قال : "منح الله، القوى العجائبية للرسل لإجراء العجائب لبعض الوقت، كيما يركّز الناس على القوة العجائبية التي تحملها كلمة الله في الكتاب المقدس". اعتقد أنه بعد زمن الرسل، رجع العالم الى مسيرة الانتظام الطبيعي الذي يسير بموجب سبب ونتيجة. كتب اللاهوتي الكلفيني، بنيامين وارتلو، في القرن التاسع عشر، كتابا بعنوان "العجائب المزيّفة"، أوضح فيه النظرة الإنجيلية المصلحة الى العجائب، اذ ترى أن الله حاضر في انتظام وطريقة عمل الطبيعة العجائبي. وبالتالي، لا يقتحم الله ويتدخل في العالم الذي خلقه، بعجائب فوق الطبيعة.

الحقيقة الساطعة أن الناس بطبيعتها تحب العجائب. تحب ما يثير العجب والدهشة. تحب معرفة أمور غامضة، ومخبأة قد تساعدهم على التأقلم مع المستقبل المجهول. لم يستطع المصلحون الانجيليون، نزع الاعتقاد حتى من مؤيديهم وأتباعهم، بحاجتهم الى العجائب الخارقة للطبيعة. أشارت تقارير تاريخية أنه بين الأعوام 1520-1570، (زمن المصلحين الرئيسيين، مارتن لوثر، وأولترخ زوينكلي، وجان كلفن)، حصل انخفاض ملحوظ للعجائب في المناطق اللوثرية في ألمانيا. الاّ أنها عادت للصعود بعد تلك الفترة. قال أحد المفكرين المسيحيين: "الإيمان الذي يُبنى على العجائب، لن يكتفي بأعجوبة واحدة، بل سيطالب دائمًا بالمزيد. لكن ماذا لو لم تحدث عجائب؟". اعتقد ذلك المفكّر، أن من ينحو هذا المنحى، يعتبر إيمانه غير فاعل، بل إيمان مشكّك يحتاج الى براهين لثباته. الايمان العجائبي الفاعل، ينبع من حضور الله الفاعل في الحياة.

العجائب في العناية الإلهية

ميّز كلفن بين ثلاثة أنواع من العناية الإلهية: الأول، "عناية الله العامة" المتجسّدة في انتظام الكون، الذي يحكمه بناء لحكمته الإلهية. الثاني، "عناية الله الخاصة"، التي تتجسّد في اهتمام الله بكامل المجتمع البشري إذ يرسل خيراته على الجميع. يرسل الشمس والمطر على الأشرار والأبرار. يقول كلفن بروح الدعابة: " نرى بعض الأوقات، أن صحة الأشرار أفضل من صحة الأبرار". والنوع الثالث من العناية ، هي "عناية الله المميّزة بمختاريه"، إذ يسود عليهم يوميا ويوجّه حياتهم بالروح القدس. يقول كلفن: "بما أن الله يسكن في كنيسته، فإنه يظهر بالبراهين رعايته الأبدية لأولاده المختارين". وأضاف، "لا تعني عقيدة العناية الإلهية اليومية بمختاريه، أن المختارين يمكنهم فهم هدف الله مما يحصل في حياتهم اليومية. فانه في كثير من الأحيان، تبقى هذه المعرفة غائبَة عن أعيننا. الاّ أنه يمكن لجماعة الإيمان، أن تستند على سيادة الله وعنايته الخاصة المعزّية، ومرافقته اليومية في أدقّ تفاصيل حياتنا، ومهما كانت ظروفنا صعبة". اعتقد كلفن، أن عقيدة العناية الإلهية المميّزة بمختاريه، هي البديل للعجائب التي كانت تجرى في زمن الرسل.

تحدّثت الأستاذة، في الدراسات الدينية في جامعة أوكسفورد، جاين شو، عن ما وصفته "الأعجوبة الإنجيلية النموذجية". قدّمت، قصة فتاة إنجيلية بيوريتينية فرنسية، اسمها ماري ميلارد، كانت تعيش في لندن، أصيبت بالشلل منذ طفولتها نتيجة سرطان. وبالرغم من أن أطباء إنجيليين معروفين، قالوا أنها لن تشفى. الاّ أنها في تشرين الأول من العام 1693، وبينما كانت تقرأ حادثة شفاء المسيح للمفلوج، في الإصحاح الثاني من إنجيل مرقس، اذ بها تُشفى. عندما خرج خبر الشفاء، أسرع الناس لزيارة ماري. أرسلت الملكة الإنكليزية، أربعة أطباء وثلاثة أساقفة، للتدقيق في حقيقة ما حصل، فوجدوا أن الشفاء قد حصل بالفعل. وهنا، تذكر الأستاذة جاين شو: "هذه أعجوبة إنجيلية نموذجية، لأنه لم يكن هناك أية وساطة بينها وبين الله: لا قديس، ولا مزار ديني، ولا ذخائر. حصلت المعجزة نتيجة تدخّل الله المباشر لشفائها، حتى بدون طلب من ماري نفسها. ذكرت الكاتبة: "الأعجوبة التي ترتبط بقراءة الكتاب المقدس مباشرة هي أعجوبة إنجيلية، لأنه بالنسبة للإنجيليين، الكتاب المقدس هو السلطة الأولى والأخيرة، في الحياة والعقيدة والعبادة".

شدّد الإنجيليون الكلفينيون الانكليز (البيورتنيون)، على عجائب التغيير الروحي والفكري والأخلاقي، التي يجريها الله بروحه القدوس في حياة جماعة الإيمان. لا يرى تلك العجائب، الاّ من ينظرون بعيون الإيمان، لكنها تغيب عن أعين غير المؤمنين. يرى المؤمنون بعناية الله العجائبية، أن الله يعمل في حياة جماعة الايمان يوميا، وحتى في أحلك ظروف الحياة. يقول أستاذ الدراسات الكتابية، مايكل هورتون: "الله منخرط دائمًا وباستمرار في خليقته في العالم، لكن علينا أن نفهم كيفية وطريقة انخراطه. فالذين ينتظرون تدخّل الله المباشر بعجائب مرئية، فإنهم يقلّلون من أهمية عناية الله اليومية المستمرة في تفاصيل حياتنا، ويخلقون إنشقاقًا كبيرًا بين الايمان بالعناية الإلهية والعجائب". اعتقد كلفن أن الله يعتني بنا بتقديسه حياتنا من خلال: قراءة الكتاب المقدس، والصلوات، وشركة جماعة الإيمان. كما آمن أن عناية الله اليومية تظهر، من خلال إعطائنا الصبر وطول الأناة لتحمّل الأمراض والآلام والأوبئة. والعناية القصوى تظهر بإعطائنا رجاء القيامة حتى لو انتهت حياتنا على هذه الأرض، لأن الله سيستمر بعنايته بنا ما حتى بعد هذه الحياة". يتابع الكاتب هورتون قائلا: "الذين ينتظرون عجائب مثل عجائب الكتاب المقدس، ربما سيخيب أملهم ويفقدون رجاءهم عندما لا تحدث، وسيخسرون اختبار حضور الله في أحلك ظروف الحياة". فانه عندما مرض بولس، اذ يذكر أن الله أعطاه شوكة في الجسد، صلّى الى الله ثلاث مرات، كيما يشفيه فلم

يشفه، بل قال له، "تكفيك نعمتي، فإن قوتي في الضعف تكمل " (2كور12: 9). وعندما سجن في روما، لم يأت ملاك ليخلّصه. وعندما رمى الرومان الآلاف من المسيحيين طعاما للأسود في القرون الأولى، لم يرسل الله ملاكه ليسد أفواههم، كما سدّ فم الأسد لكي لا يفترس شدرخ وميشخ وعبد نغو. يقول أحد اللاهوتيين: "يجب أن نرى عناية الله، ليس فقط عندما يتدخل عجائبيًا ويخرق الانتظام الطبيعي للكون، لكن يجب أن نراه أيضًا في الانتظام الطبيعي للكون. نرى عناية الله العجائبية، تحدث على أيدي الأطباء الجرّاحين الذين يقود الله أيديهم لإجراء العمليات الجراحية ويشفون المرضى، وهذا ما يعطينا أسبابًا كافية لشكر الله. فالله يبقى قريبن منا حتى، لو بدت الظروف معاكسة في حياتنا.

الفصل الحادي عشر

الطب هبة الله للبشرية

الشفاء ياتي من الطب وليس من العجائب

عرف اليونانيون القدماء، باهتمامهم القليل في الطب، وانشاء المستشفيات. كان القول المأثور الشائع في العصور القديمة: "الشفاء أحيانًا، الشعور بالإرتياح غالبا، والتعزية دائمًا ". ان تلقيب الرب يسوع، "الطبيب الأعظم"، كان شائعًا في كتابات آباء الكنيسة. عند العام 250 ميلاديًا عرفت الإمبراطورية الرومانية أوبئة كثيرة، لكن لم تساهم سلطات الامبراطورية كثيرا في التعاطي مع تلك الآفات، ومساعدة

المرضى. لهذا، لعبت الكنائس والأديرة دورًا أساسيًا في تحمّل هذه المسؤولية. مثلا أسس القديس باسيليوس، عام 369 أول مستشفى بحجم كبير احتوت على ثلاثمئة سرير للمرضى للاهتمام بضحايا الأوبئة. وفي مرحلة ما يُسمّى القرون المظلمة (476-1000)، أمر الملك الألماني شارلمان (742-814)، بأن ينشأ الى جانب كل كاتدرائية: مدرسة، ودير، ومستشفى. وفي القرن الحادي عشر، تطوّر الطب ليصبح مهنة إختصاص. وعند نهاية القرن الرابع عشر، كان هناك حوالي خمسماية مستشفى في أوروبا.

من النشاطات التي كانت تقوم بها الكنيسة الكاثوليكية في القرون الوسطى، رحلات حج لزيارة ذخائر القدّيسين، في الأماكن المقدسة. إحدى أهداف تلك الزيارات، كان السعي لشفاء المرضى الذين اصطحبوهم معهم، اذ اعتقد الكثيرون أن ذخائر القديسين، تمتلك قوة لشفاء المرضى. في مقالته "حول ذخائر القدّيسين"، إنتقد المصلح الانجيلي جون كلفن، بشكل لاذع تلك الزيارات التي التمست الشفاء. قال، "هناك الكثير من العناصر الخرافية فيها". حثّ كلفن الأطباء، للسعي الحثيث، للتفتيش عن الأسباب الطبيعية وراء تلك الأمراض. وعلّق أحد المؤرخين، على موقف كلفن هذا، بالقول: "إن رفض النظرة العجائبية إلى الشفاء من خلال ذخائر القديسين، حثّ الأطباء للسعي الحثيث لإيجاد الأسباب الطبيعية للأمراض، الأمر الذي أدّى إلى تطوّر المعرفة الطبية. أما المصلح مارتن لوثر، فقد قال: "أعطى الله القدرة على التفكير، كيما يتمكّن الانسان من استخدامها للمعرفة، في خدمة الإنسان الآخر". أسّس المصلح فيليب ميلنكتون شريك لوثر في الاصلاح، منهاجًا طبيًا في جامعة ويتنبرغ، اعتمد على تشريح الأجسام لزيادة التعلّم، حول جسم الإنسان، ومعرفة الأسباب التي أدّت إلى موته. وهي ممارسة لم تكن مقبولة إجتماعيًا آنذاك.

وصايا بيركينس الى الأطباء

اعتقد وليم بيركينس، أن كبرياء الأطباء يتجسّد في اعتقادهم، أنهم يستطيعون شفاء الناس بمهاراتهم دون موافقة الله القدير. في مخاطبته الأطباء، قال بيركينس: "على الطبيب أن يقوم بواجباته باجتهاد وضمير صالح، وكأنه مدعو من الله لهذه الخدمة المقدّسة". وأضاف: "الضمير الصالح هو من طبيعة إلهية. وقد وضعه الله فينا ليكون صلة الوصل بيننا وبين الله. الضمير الصالح في الطبيب، يعني أن يتجنّب الخطيّتين الأساسيتين، اللتين هما: الكسل واللامبالاة". رأى بيركينس، أن الأطباء بحاجة للحكمة والدراية، كيما يستطيعون البتّ في المسائل الطبية الصعبة". ميّز في إحدى مقالاته، بين حالتين يمزج الكثير من الناس بينهما، هما: إضطراب الضمير، والكآبة. طلب من الأطباء، معالجة كل حالة، بطريقة مختلفة. كتب قائلاً: " يمكن للأطباء معالجة الاضطرابات والتخيّلات التي يُصدرها الدماغ في حالة الكآبة. أما إضطراب الضمير، فلا يمكن لأحد معالجته، إلاّ طبيبنا الأعظم الرب يسوع المسيح، الذي سفك دمه على الصليب، ليمنحنا الحياة في بعدها الحاضر والأبدي". عالج بيركينس سؤالا أساسيا جدا، لا يزال يسأل حتى اليوم، هو: "هل يجب أن يخبّىء الطبيب عن المريض، حقيقة صادمة إكتشافها، هي أن لدى المريض مرضا عضالا، وهناك إشارات خطيرة تنذر بقرب نهاية حياته؟". كان جواب بيركينس، بالايجاب. قال، "لا يجب أن يخبّىء الطبيب الحقيقة عن المريض، مهما كانت الصدمة النفسية صعبة". اعتقد بيركينس أن معرفة المريض بخطورة حالته المرضية، تساعده على مواجهة الحقيقة، فلا يعود يضع ثقته في الأمور الأرضية، بل يرفع عينيه إلى السماء، ويضع صحته وحياته بثقة كاملة بين يدي مراحم الله. اعتبر أن تلك الفترة التحضيرية هي أساسية لتحضير المريض المحتضر نفسه للأبدية، ويركّز تفكيره روحيا وكتابيا،

على اعداد نفسه للموت، أكثر من التفكير في إستعادة صحته". قال: "على المسيحي أن يرحل من هذا العالم بكرامة، وأن يخضع للمشيئة الإلهية دون تذمّر، في المكان والزمان، الذين يختارهما الله".

دعا بيركينس الأطباء الى عيش حياتهم المسيحية التقوية، وعدم الانقطاع عن حضور خدمات العبادة ونشاطات الكنيسة. قال: "تذكرالوصية الرابعة من الوصايا العشر ، "إحفظ يوم السبت لتقدّسه". وبالتالي، فهي تدعو الطبيب الى تقديس وتخصيص يوم الرب للعبادة وأخذ راحة من العمل. وتذكر الوصية السادسة: "لا تقتل". وبالتالي، تدعو الأطباء الى الحفاظ على صحة الناس، وعدم توفير أية فرصة لمساعدتهم، في أي ظرف كان". وهنا توقّف بيركينس لمعالجة اشكالية يقع فيها الأطباء المؤمنون، بين التزامهم بمسؤولياتهم وضميرهم المهني، والتزامهم بحضور الكنيسة للعبادة والنمو في علاقتهم مع الله. يجيب بيركينس قائلا: "عندما تبرز حاجة طبّية ملحّة لإنقاذ حياة مريض ما. وكان ذلك في يوم الرب، فإن الإسراع نحو المريض لإنقاذه، يتقدّم على حفظه يوم الرب. أو إن كانت إمرأة تضع مولودها في يوم الرب، فإن ذهاب القابلة لمساعدة المرأة في الولادة، يتقدّم على حفظها يوم الرب. الا أنهم، لا يمكنهم تصنيف ما يقومون به، على أنه يوم عمل، وانما هو يوم خدمة للرب. لهذا يجب عدم تقاضي الأطباء أجورا من المرضى، لأنه يوم خدمة وليس يوم عمل".

الطبّ هبة الله للبشرية

بعد موت المصلح جان كلفن وتسلّم المصلح ثيودور بيزا، رعاية مدينة جنيف، ضرب مرض الطاعون جنيف ثانية، عام 1579 . لدى تشكيل مجلس القسوس لجنة زيارات المرضى المصابين، رفض بيزا استثناءه من اللجنة، بل أصرّ على الاشتراك مع باقي أعضاء اللجنة، لزيارة المرضى. نظّمت زيارات دورية للمرضى. برعاية وقيادة المصلح بيزا. انتشرت في تلك الفترة الكثير من المنشورات التي ادّعت بأن هذا الوباء، قصاص مباشر من الله بسبب خطايا الناس. دعا كاتبو المنشورات الناس الى الاستسلام للمرض، وعدم القيام بأي شيء، لأنها إرادة الله مدّعين أن الكتاب المقدس يدعم رأيهم. أجاب بيزا على تلك الادعاءات، برسالة كتبها عام 1579، ذكر فيها: "أنه لمن السذاجة أن نتوقّع إجابات حرفية حول أسئلة علمية من الكتاب المقدس". قال، "ان افترضنا أن الله كان قد قرّر مسبقًا أن يموت انسان من جرّاء مرض الطاعون، فانه لن يبقى شيء إلاّ الإستسلام. لكن من الممكن أن الله قد قرّر مسبقًا، أن يجتاز الإنسان هذا المرض دون أن يموت. فمن هو الذي يعرف فكر الله؟ ولماذا هذا الإستسلام؟". رفض بيزا بشدة هذا الموقف القدري، بالاستسلام وعدم القيام بأي شيء لمواجهة المرض. قال، "إذا ما تسرّب هذا الفكر، الى كل جوانب حياتنا، فإننا عندها: لن نأكل، ولن نشرب، ولن نخطّط للمستقبل، ولن ندافع عن أنفسنا عندما نهاجم. نحن بالتأكيد نؤمن بعناية الله، وأنه يسمح أن نصاب أو لا نصاب. لكن هذا، لا يلغي ضرورة التصرّف بمسؤولية، والقيام بما نستطيع لمواجهة الوباء. أضاف، "هنا يأتي دور الأطباء الضروري جدًا. من الضروري أن نعرف، ما هو مرض الطاعون، طبيعته، أسبابه، كيفية انتقاله. لكن كيف نستطيع أن نعرف هذه الأمور من كلمة الله وحدها؟ وحيث أن العدوى تنشأ من سبب طبيعي وتنتشر بأسباب طبيعية، فهل يعالج الكتاب المقدس أي شيء مثل ذلك؟ أقول لكم: كلا. نحن نحتاج الى الفلسفة الطبيعية. فاللاهوتيون، يفسّرون الأسباب اللاهوتية للمرض، لكن العلاجات وطريقة عمل المرض، يفسّره الأطباء". دعا ثيودور بيزا الناس الى دراسة فكر الأطباء، أمثال أبقراط، أبّ الطبّ، (الذي عرف لاحقًا أنه مؤسس الطبّ، والفلسفة الطبيعية المعاصرة)، للحصول على فهم صحيح للمرض وأسبابه وتأثيراته. كان بيزا مقدّرًا للأبحاث الطبية

وخدمة الأطباء الهامة، في خدمة ومساعدة البشرية لمواجهة الأمراض. آمن أن الله يعمل من خلال وسائل ثانية، ومنها الأطباء. قال: "من يستطيع أن ينكر أن عدوى الكثير من الأمراض تنتقل من خلال: النفس واللمس. هناك بعض الأمراض المميتة، والبعض الآخر أقل خطرًا. علينا أن نقوم بواجبنا بمسؤولية، ونتّخذ كل الاجراءات الضرورية للوقاية، لكي لا تنقل خطر العدوى إلينا، فنحمي أنفسنا، كي لا نُلام من الله. قال بيركينس، "ان مسألة نموت أو لا نموت تبقى مخبّأة في حكمة الله، لكن الطبيعة تدعونا الى تمديد حياة الإنسان، بحسب مسرة الله، وبناء للمدة التي يريدها الله. أرسل الله الأطباء ووضع فيهم الأمل في إطالة حياة الناس من خلال علاجاتهم، لانقاذ ما أمكن من حياة الناس، التي تصاب بالأمراض. لكن إن لم نقم بذلك، فإننا سنكون مجرّبين لله ومسيئين له".

نتيجة لمواقف المصلحين الانجيليين الايجابية في دعم الطبّ، خطا الطب خطوات عملاقة، في القرون اللاحقة التي تلت زمن الاصلاح، اذ انتشر التدريب والتأهيل الطبي، وتعدّدت الإختصاصات. كرز المصلحون بالكتاب المقدس، وقدموا للمجتمعات خدمات جلّى في حقول متعددة، استندت على مفاهيم لاهوتية. وما زاد الإهتمام في الطب، هو انشغال المصلحين في قضايا ومسائل المجتمع. من الأطباء الكلفينيين، الذين برزوا في نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر، الدكتور توماس سيدنهام ،الذي لُقِّبَ بأبّ الطب الإنكليزي. عندما فتك مرض الطاعون في مدينة لندن عام 1615، وقد آنذاك خارجا، رجع ألى المدينة وخاطر بحياته من أجل إنقاذ المرضى والعناية بهم. تجسّدت قيمه المسيحية، في كتابه: "المساعدات الطبية: تاريخ وعلاج الأمراض المستعّصية"، الذي كتبه عام 1668. مما جاء في كتابه: "كل من يريد أن يعمل في الطب، عليه أن يأخذ بعين الإعتبار هذه الأمور الثلاثة: أولاً، ان الطبيب سوف يقدّم حسابًا أمام الله القاضي الأعظم عن حياة المرضى الذين قصدوه للعناية بهم. ثانيًا، يجب على الطبيب أن يكون مدركًا أن كل ما لديه من معلومات ومهارات، إنما هي بفضل نعمة الله عليه، ويجب أن تكرّس قبل كل شيء لمجد الله وخدمة الجنس البشري. ثالثًا، يجب أن يتذكّر الطبيب دائمًا، أنه يتعامل مع المريض الذي له كرامته وقيمته الإنسانية، لأن الله صار من أجله إنسانًا، وصُلِب على الصليب وقام من بين الأموات لتكون له حياة ويكون له أفضل. رابعًا، على الطبيب أن يتذكّر أنه غير مُستثنى من الآلام والأمراض. لهذا، عليه أن يهتّم بمريضه باجتهاد ولطف، لأنه قد يكون هو أيضًا شريكهم في المرض والألم. وبالتالي، في كتابه الطبي الروحي هذا، نجد العديد من المبادىء المسيحية الصالحة، لممارسة عمل الطب ومساعدة المرضى المتألمين.

إن اهتمام المصلحين في حياة الناس ورعايتهم لهم أثناء المرض، أبرز في فترات لاحقة الى الوجود فئة من القسوس الأطباء، الذين درسوا بعض الدراسات الطبية لمساعدة المرضى، في وقت لم يكن شائعًا وجود أطباء مدرّبين في القرى والمناطق الريفية. مثلاً، المبشّر الإنجيلي جون وسلي، درس موادًا في الطب، كيما يتمكّن قدر الإمكان من مساعدة المرضى الفقراء حين كرازته بالانجيل. أسّس عيادة طبية لمساعدة المرضى. وفي السنة التي تلت، كتب كتابا بعنوان "المبادىء الأساسية في الطب". وفي القرن الثامن عشر، أسست سكوتلندا ، بلد الكنيسة الانجيلية المشيخية التي تتبع للعقيدة الكلفينية ، ما اعتبر آنذاك من المراكز الطبية الأهم في أوروبا. كما أنه في القرن التاسع عشر وفد الى منطقتنا وبلادنا مجموعة من المرسلين الذين كانوا من القسوس الأطباء أسسوا عام 1866 ما عرف بالكلية الانجيلية السورية، التي تغيّر اسمها لاحقا الى مستشفى الجامعة الأميركية في بيروت.

الفصل الثاني عشر

دعوة المصلحين الى تشكيل العالم

تغيّر قناعة لوثر من الدير الى العالم

عاش لوثر عشرين سنة في الدير، في ظل لاهوت الكنيسة الكاثوليكية، الذي قسّم الحياة إلى قسمين: الحياة الروحية، والحياة الزمنية. رأت الكنيسة الكاثوليكية في حياة الزهد والتقشّف، والدخول الى الأديرة، نموذجا للحياة المسيحية المثالية، معتبرة أن الخدمة الدينية، تقع في مرتبة أسمى وأعلى من المهن الزمنية. الاّ أن نظرة لوثر الى العالم، تغيّرت أثناء وجوده في الدير. بعد دراسته المعمّقة للكتاب المقدس، كوّن لاهوتا جديدا أكسبه ذهنية روحية جديدة دفعته لترك الدير والمشاركة في تشكيل العالم. عندما تكلّم مارتن لوثر عن خلق الله للعالم. أعلن عن ايمانه بالله الخالق، قائلا: "إني أؤمن، أن الله خلقني مع كل شيء آخر، يوجد في هذا العالم. إدراكي لله الخالق، له فرادة شخصية بالنسبة لي". ان تصريح لوثر هذا، يعني أنه مديون شخصيًا لله لخلقه له. لم يكن موضوع خلق الله للعالم، موضوعا عاما بالنسبة للوثر، لكنه مسألة تخاطبه شخصيا وتعنيه بالاسم، كون أن الله خلقه أيضا. رأى نفسه مخلوقًا ومرغوبًا من قبل خالقه. هذه النظرة الشخصية، الى عقيدة خلق الله للعالم، كانت محورية في لاهوت لوثر، اذ صاغت قناعاته بضرورة

المشاركة بفعّالية في العالم، وعدم الانعزال عنه والانسحاب منه. هذا اللاهوت الجديد جعله ينظر الى حياة الانعزال في الدير هروبا من العالم، تجنّبا للانغماس في شؤونه ومشاكله.

اعتقد لوثر أن استمرار العالم، لا يحدث بطريقة ميكانيكية، بل بمشاركة الانسان مع الله بالحفاظ عليه واستمراره. قال: "يجب على جماعة الايمان، عدم تجاهل وصية الله بضرورة الاهتمام بالعالم، لأن الله يريد منا أن نعطي له شكلاً. أن ننكر ذلك، يعني أن ننكر الحياة بحد ذاتها". تحدّث عن نفسه قائلا: "بالتأكيد، لن أقول أني لن أعمل، وسأجلس عديم الفائدة. لكن سوف استخدم ما وهبني اياه الله بلطفه". اعتقد، أن رغبة الله بأن يشارك الانسان بايجابية في العالم ظهرت، عندما كلّفه بتسمية الحيوانات بأسماء. يذكر النص الكتابي: "فدعا آدم باسماء، جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية" (تكوين2: 20). قال، "هناك تعاون رائع بين الله والانسان. فالله خلق، وآدم أسمى". دعا لوثر جماعة الايمان، الى أن يعطوا شكلاً للعالم بهباتهم التي وضعها الله تحت تصرفهم. قال، "يعطي الله نفسه للانسان، من خلال أيدينا وأفواهنا، والسمات الانسانية الخلاّقة التي وضعها فينا". آمن أن الانسان، بما هو وبما يملك، انما هو من هبات من الله، يجب استخدامها لمجده. قال، "يستلم الانسان من الله هبة جسده، كيما بدوره يقدّم له مواهبه الروحية". رأى كل عضو من اعضاء جسده كهبة: عيونه، يديه، رجليه.

آمن مارتن لوثر، أن الله عيّننا أسيادًا وحكّامًا على كل شيء، وأقامنا كيما نعطي شكلاً للعالم. اقتبس قول الله في سفر التكوين:"وقال الله نعمل الانسان على صورتنا كشبهنا، فيتسلّطون على سمك البحر، وعلى طير السماء، وعلى البهائم، وعلى كل الارض، وعلى جميع الدبّابات التي على الارض" (تكوين1: 6). قال، "ان الذين انعزلوا عن العالم، فشلوا في فهم تكليف الله لهم، بأن يعطوا شكلاً للعالم". لا يخفي لوثر، أن تكليف وتعيين الله لنا للاهتمام بخليقته، قد يتعرّض للخطر ويفسد بسبب خطايانا". حذّر من سوء استخدام الانسان هذا التعيين والتكليف، باستغلاله لتملّك النفوذ والسلطة والتحكّم بالخليقة وبرقاب الناس. خاطب كل انسان قائلا: "اعلم أن الله لا يمنحنا هباته، كيما نستخدمها بشكل سلبي، بل يجب أن نحرص على استخدامها لمساعدة الناس وارشادهم". وأضاف، "ليس زملاؤنا الخلائق الأخرى سلعًا للفساد. أن نحكم، لا يعني أن نتحكّم. بل يعني أن نجعل كل شيء يزهر ويزدهر". في كتابه،"حرية المسيحي"، قال مارتن لوثر:" المسيحي هو حرّ من الجميع ولا يخضع لأحد. المسيحي هو عبد للجميع وخادم للكلّ". إن مفارقة لوثر الشهيرة هذه بين: "إنسان الداخل، وإنسان الخارج"، أي أن يكون في داخله حرّا من الجميع، وبنفس الوقت في خارجه خادما للجميع، كانت محورية في تشديده على تحقيق المسيحي هويته، في خدمة الله والآخرين في العالم. كتب لوثر، " المسيح مملوء بالنعمة والحياة والخلاص، بينما النفس مملوءة بالخطايا والموت والدينونة. الاّ أنه عندما يمنحنا المسيح بنعمته عطية الايمان، يأتي الايمان بيننا وبين خطايانا. وهكذا، فانه ينقل الموت والدينونة الى المسيح، وينقل النعمة والخلاص والحياة، الينا. فالذي يدخل في شركة مع الله بالايمان، فإنه أيضًا يدخل في شركة مع القريب أو الآخر. وكما يتّحد المؤمن بالمسيح، هكذا يتّحد أيضًا بالقريب أو بالآخر". اعتقد لوثر، ان الحريّة التي يختبرها المسيحي بالايمان في حياته اليومية، تنسجم مع حريّة القريب. قال لوثر، "الأمور الجيدة التي من الله في انساننا الباطن، يجب أن تتدفق الى الانسان الخارج، ليشترك بها الجميع".

أقام مارتن لوثر، ثورة في حياة الانسان في المجال الشخصي والشأن العام. اعتقد، انه ليس من الضروري للانسان أن يكون راهبًا أو راهبة، ليكون أكثر قربًا الى الله، لكن يمكنه أن يخدم الله بشكل كامل في حياته العادية اليومية، في بيته وعمله وكنيسته. دعا للمشاركة الفعّالة في كل نشاطات الحياة، وفي كل أنواع الأعمال. قال لوثر: "يجب على المسيحيين ألاّ يهجروا العالم، بل أن يشاركوا فيه بمسؤولية، وأن

يكونوا وكلاء أمناء على ادارته، كلٌ في مجاله. لكن يعملون في العالم ليس كمالكين له، وإنما كضيوف ونزلاء، يتعاملون مع العالم باحترام ويستمتعون به ويقدّرون قيمته، مدركين أن مصير هذا العالم كمصيرهم، في يدي الله الخالق". خلق الإيمان الإنجيلي في حياة الذين قبلوه حالة روحية واستعداداً نفسيا ،ساهم في اعطاء تعريف جديد للعمل وقيمة روحية للعمل. لم تعد الغاية الأولى من العمل، كسب لقمة العيش، كما هو المفهوم السائد سابقاً وحاضراً. الا أن كسب لقمة العيش، أصبح نتيجة للعمل، لأن العمل هو بحد ذاته، نشاط روحي، بل اختبار روحي يهدف إلى خدمة الله وتمجيده. وبالتالي، أصبحت كل الأعمال مهما كان نوعها، هي دعوة إلهية لتمجيد الله.

استخدم لوثر تعبير، "لبس القريب" أو "لبس المسيح"، الذي استخدمه الرسول بولس، "إلبسوا الرب يسوع المسيح، ولا تصنعوا تدبيرًا للجسد لأجل الشهوات" (روميه13: 14). في عظة ألقاها عام 1521، بعنوان "الأنواع الثلاثة من الحياة الصالحة"، ذكر لوثر، "أن الحياة الصالحة، تشرق للآخرين من محور عقيدة التبرير بالايمان وحده. لا يعيش الانسان المسيحي في ذاته، وانما في المسيح وفي الآخر، وإلاّ لن يكون مسيحيًا. على المسيحيين أن يعيشوا في حياتهم العادية من أجل القريب، لكن يعيشون بطريقة أكثر من عادية". اعتقد لوثر، أن هويتنا المسيحية، تتمحور حول محبة الله المغيّرة، التي قدّمت نفسها في المسيح، الذي يجدنا بروحه القدوس أينما كنّا. قال، "محبة الله المعطاءة والمغيّرة، تتجاوز نفسها نحو الآخر". في عظته حول "النوعين من البرّ"، التي ألقاها عام 1519، شدّد لوثر على ضرورة عيش الانسان مسيحيته بنشاط، وهو يقوم بواجباته اليومية. اعتقد أن قيمة الانسان تكمن، في خدمة الآخرين من خلال محبة الله المعطاءة. أيضا تحدّث شريك لوثر في الاصلاح فيليب ميلنكثون، عن نوعين من البِرّ: بِرّ إلهي داخلي، الذي يأتي كهبة من الله في المسيح وحده، والذي يمنحنا الغفران، والخلاص، والحياة. وبِرّ إنساني خارجي، نعمل على تحقيقه في هذا العالم، ونتشارك فيه مع كل البشر. قال ميلنكثون: "عندما يتعلّق الأمر في البِرّ الخارجي الانساني، ليس على المسيحيين أن يضعوا عقولهم جانبًا، لكنّهم يستطيعون إستخدام ذكائهم: في السياسة، والتربية، والتعليم، والتاريخ، وعلم النفس، وما إلى ذلك". وأضاف، "هناك من يعتقد أن المعرفة الإنسانية هي بحدّ ذاتها خطية، لكن هذا الإعتقاد ليس فقط خاطئا، لكنه خطية كبرى، لأن أولئك الناس، يجعلون أنفسهم قضاة وديّانين لهذا العالم. ليس هناك أي شيء خطأ في المعرفة الإنسانية، عندما تخدم البشر".

الليتورجيا الاجتماعية تلي الليتورجيا الروحية

نظر لاهوت القرون الوسطى الى الفقر، على أنه حالة مفضّلة لدى المسيحيين لأنه يجعل الانسان غير متمسّك بشيء في هذه الحياة ويشجّعه ليضع رجاءه في الله وحده بانتظار المكافأة. انتشر في ذلك الزمان رهبنات متنوعة شدّدت بشكل مبالغ على الفقر. نظر الى التصدّق على الفقراء، على أنه من الأعمال الصالحة التي تجعل الانسان يكسب استحقاقا مما يساهم في خلاصه. تمّ التركيز على فاعل الصدقة، ربما أكثر من المستلم وحاجات الفقراء، للقوّة الروحية التي تحملها الصدقة أمام الله. لكنّ المصلحين الانجيليين، عملوا على تغيير هذه الذهنية. وجدوا أن تلك الايديولوجية، منعت الناس من رؤية الحاجة الى تغيير البنية الاجتماعية التي تسبّب الفقر. رأى لوثر، أن هناك خللاً بنيويًا في المجتمع. رأى أن القوانين الاقتصادية والاجتماعية تظلم الفقراء وتدمّرهم . لاحظ أن هناك مجموعة قليلة من الاغنياء، تتحكّم بمعيشة الأكثرية الفقراء. الاّ أن عقيدة "التبرير أمام الله، بالايمان وحده" التي أطلقها مارتن لوثر، قطعت

شريان لاهوت الفقر، لأن هذه العقيدة علّمت أن خلاص الانسان هو عطية مجانية من الله، بغض النظر عن الأعمال الصالحة التي يقوم بها الانسان. فالأعمال الصالحة، تأتي في المرتبة الثانية، كثمار للايمان. ونتيجة لهذا اللاهوت الجديد، فقدت القوّة الخلاصية للصدقة. صار ينظر المصلحون الى الفقر: كظلم وشرّ وآفة اجتماعية، يجب محاربتها بل علاجها، الى جانب القضايا المجتمعية الأخرى. كان المثال المتّخذ في الكنيسة في تقديس الفقر، القديس فرنسيس الأسيزي، لأنه رفض الغنى والمال ودعا الى عدم الاكتراث به والقلق بشأنه". علّق لوثر، على موقف الأسيزي، قائلا: "لقد استبدل الأسيزي غفران الخطايا بقانون جديد، هو التخلي عن كل شيء". قال، "ليس الفقر أمرًا يجب أن نختاره أو نسعى وراءه. فهناك أصلاً عدد كاف من الفقراء في العالم". كان زمن لوثر، زمن الاشادة، بالذين ابتعدوا عن المال والذهب والفضة، لكن موقفه كان: "المال والفضة والذهب هي خليقة جيدة، نستطيع أن نستخدمها لمساعدة الفقراء وسدّ حاجاتهم لمجد الله. نظر الى المال، ليس كسيّد للحياة، وإنما كخادم للناس، لا سيما الفقراء والمحتاجين. قال، "ليست المشكلة في المال بحد ذاته، وإنما بطريقة استخدامه. فإذا ما أعطاك الله غنى، إشكر الله عليه واحرص على استخدامه بشكل جيد لمساعدة الفقراء والمحتاجين لمجد الله". بهذا التوجّه اللاهوتي الجديد، لم يعد ينظر المصلحون الى الفقراء كأهداف للصدقة، كيما نربح من خلالهم استحقاقا عند الله، بل أصبح ينظر اليهم، كأقرباء نخدمهم ونعمل من أجل عدالتهم وانصافهم، من خلال الأنظمة والقوانين المدنية والكنسية".

عمل المصلحون مع الحكومات القائمة على وضع تشريعات جديدة تأخذ بعين الاعتبار، انصاف الفقراء وحفظ حقوقهم، وصدرت قرارات حكومية لتنفيذ هذا التوجّه الجديد. الجهد الاول الذي قام به لوثر، تأسيس صندوق للعمل الاجتماعي في مدينته ويتنبرغ عام 1522. ولاحقًا في المدن التي دخل اليها الاصلاح. تمّ تمويله أولاً من خلال التبرعات ولاحقًا من خلال الضرائب. كان هذا الصندوق اختلاقًا جديدًا قدّم خدمات اجتماعية للمعوزين. بفضل تمويل هذا الصندوق: تمّت مساعدة الفقراء والأرامل والأيتام. تمّ مدّ الفتيات الفقراء ببعض المال لزواجهم. منحت قروض بلا فائدة لمساعدة الفقراء في مشاريع صغيرة أسّسوها. وعندما لم يتمكنوا من تسديد ديونهم، سامحوهم فيها. توازيا مع عمل لوثر أصدر مجلس مدينة ويتنبرغ قرارًا بمنع التسوّل. دعم صندوق العمل الاجتماعي، التدريب المهني والتربوي للفقراء. عندما ارتفعت الفائدة الى 40% على المستدينين، دعا لوثر الى تخفيضها الى حوالي 4 أو 5%. أعلن قائلا، "حاجات الفقراء هي أهم من ربحكم الشخصي". توقف عند قول المسيح للذين عن يساره، "لأني كنت جائعا فلم تطعموني، عريانًا فلم تكسوني، مريضًا ومحبوسًا فلم تزوروني" (متى25: 43). قال : "ألا يُسمّى أولئك الذين يفعلون مثل هذه الأمور، قتلة؟ فمع أنهم لم يقترفوا جرائم حقيقية، إلاّ أنهم سمحوا بهلاك الفقراء". عندما تضاعفت أسعار المواد الغذائية وبقيت الرواتب كما هي، لم يتردّد لوثر في تسمية ما يحدث على أنه سرقة وقتل مقنّع. قال: "الله يعارض الطمع والاستغلال. ألاّ يدرك الطمّاعون أن ما يحدث، هو ببساطة سرقة للناس. ألاّ يعلم أولئك أنهم يجّوعون الناس ويقتلوهم، عندما لا يبقى لديهم ما يعتاشون منه". دعا لوثر كل المسؤولين الكنسيين والحكوميين الى حماية الفقراء. وطالب بالمحاسبة والمساءلة العلنية لظالمي الفقراء والأرامل والأيتام. ، قال في كتابه "الكاتخيسم الكبير": "يسلب الفقراء يوميًا. يرهقون بأحمال غلاء الاسعار. و يستغل الطمّاعون الاسواق بطرقهم الخبيثة وكأنها ملكهم، فيبيعون البضاعة بأغلى الاسعار". وأضاف، "إنهم يأكلون خبزنا ويشربون ماءنا، ويعيشون على أجساد الفقراء". في مقالة للكاتب، كارتر ليتنبرك، بعنوان، "مارتن لوثر حول الفقر". قال الكاتب، "لم يتحدث لوثر عن الفقر، كسياسي أو اقتصادي أو عالم اجتماع، وإنما كلاهوتي يعلن رسالة الانجيل. لم يكن التزامه بالقضايا الاجتماعية على الطريقة الأرسطوطالسية بالتحوّل من الرذيلة الى الفضيلة، وإنما تحدث كلاهوتي في خدمة الانسان. تحدث لوثر عن الايمان العامل بالمحبة، الذي يختبره الانسان، فيفيض منه نحو الآخر المعوز ". اطلق لوثر على

الخدمات الاجتماعية تسمية، "الليتورجيا الاجتماعية، التي تلي الليتورجيا الروحية". اعتبر لوثر، التزامه بقضايا الفقراء والمظلومين والمحتاجين، نوعا من ليتورجيا العبادة. قال، "سيكون العالم مليئًا بالعبادة، اذا ما ساعدنا الفقراء والمحتاجين".

مكافحة المصلحين للفساد

آمن المصلحون أنه من ثمار الايمان، حياة القداسة التي تترجم عمليا بالشهادة للحق، ورفض الظلم، ومكافحة الفساد والطمع، للمساهمة في تشكيل عالم أفضل. نظر جان كلفن، الى تقديم شهادة زور، على أنه نوعً من التلاعب والتدخّل في عمل وحكم الله. حين تفسيره الوصايا العشرة، ربط كلفن، بين وصية "لا تشهد بالزور"، ووصية "لا تسرق"، معتبرا أن شهادة الزور، هي سرقة ماكرة لسمعة الآخرين وكرامتهم. قال: "شهادة الزور، هي إشارة لحالة من الاستعداد الداخلي، للخيانة والفساد، والسرقة لتشويه الاسم الجيّد لإنسان آخر". لم يميّز، بين الكذب أثناء شهادة الزور في المحاكم، أو الكذب في الحياة اليومية. اعتبر أنه في كلتا الحالتين، الكذب قتل وتدمير لسمعة الآخر.اعتقد أن وصية، "لا تشهد بالزور"، تشمل كل أنواع الكلام المسيء بحقّ الآخرين: من ثرثرة، الى فبركة إشاعات، الى اتهامات كاذبة، التي تؤذي السمعة الجيدة للآخرين. قال، "الهدف من وصية الله بعدم الشهادة بالزور، هي حماية سمعة الآخر". وأضاف، "إذا ما كان الاسم الجيّد أو السمعة الجيدة، هي أغلى وأهم من المال والممتلكات، فإن سلب إنسان إسمه الجيد، هو أكثر ضررا من سلبه ممتلكاته". أما المصلح مارتن لوثر، فقد اعتقد أن الله أعطى وصية عدم الشهادة بالزور لشعبه، كيما يساعد كل انسان جاره في الحفاظ على حقوقه. قال، "إلى جانب كنز جسدنا، لدينا أيضًا كنز آخر، هو كنز: الشرف والكرامة والسمعة الجيدة، التي لا نستطيع أن نتخلّى عنها، لأننا لا نستطيع أن نتحمّل العيش بين أُناس يسبّبون العار والاحتقار لنا وللآخرين. فقد رغب الله، أن يحافظ كل إنسان على سمعته واسمه الجيّد، كيما يقف بلا لوم، أمام الله، وأمام زوجته وأولاده وأقربائه". قال الكاتب "إدغار آلن بو": "التشهير، أو الإساءة الى سمعة إنسان عظيم، هي الطريقة السهلة التي يستطيع فيها إنسان صغير أن يحقّق العظمة. يعتقد شاهد الزور أنه يملك الحق بالتحكّم في سمعة الآخرين، وتشويهها. فهو بشهادته الكاذبة، يحاول تحسين سمعته على حساب تدمير سمعة الآخرين".

اعتقد لوثر، أن الطمع هو نوع من الخطايا التي تخفي ظلمًا وتخبّى استغلالاً، تحت قناع النوايا الحسنة والعمل الصالح. آمن أن الطمع يتجذّر ويتأصّل في طبيعة الانسان الأنانية الساقطة ويتمدّد في العديد من الحقول والنشاطات التجارية والاقتصادية والزراعية. قال لوثر، " الطمع يفسد كل القيم الانسانية، لا سيما قيمة العدالة التي لا تثمّن". وأضاف، "يقنّع الطمع نفسه بمظاهر جميلة وربما مقنعة موهما أنه فضيلة، بحيث يتعذّر في بعض الأوقات، تحديده وتمييزه في سلوك البعض. يمتنع الطمّاعون من مساعدة الآخرين بتبريرات عديدة، كالاهتمام بالعائلة والأهل أو تأمين المستقبل وغيرها من الأعذار. وهكذا، يكدّس الطمّاعون المال، تحت مسميّات عدة". وصف لوثر، ثقة الطمّاعين بأموالهم، قائلا: "يعتقد الطمّاعون، الذين يضعون ثقتهم بأموالهم وممتلكاتهم، أنهم يمتلكون الله وكل شيء يحتاجون اليه. يظنون أنهم لا يحتاجون الى أمر آخر وحتى الله. يشعرون بسعادة كبيرة، وكأنهم يجلسون في الفردوس نفسه. يستمتع الطمّاعون بجمع المال ولا يستخدمونه. يحتفظون به لأنفسهم، ويحصرون هدفهم في الحياة بجمع المال، ويعيشون من أجل تحقيقه، بدلا من أن يضعوا اموالهم في خدمة الكنائس والمدارس". خاطب لوثر أعضاء كنيسته قائلاً، " لا تخدع نفسك معتقدا، أنه مجرّد حفظك وترادك لآيات من الكتاب المقدس، يجعلك

مسيحيًا حقيقيًا. ان كنت معمّدًا أم لا، لا يستطيع طمّاعع أن يكون مسيحيًا. من المؤكد أنه خسر المسيح وأصبح وثنيًا. لا يمكن أن تتعايش الصفتان في الانسان. امّا أن تكون طمّاعًا او أن تكون مسيحيًا، على أحدهما أن يزيل الآخر". رفض لوثر، السماح للطمّاعين المعروفين، بالاشترك في الافخارستية في الكنيسة.

في مقالته "لوثر حول الطمع"، أجرى الكاتب ريتشارد ريتش، بحثًا في كتابات مارتن لوثر ليرى رأيه في الطمع، فوجد أن موضوع الطمع، يشغل مساحة هامة في فكره. شهد زمن الاصلاح، العديد من الازمات الاقتصادية والمالية والاجتماعية، فكرّس لوثر الكثير من وقته لتحسين الحياة العامة. طوّر مفهومه عن الطمع، بعد دراسة نصوص كتابية، منها: (1تيموثاوس6: 10؛ أفسس5: 3؛ كولوسي3: 5؛ ونصوص أخرى). وجد أن الطمع يهدم المبدأ الرئيسي، الذي يجب ان يحدّد موقفنا من الله والقريب، ويدمّر ثمار الروح القدس. وضع الطمع، في سياق الصراع بين ملكوت الله ومملكة الشيطان. اعتبر الطمع في القرون الوسطى على أنه أحد أمراء الجحيم الستة. رآه البعض، تسمية ثانية، لبعلزبول رئيس الشياطين. وصفه الكاتب جون ميلتون، في قصيدته "الفردوس المفقود"، على أنه ملاك ساقط، أعطى الأهمية الكبرى للكنوز الارضية على كل شيء آخر. رأى لوثر، أن الرسول بولس، لا يطلق على أية خطية تسمية "عبادة الاوثان"، ما عدا خطية الطمع. استشهد بالوصية الثانية من الوصايا العشر، "لا تصنع لك تمثالاً منحوتًا، ولا صورة ما: مما في السماء من فوق، وما في الأرض من تحت، وما في الماء من تحت الأرض. لا تسجد لهن ولا تعبدهن لأني أنا الرب الهك" (تكوين20: 4-5). علّق لوثر قائلا، "لقد كشف الرسول بولس، القناع الحقيقي عن وجه الطمع، عندما أسماه عبادة أوثان، أو عبادة الثروة والممتلكات. فلا ينسجم الطمع، الذي هو عبادة الأوثان، مع الايمان الذي هو عبادة الله الحقيقية". قال، "الطمع هو الوثن الأكثر شيوعًا في الارض. هذا الجنوح الى جمع المال، ملاصق لطبيعتنا البشرية حتى القبر". اقتبس قول الرسول بولس للأفسسيين: "فإنكم تعلمون هذا: أن كل زان، أو نجس، أو طمّاع الذي هو عابد للأوثان، ليس له ميراث في ملكوت المسيح والله" (أفسس5: 5). اعتقد لوثر، أن الطمع يعيق العلاقة بين الانسان والله. اعتبر أن الذي لا يضع ثقته بالله ويثّبت ايمانه بتصرفاته، فإنه لا يفرق عن الوثني أمام الله. قال، "الطامع هو الذي لا يثق أن الله سيهتم به، لكن يثق أن امواله وممتلكاته ستهتم به. على الجميع أن يدركوا أن الطمع هو عدم ايمان، بينما الكرم هو ايمان. فنحن: امّا نكرم الله بثقتنا الكاملة فيه، أو نسيء اليه بثقتنا بأموالنا". ربط لوثر الطمع، بشهوة الجسد وشهوة العيون التي تحدّث عنها الرسول يوحنا قائلا، "لأن كل ما في العالم: شهوة الجسد، وشهوة العيون، وتعظّم المعيشة، ليس من الآب بل من العالم" (1يوحنا2: 16). اعتقد أن هذه الشهوة هي قوة كبيرة داخل الانسان، تجبره على اقتراف الشر. رأى أن المقصود بعبارة، "فاعلي الشرّ، في قول المرنّم، "ألم يعلم كل فاعلي الإثم الذين يأكلون شعبي، كما يأكلون الخبز" (مزمور14: 4)، هم الطمّاعون الذين يتمسّكون بأموالهم وأملاكهم الى حد العبادة. توقّف عند قول المسيح في عظته على الجبل ،"لا تقدرون أن تخدموا الله والمال" (متى6: 24). وجد أن "الكلمة" المستخدمة للمال، في اللغة الاصلية، هي "مامون"، والتي تعني، "المال أو أي كيان يعد الانسان بالغنى، فيلهث وراءه للربح والكسب".

رأى لوثر، أن الفقراء يتألّمون بسبب طمع الطمّاعين الذي يستغلّون الفقراء بطريقة جرائمية. قال، "تسلّل الطمع الى من سميّوا "طبقة النبلاء"، فاذ بهم يتحكّمون بأسعار المواد الغذائية والضرورية في الأسواق. انهم لا يبالون بدمار العالم، فان طمعهم وشهوتهم للربح تعلو فوق أي اعتبار آخر، حتى وان كان على حساب تجويع الناس. انهم يريدون أن يتحكّموا بالفقراء، كيما يعتمدون عليهم وكأنهم آلهة". انفجر غضبًا قائلا، "لقد تحوّل العالم الى مخازن لتخزين البضاعة، مدفوعًا بطمعه. فاللصوص الكبار يشنقون اللصوص الصغار، والسمكة الكبيرة تلتهم السمكة الصغيرة". دعا المسؤولين الى التحقيق في طمع التجّار

والاقتصاديين. آمن لوثر، أن كلمة الله وحدها، قادرة على كشف حقيقة الطمع في حياتنا. اعتقد، أنه يمكن التغلّب على الطمع وعبادة المال، بواسطة الايمان الحي والمحبة الأخوية". قال، "اذا ما وضع الانسان قلبه وثقته في نعمة الله بالايمان، فانه لا يمكن أن يصبح طمّاعًا، لأن نعمة الله تشكّل حياته، وتمنحه اليقين الكامل أنه مقبول لدى الله، فلا يعود يتعلّق بماله بل يستخدمه بفرح من أجل خدمة الناس وخير القريب. فالمؤمن بنعمة الله يثق، أنه سيكون لديه ما يكفي ليعيل نفسه وعائلته، مهما ساعد المحتاجين من أمواله".

من مارتن لوثر الى مارتن لوثر كينغ

بدأت قصة المصلح الاجتماعي القس الدكتور مارتن لوثر كينغ، عندما سافر والده القس مايكل كينغ عام 1954، برفقة عدد من القساوسة الأميركيين من أصل أفريقي، لحضور مؤتمر كنسي في ألمانيا. أثناء المؤتمر، زار القس مايكل كينغ، مدينة ويتنبرغ التي ولد وعاش فيها المصلح الانجيلي مارتن لوثر. فكر كينغ بشجاعة وجرأة مارتن لوثر الذي ثار على ظلم السلطات الكنسية آنذاك وانتقد بقسوة استغلال الكنيسة الروحي والاقتصادي للناس من خلال بيع صكوك الغفران. وعليه قاد حركة تغيير اصلاحية تركت بصماتها في اوروبا والعالم. وما أن عاد مايكل كينغ الى بلاده، حتى قرّر تغيير اسمه واسم ابنه الذي كان لا يزال في الخامسة من عمره، ليتبنى هو وابنه اسم مارتن لوثر كينغ، تيمّنا باسم المصلح لوثر. قال بنيامين مايز، الذي قام بدراسة المعتقدات الدينية للجماعات الاميركية من أصل افريقي ذوي البشرة السوداء، "هناك تراثين وتوجهين لاهوتيين بين تلك الجماعات، حول النظرة الى الله: الأول، تحمّل الألم والذلّ والمشقّات والتكّيف مع سوء معاملة البيض لهم، معتبرين أن هذا الواقع هو مشيئة الله. الثاني، رفض تحمّل سوء معاملة البيض باحتقار واذلال لهم. شعروا بدعوة الله لهم، لرفض هكذا تعامل مسيء، وراوا في هذا الموقف الرافض للظلم، تحقيقا لارادة الله. انتمى مارتن لوثر كينغ، الأب والابن الى التراث اللاهوتي الثائر على الظلم، مع التشديد الكثير على ضرورة الالتزام بحياة الكنيسة وعبادة الله. كان لوثر كينغ الأب، يحثّ زملاءه من الرعاة المعمدانيين الذين تبنّوا التراث المسالم، قائلا لهم "على الكنيسة أن تلمس كل جانب من جوانب حياة الناس. يجب علينا أن نقوم بشيء من أجل مساعدة الفقراء والمنكسري القلوب، والأسرى والعميان والجرحى والعاطلين عن العمل". عانى مارتن لوثر كينغ الابن شخصيا من مسألة التمييز العنصري. عندما كان طفلا، كان صديقا لطفل أبيض البشرة يسكن أهله الى جانبهم. وعندما بلغ كينغ ستة سنوات، الذي هو سن الدخول الى المدرسة، انفصل الصديقان ليذهب كل منهما الى المدرسة المصنّفة بحسب لون البشرة بناء لقانون الدولة . خسر الولد كينغ صديقه لأن والده منعه من اللعب معه بسبب لونه. وفي اختبار آخر يرويه كينغ، أنه عندما كان تلميذا ناضجا، استقلّ واستاذه باصا وجلسا على مقاعد شاغرة. وبعد قليل دخل الباص ركّاب بيض. وحيث أنه لم يعد هناك مقاعد شاغرة، أمره سائق الباص مع أستاذه، بالوقوف كيما يجلس الركّاب البيض مكانهما. غضب كينغ غضبا شديدا، ولم يرد في بادئ الامر أن يقف، لكن أستاذه كلّمه قائلا، "هذه هي القوانين". عندها اضطر كينغ للتخلّي عن مقعده، ووقف في الباص.

يتشارك مارتن لوثر الألماني، ومارتن لوثر كينغ الأميركي، ما هو أهم وأعظم من مجرّد الاسم. درس الاثنان اللاهوت وحصلا على شهادة الدكتوره، مارتن لوثر في الكتاب المقدس، ومارتن لوثر كينغ في اللاهوت النظامي. كان الاثنان راعيين لكنائس. وضع الاثنان الكتاب المقدس أولوية في حياتهما ومعتقداتهما. تحلّى الاثنان بشجاعة وجرأة كبيرة لم يكن مثيل لها، متحدّين الموت في سبيل رسالتهما. مما لا شك فيه، أن لوثر الألماني شدّد أكثر بكثير، على ضرورة العودة الى الكتاب المقدس ليكون المصدر الأول، للعقيدة والايمان والحياة. ونتيجة لذلك طال اصلاحه جوانب متعددة من الحياة . اما اصلاح لوثر كينغ

انحصر في المجال الاجتماعي، الذي هو الحقوق المدنية، للشعب الأسود والفقراء في أميركا. من ضمن البنود الخمسة والتسعين التي علّقها الألماني لوثر ، بنودا تتعلق بالاهتمام بالفقراء، الأمر الذي كان في صلب اهتمام لوثر كينغ الاميركي. ذكر لوثر في البند الرابع والثلاثين،"على المسيحيين أن يدركوا أن من يعطي الفقراء ويقرض المحتاجين، يقوم بعمل أفضل من الذي يشتري صكوك غفران" وفي البند الخامس والأربعين، ذكر لوثر: "على المسيحيين أن يدركوا أن من يرى جاره في ضيقة اقتصادية، ويشتري صكوك غفران، فهو لا يشترك في غفرانات البابا، انما يضع نفسه تحت غضب الله". كتب لوثر الألماني، رسالة الى الحكّام البروتستانت قائلا لهم: "ان مسؤولية كل مقاطعة تحكمون فيها، اعانة الفقراء وسد احتياجاتهم، فلا يجب أن يكون حيث تحكمون، فقراء يتسوّلون لكسب لقمة عيشهم".

استخدم الدكتور مارتن لوثر كينغ ، العديد من الاستراتيجيات والمبادئ الاصلاحية التي استخدمها مارتن لوثر، منها: أولا، مبدأ المساواة بين الناس، الذي نتج عن عقيدة كهنوت جميع المؤمنين، وتساوي الجميع أمام الله وأمام بعضهم البعض. ثانيا، مبدأ حرية الضمير وحرية المسيحي، الذي أبدع مارتن لوثر الألماني في وصفهما. قال لوثر كينغ، "الحرية أمر متكامل. امّا أن نحصل عليها كلها، أو لا نحصل عليها". وأضاف، "نحن ندرك من خلال الاختبارات الأليمة، أن الحرّية لا تعطى طوعا من قبل الظالم، بل يجب أن تطلب من المظلوم". عرف بعبارته الشهيرة "وأخيرا أنا حرّ". كان لوثر كينغ يقتبس كثيرا من أقوال المسيح في اجتماعاته، لا سيما تلك التي تشدّد على استخدام أسلوب السلام واللاعنف، منها: قول المسيح في العظة على الجبل، "لا تقاوموا الشرّ، بل من لطمك على خدك الأيمن، فحوّل له الآخر أيضا" (متى 5: 39). وقوله لبطرس الذي قطع اذن عبد رئيس الكهنة، "رد سيفك الى مكانه، لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون" (26: 52). علّق على هذه الاقتباسات في احدى عظاته، بالقول، "باللاعنف نربح مناوئينا للصداقة معهم، ونتجنب اذلالهم". استند لوثر كينغ في دعوته الى رفض التمييز العنصري، والمطالبة بحقوق الفقراء والمتألمين، على مفهوم صليب المسيح، الذي رأى فيه اعلانا خاصا عن محبة الله. قال، "يثبت الصليب، أن المحبة سوف يكون لها الكلمة الاخيرة على الظلم وغياب العدالة. اعتقد أن هذه المحبة هي الوحيدة القادرة على التغلّب على الكراهية وتغيير عقول وقلوب الناس. قال، "الرحمة الحقيقة هي أكثر من رمي بعض النقود في وجه الفقراء، لكنها تكمن في الحاجة الى وضع بنية أنظمة وقوانين، لا تنتج فقراء يضطرون الى التسوّل". رأى في الصليب والقيامة، قوّة محرّرة للانسان المسيحي، تدفعه للانخراط في شؤون حياة الناس. في عظته التي ألقاها عام 1960، تحدّث مارتن لوثر كينغ، عن ثلاثة أبعاد للحياة المكتملة، هي : الطول، والعرض، والارتفاع. قال، "ليس المقصود بالطول، عدد السنين التي نعيشها على الأرض، لكن الاندفاع في الحياة لتحقيق قوّتنا الداخلية وطموحنا. المقصود بالعرض، الخروج من الذات الى الخارج لبلوغ الآخرين، والاهتمام بحاجاتهم. والمقصود بالارتفاع، السمو عاليًا نحو الله". أعلن قائلا، "عندما تكتشف القيمة الحقيقية لحياتك، إسعَ لكي تعيشها بملئها، وبتميّز: مهما كانت نوعية حياتك ونوعية عملك، فلا تعتبرها غير مهمة، لأن غايتها بناء الانسانية. حياتك لها معنى كوني. فإذا ما كنت كانس شوارع، فاكنس الشوارع، كما كان ينقّش مايكل أنجلو تحفاته الفنيّة، أو كما كان يؤلّف بيتهوفن سيمفونياته، أو كما كان يكتب شكسبير قصائده".

بدأ المصلح الانجيلي مارتن لوثر اصلاحه، بوضع استراتيجية الدعوة الى مناقشة علنية، لبعض الممارسات والعقائد التي اعتبرها خاطئة في الكنيسة الكاثوليكية. فكانت استراتيجيته، البنود الخمسة والتسعين التي علّقها على باب كنيسة جامعة ويتنبرغ في 31 تشرين الأول من العام 1517. وهكذا أيضا فعل مارتن لوثر كينغ، الذي احتج على الممارسات الاجتماعية الخاطئة والظالمة بحق الشعب الأسود والفقراء، اذ دعا المسؤولين في الادارة الأميركية الى تصحيحها عبر القاء خطابات علنية، تركز على

أخطاء تلك الممارسات. لايصال رسالته الى آذان المسؤولين، نظّم مظاهرات ومسيرات وحملات، سلمية غير عنفية تعدّد عناوينها: من مسيرات رافضة للتمييز العنصري والعرقي، الى مسيرات لدعم الفقرا، ودعم حقوق العمال، وخلق فرص عمل للذين يعانون من البطالة. عندما كانت بعض المسيرات والمظاهرات تخرج عن اطارها السلمي، كان يطلب من الناس الالتزام بالقنوات القانونية للاحتجاج من اجل التغيير. دعا لوثر كينغ الى مسيرات من أجل الحرية والسلام. طالب بسحب القوّات الأميركية من حرب الفيتنام، وغيرها من العناوين الأخرى. صرف مارتن لوثر كينغ ثلاث عشرة سنة، من الجهاد والنضال من أجل الحقوق المدنية وسجن تسعة وعشرين مرّة. في احدى المرّات، دفع عنه صديقه الواعظ الانجيلي المشهور بيلي غراهام كفالة مالية لاخراجه من السجن. أسس مع بعض أصدقائه، ما سمي ب "مؤتمر القيادة المسيحية الجنوبية"، وهو تجمع من الكنائس الانجيلية التي يرتادها مسيحيون ذوو البشرة السوداء، لتشكيل قوّة مجتمعية سلمية غير عنفية، ضاغطة للتغيير. استلم كينغ قيادة هذا المؤتمر كل مدة حياته القصيرة. نسّق مع بعض اتحادات حقوق الانسان لتوسيع دائرة القوة الضاغطة.

عرف القس الدكتور مارتن لوثر كينغ، بكونه خطيبا كبيرا مؤثّرا. ألقى خطابات عدة من أهمها خطاب، "لديّ حلم". ألقى الخطاب في حشود كبيرة متظاهرة، أمام نصب المحرّر ابراهيم لينكولن. قال "لدي حلم، أنه في يوم ما، فان هذه الامة سوف تستيقظ لترى أنها تعيش حقيقة معاني قيمها وعقائدها. لديّ حلم، أنه يوما ما فان هذه الامة سوف تستيقظ لترى بأن كل البشر قد خلقوا متساوين. لديّ حلم، أنه يوما ما ستستيقظ هذه الأمة، لتتوقّف عن التمييز العنصري والظلم، وتتحوّل الى واحة للحرية والعدالة. لديّ حلم، أن أرى في ولاية ألاباما، الاطفال السود والبيض، يمسكون بايدي بعضهم البعض ويسيرون كاخوة واخوات. عارض مارتن لوثر كينغ بشدة، تدخّل الادارة الاميركية في حرب الفيتنام، بحجة حربها من أجل الديمقراطية. قال "على الادارة الأميركية، أن تسعى للديمقراطية في بلدها وبين شعبها، وأن تصرف أموالها على شعبها الفقير وعلى مشاريع اعانة الفقراء والمحتاجين، ولا تصرفها على السلاح من أجل حروب خارجية". حيث أن الكثيرين كانوا من مشجّعي تورّط أميركا في الفيتنام، طلب الكثيرون منه وحتى الرئيس الاميركي نفسه التزام الصمت. لكنه رفض وأصرّ على موقفه. في الليلة الأخيرة قبل اغتياله في 3 نيسان عام 1968، استشعر أنه سيغتال في أية لحظة، فألقى خطبته الأخيرة بعنوان، "لقد ذهبت الى أعلى قمة الجبل"، قال فيها: "مما لا شك فيه، أني أرغب أن أعيش حياة طويلة، لكن ليس هذا هو همّي الأساسي الآن. كل ما أريد الان، هو أن أصنع ارادة الله. لقد سمح لي الله أن أذهب الى أعلى قمة الجبل، وأعاين من هناك أرض الموعد. ربما لن أصل الى هناك، لكن أريدكم أن تعلموا الليلة، بأننا نحن كشعب سوف نصل الى أرض الموعد. لهذا فأنا فرح هذه الليلة، ولا أكترث لاي شيء آخر. لا أخاف من انسان. عيناي رأت مجد مجيء الرب". قبل القاء خطبته الأخيرة كان يخطّط لحضور حفل ترنيم. وقد كان طلب من قائد الفرقة الموسيقية، أن يعزف له ترنيمة "خذ بيدي الهي العظيم". كان قد كتب لوثر كينغ بعض الأفكار حول ماذا يحب أن يذكر في جنازته، في حال تمّ اغتياله. من التعابير التي أعدّها: "هذا ما أريد أن تذكروه عني في الجنازة. أذكروا أني أعطيت حياتي لخدمة الناس. أطعمت الجياع. كسيت العراة. حاولت أن أحب وأخدم الانسانية. اذكروا أني قرعت طبول العدالة والسلام، والصلاح، وأردت أن أترك حياة مكرّسة".

وسط كل نشاطاته وكفاحه في مجالات الحقوق المدنية وحقوق الانسان، لم يتخلّ لوثر كينغ عن دعوته الأولى بأن يكون واعظا بالانجيل. قال ، "قبل أن أصبح قائدا في مجال الحقوق المدنية والانسانية، كنت واعظا للانجيل. هذه كانت دعوتي الأولى، ولا تزال التزامي الأعظم في الحياة. ان خدمتي في هذا الحقل، تنبع من كونها جزءا من خدمتي المسيحية. ليس لدي أي طموح آخر في الحياة، الاّ أن أقدّم

الأفضل في سبيل الخدمة المسيحية. لا خطة لديّ للوصول الى أي مركز سياسي، بل أن أبقى فقط واعظا. وما أقوم به في هذا المجال، هو بسبب قناعتي، بأن على الواعظ، أن لا يهتم فقط في الجانب الروحي للانسان، بل في كل جوانب حياة الانسان". عندما أغتيل عام 1968، أحترمت وصيته، ورنّمت الترنيمة التي طلبها، "خذ بيدي الهي العظيم". وبعد موته بأيام قليلة، أقرّت الادارة الاميركية، قانون الحقوق المدنية 1968 الذي شدّد في المادة الثامنة منه على: منع التمييز بين الناس، على أساس العرق أو الدين أو الجنسية. ومن ثم تطوّرالقانون لاحقا، ليتضمّن منع التمييز على أساس الجنس أو الوضع العائلي أو الحالة الجسدية.

البروتستانتية الايمان الذي صنع العالم الحديث

في كتابه، "البروتستانتية: الايمان الذي صنع العالم الحديث"، الذي أصدره المؤرّخ ألك ريري عام 2017، يقول الكاتب: "لم تكن مجرّد فكرة حرية التعبير، الأمر الهام الذي أتت به البروتستانتية، وإنما عدم قدرة أحد على إجبار أحد آخر، على التفكير بعكس ما يمليه عليه ضميره. فليس هناك سلطة فكرية مهما كانت، تجبرك على الاعتقاد أنك على خطأ. وليس هناك من يستطيع أن يفرض سلطته عليك، ليقف عائقا بينك كإنسان وبين الله". هذه كانت فكرة مارتن لوثر العظيمة، التي أطلقها عندما أصرّ على رفضه أي تسلّط بشري على ضميره وفكره. بهذا الموقف النبوي، أرسى مارتن لوثر، تقليد الوقوف في وجه السلطات البشرية التي تعيق فهم واختبار قوة الانجيل المغيّرة للحياة، اذ قال، "الضمير، لا يحتمل سيّدا زائلا". يعتقد مؤرخون أن الاصلاح الانجيلي، كان مصدر السلاح الايديولوجي الفكري، الذي لم يكن يتوقّعه المصلحون أنفسهم. مثلا، عندما تحدّث لوثر عن مفهوم الحرّية في اطار فهمه للكتاب المقدس، فانه لم يرد أن يكون الناس أحرارًا في اختيار الايمان الذي يريدونه، بل أرادهم أن يكونوا أحرارًا ليؤمنوا بالحقيقة. إعتقد لوثر، أن الحقيقة تشهد عن نفسها، لكل من يفتح الكتاب المقدس ويقرأه، ليجد المسيح. الاّ أنه اكتشف لاحقًا، ما لم يتوقّعه، هو أن الناس قرأت الكتاب المقدس، بطريقة مختلفة عن الطريقة التي هو اختبرها، إذ صاروا يجدون في قراءة الكتاب المقدس، رسائل سياسية واجتماعية، أكثر راديكالية مما توقّعه. لكن، ما لم يكن يدركه لوثر إدراكًا كاملاً هو أن الحرية الروحية، لها نتائج سياسية. في موضوع الديمقراطية، لم تكن المسألة أن المصلحين الانجيليين الأوائل، كانوا ديمقراطيين في حياتهم وتصرفاتهم أكثر من غيرهم، الاّ أن ما قاموا به، أنهم شدّدوا باصرار على فكرة أنه للإنسان، الحق والمسؤولية في الوقوف في وجه حاكم سياسي أو كنسي مستبدّ، وهذا ما ساهم في اطلاق الكثير من المفاهيم السياسية. مثلا، خرجت من عقيدة لوثر "كهنوت جميع المؤمنين" نتائج سياسية، لا سيما مفهوم المساواة بين الجميع. فلم يكن هدف المصلح مارتن لوثر الأساسي، خلق عصر الحرية، والديمقراطية لكن هدفه كان ايصال رسالة الانجيل الخلاصية للناس، لكن هذا ما حصل، وهذا ما انتجه الاصلاح الانجيلي.

إن المثل الأكثر وضوحًا على ذلك، هو ما حصل في ثورة الفلاحين بين عامي (1525-1524)، والتي شكّلت الأزمة الكبرى في حياة لوثر. كانت ثورة الفلاحين، التمرّد الأوسع في التاريخ الأوروبي قبل الثورة الفرنسية. رفع الفلاّحون المطالب الطبيعية التي يرفعها المحرومون من حقوقهم، مثل: ملكية الأرض، الايجارات، وغيرها من المطالب. فالمبادىء التي وحّدت بين الفلاحين ولصقتهم بين بعضهم البعض، كانت المبادىء التي أطلقها لوثر، حول: حرية الضمير، وحرية الاحتجاج والتعبير، وحرّية مقاومة السلطات البشرية، التي وقفت في وجه الحق. إلاّ أن استخدام الفلاحين للعنف، الأمر الذي أحدث فوضى كبيرة. واعتقاد لوثر، بضرورة خضوع المواطنين لسلطة الحكّام، اذ اعتقد أن سلطتهم هي من الله، كما قال الرسول

بولس "لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة، لأنه ليس سلطان الاّ من الله، والسلاطين الكائنة هي مرّتبة من الله" (رومية 13: 1). فانه بعد أن ناصرهم في بداية ثورتهم وتبنّى مطالبهم، إلاّ أنه عاد ووقف مع السلطة الحاكمة التي أنهت تمرّدهم وأعادت الهدوء والاستقرار والسلام الى البلاد. يرى بعض المؤرخين، أن موقف لوثر هذا، هو أحد أكبر البقع السوداء في تاريخه.

في كتابه "تاريخ الفكر السياسي"، يقول الكاتب في الفكر السياسي، روبرت بركي، "وضع الإصلاح الإنجيلي، الحجر الأساسي لمفاهيم جوهرية في العلوم السياسية، مثل: الحريّة، المساواة، الديمقراطية، العلمانية، المؤسساتية، الحكم المطلق، وغيرها. ويضيف بركي، "كان الإصلاح الانجيلي، وسيلة هامة لتحرير الناس وحثّهم على الإبداع والخلق الفكري، لأنواع جديدة من المعرفة. وبالإيجاز، خلق الإصلاح فصلاً جديدًا في العلوم السياسية". أما المؤرخ ألك ريري، فيقول "أن ما قدّمه التراث البروتستانتي، أنه أوجد عدة نماذج سياسية معًا. بالرغم من اعتقادنا، أن الحرية والمساواة يجب أن يسيرا جنبًا الى جنب، إلاّ أن هذا المزج بين الاثنين، ليس واقعًا. يذكر كوانتن سكينر،المؤرّخ في الفكر السياسي، "إن فكرة المؤسساتية نشأت من الاصلاح. فزمن الاصلاح، لم يشهد فقط بداية الإيديولوجيات المطلقة، وإنما أيضًا النظرية المنافسة لها، بأن كل السلطات السياسية مصدرها النهائي هو الشعب. وهكذا أوضح أن الاصلاح هو مسؤولية الحكّام أمام الشعب، ومسؤولية الشعب أمام الحكّام، اذ أوجد نظرية العقد أو التعاقد، بين الحاكم والشعب. كان على الحكّام أن يخضعوا لقرار شعبهم، لأن سلطة الحاكم هي خاضعة للتصحيح. فالحاكم يرتبط بتعهّد وعقد مع شعبه عند تتويجه لقيامه بواجباته بشكل مناسب. وفشله في ذلك، يجب أن يخرجه من منصبه". ان فكرة، أن الحاكم لديه سلطة قضائية ليس على دواخل نفوس وأرواح الناس، وانما فقط على شؤونهم الخارجية والجسدية والعملية، أدّى الى خلق الفكرة السياسية، على أنه حتى الحكومات الأكثر قداسة، يجب أن تكون مقيّدة بسلطات وصلاحيات محدّدة في حكمها لشعبها.

ان مواقف لوثر الجريئة والنبوية، التي تكرّرت من قبل الذين ساروا على خطاه، قادت للأسف الى مجموعة من الحروب والثورات الدينية، ضد الحكّام والقادة الذين لم يتقبّلوا آراءهم الدينية. الاّ أن الذين تمسّكوا بمبادىء الاصلاح، طوّروا نظريات سياسية جديدة، وأصرّوا على حقّهم في تشكيل وتشريع حكومات مناسبة. فالمواقف الكبيرة لها دائما، ايجابيات وسلبيات. وهذا ما قاد في بعض الأحيان الى حكومات ثيوقراطية، إذ كان هناك أوقات بدت فيها البروتستانتية، تسلك بهذا الاتجاه. وهذا ما يؤخذ على المصلح جان كلفن الذي حوّل جنيف الى حكومة ثيوقراطية، أثناء اصلاحه للمدينة، الأمر الذي يلاقي الكثير من الاعتراضات من المؤرخين. ما قام به الاصلاح، أنه أرسى مفهوم الدولة الوطن. كانت الكنيسة قبل الاصلاح، تملك السلطة الوحيدة في كل الشؤون الدينية والسياسية، لكن الاصلاح، أعطى الملوك والحكّام، الحريّة للسيادة على مناطقهم. وبهذه القوّة الجديدة، استطاع الملوك حلّ الخلافات الجغرافية مع جيرانهم من الدول الاخرى، وخلق أوطانا ذات حدود واضحة ومحدّدة المعالم. يلاحظ المؤرخون، أنه بعد حرب الثلاثين سنة الدينية بين أعوام (1618-1648)، تمّت معالجة العديد من المسائل والصراعات السياسية بين البلدان، لأن تلك الحرب، أعطت للدول الحريّة للمطالبة بحقوقهم الشرعية.

وفي مقالة كتبها، الدكتور جوشوا هولمان، الاستاذ في اللاهوت، بعنوان "الهوية المسيحية في عصر علماني: شارل تايلور ومارتن لوثر، حول أصالة الذات الانسانية في المجتمع"، يذكر أن الفيلسوف الكندي المعاصر، شارل تايلور، أورد في كتابه،"مصادر الذات الانسانية: صناعة الهوية الحديثة، الذي أصدره عام 1989 ، "أن زمن الاصلاح الانجيلي في القرن الساس عشر، هو زمن انطلاق المفهوم الحديث للهوية الشخصية، وكان مطلقه بالتحديد المصلح مارتن لوثر. فاصرار لوثر على موقفه الواثق، أن

ما يفكّر وما يشعر به في داخله، عندما قال: هنا أقف لن أتراجع ضميري أسير لكلمة الله، هو الأمر الصحيح وإن رفضه العالم أجمع، أطلق المفهوم الثوري الحديث للهوية. تتشكل الهوية من معرفة الانسان لخياراته وأولوياته والتزاماته في الحياة التي تجعله يحدّد : ما الذي يعطي معنى لحياته وما الذي لا يعطيه، ما هو الجيّد وما السيّء، على ماذا يوافق وماذا يرفض، ماذا يعمل وماذا لا يعمل. يقول الفيلسوف تايلور، "تتكوّن الشخصية، عندما يوجه الانسان ذاته في اطار مجموعة من المعاني، فيختار المعنى الذي يريده. الهوية هي هذا البحث الكوني، لإيجاد الذات الداخلية الاصيلة وايجاد الانسان مكانته في مجتمعه وعالمه". يقول الفيلسوف الفرنسي في القرن العشرين، جاك ماريتان، أن مارتن لوثر هو "مكتشف الهوية الذاتية". تظهر دراسة ماريتان عن لوثر، في كتابه "ثلاثة مصلحين: مارتن لوثر، رينه ديكارت، جان جاك روسو". يذكر أن لوثر هو مصلح الدين، وديكارت مصلح الفلسفة، روسو مصلح الفضيلة. قال ماريتان، "نشأ الاصلاح من صراع شخصي روحي ساهم في النتيجة في كرامة الانسان، وهذا ما ساهم في الحداثة".

تحدّث مارتن لوثر عن الهوية الذاتية، عندما ميّز بين انسان الداخل أو الباطن، وانسان الخارج، محلّلا قول الرسول بولس، "لذلك لا نفشل، بل وإن كان إنساننا الخارج يفنى، فالداخل يتجدّد يومًا فيومًا" (2كورنثوس4: 16). وقوله، "لكي يعطيكم بحسب مجده، أن تتأيّدوا بالقوة بروحه في الانسان الباطن، ليحلّ المسيح بالايمان في قلوبكم" (أفسس3: 16-17). تحدّث لوثر، عن التحرّر الداخلي من الذنب، عندما يعترف الانسان بخطاياه ويختبر معجزة الغفران الالهي. فانسان الداخل أو الباطن له قيمة كبيرة. فهناك هوية شخصية ذاتية أصيلة خفية وغير معلنة في داخلنا، تختلف عن عالمي الخارجي، وعن الدور المتوقع أن ألعبه في المجتمع. هوية الشخص، هي الامور التي تتعلّق بذاته وليس بغيره. الفكرة الأساسية من الهوية، أن حياتي وتفكيري ومشاعري هي ملك لي، وليست لأحد آخر". قال الفيلسوف تايلور، "قبل مارتن لوثر، كان المسيحي أحد الركّاب المسافرين، في السفينة الكنسية في رحلتها الى الله، لكن بالنسبة للبروتستانتية، لم يعد هناك ركّاب في السفينة. فكل يجذّف بمجذافيّ قاربه الشخصي". ربط لوثر بين عقيدة التبرير بالايمان وحده، والهوية الشخصية للانسان المؤمن. قال، "الايمان وحده هو الذي يبرّرنا أمام الله، فيحصل المؤمن على نعمة داخلية تمنحه القوة الهائلة، كيما يعيش حريته المسيحية مهما تعاظمت الضغوطات عليه. وهذه النعمة الداخلية، تعطي الانسان كرامته وحريته ومكانته. فهم مارتن لوثر الحرية، في سياق قبول الله أو رفضه. كان قد تحدّث القديس أوغسطينوس منذ القرن الخامس ،عن هذا "الانسان الباطن"، عندما قال: "لدي فراغ داخلي، ليس لدي استقرار في باطني، ولن يملأ احد هذا الفراغ ولن أعرف الاستقرار الداخلي الاّ بحضور الله في حياتي. كرّر الفيلسوف بلايز باسكال، نفس الفكرة، عندما قال، "للقلب أسباب وتبريرات، لا يعرفها العقل". يقول الفيلسوف تايلور، أن محاولة الانسان أن يجد ذاته الاصيلة وهويته ومكانته في مجتمع اليوم، أصبح لغزا في مجتمع مجزّأ ومشرذم وهشّ، ومتعدّد الانتماءات والمعتقدات والخلفيات. لهذا، فان مفهوم لوثر عن الهوية، قد يكون له أهمية كبيرة في عصرنا لأنه يساهم، في ايجاد الانسان نفسه ومكانته في مجتمعنا الحديث.

المراجع

Benedict, Philip. Christ`s Churches Purely Reformed: a Social History of Calvinisim. Yale University .2002

Beeke, Joel.ohn Calvin’s Definition of Piety. 2019.

Bender, Cole. Luther’s Theological Anthropology: A Decisive Break from Scholasticism. Liberty

University School of Religion and Graduate School 2011

Brian .Calvin on the Inseparability of Justification and Sanctification. 2018.

Bagchi, David. And Steinmetz, David, C. Reformation Theology, University Press, Cambridge. 2004

Calvin, John. Institutes of the Christian Religion. 1536.

Calicinski, Les. John Calvin`s Doctrine of Sanctification. 2007

Calvin, John. The Reformation’s Lack of Miracles *Institutes of Christian Religion*. Prefatory Address to the King of France. 1536.

CANLIS, JULIE. Calvin, Osiander and Participation in God. Grand Rapids: Eerdmans. 2003.

Canlis , J. Calvin`s Ladder. A Spiritual Theology of Ascent And Ascension. Eedermans. 2010.

Calvin, John. Defence of the Orthodx Faith in the Sacred Trinity. 1554.

Engel, Mary P. John Calvin's Perspectival Anthropology. Scholars Press. 2002.

Foller, O. Martin Luther on miracles, healing, prophecy and tongues. Studia Historiae Smoot, Victoria. Philip Melanchthon: Astrolger of the Reformation and Renaissance. 2015.

Geroge, Timothy. Theology of The Reformers. Broadman Press.1988

Grimm, Harold J. Luther`s Works. Vols 31. Career of The Reformer.1957

Gwin, Timothy. J Calvin, Piety, and the Heart of Ministry

Gilbert, Mathiew. MARTIN LUTHER ON THE RELATIONSHIP BETWEEN JUSTIFICATION AND SANCTIFICATION. 2014

Galicinski, Les. John Calvin's Doctrine of Sanctification . 2007.

Gracia, Mark A. IMPUTATION AND THE CHRISTOLOGY OF UNION WITH CHRIST: CALVIN, OSIANDER, AND THE CONTEMPORARY QUEST FOR A REFORMED MODEL. 2006.

Handrics, Scot. Luther` s Reformation of Spirituality

Hamm, B. *The early Luther. Stages in a Reformation reorientation.* Grand Rapids: Eerdmans. 2014.

Hillerbrand, Hans Joachim J. *The Protestant Reformation*. New York: Harper Perennial, 1968.

INGALLS, JASON T. THE SAVING HUMANITY OF CHRIST: JOHN CALVIN'S CRITIQUE OF ANDREAS OSIANDER. TORONTO University. 2011.

Joshua Holman .The Sources of the Self: The Making of the Modern Identity

Johnson, Mark. Calvin and Piety. 2020.

John T .History of The Cure of Souls. Harper Collins. 1977

Jeong. O Jin . How did Martin Luther and John Calvin Understand Justification and Sanctification?2015.

Kusukawa, Sachico.The natural philosophy of Melanchthon and his followers. Publications de L`ecole Francaise De Rome. 1999

Keller, CA. *Calvin Mystique. Au couer de la pensée du Réformateur.* Geneva: Editions Labor et Fides. 2001.

Karimies, Ilmari . Martin Luther's Early Theological Anthropology: From Parts of the Soul to the Human Person as One Subject. 2016.

Kittleson, James M. Martin Luther The Reformer: The Story of the Man and his Career.2003

Lortz, Joseph. The Reformation In Germany. Longman and Todd. 1968

Luther, Martin. The Babylonian Captivity of the Church. 1520

Luther, Martin. On the Freedom of a Christian. November 1520

Luther, Martin .On The Bondage of The will.1525

Luther, Martin. The Larger Catechism . 1530

Luther, Martin. Lectures on Galatians. 1535

Lawrenz, Carl J. "On Justification, Osiander's Doctrine of the Indwelling Christ," in No Other Gospel.

Lawson, Steven. Luther and The Psalms: His Solace and Strength. 2012

Mason, Melody. Lessons on Prayer from Martin Luther.2017

Mcneil, John T. The History and Character of Calvinism. Oxford University Press. 1954.

Miles, M. Theology, Anthropology and Human Body in Calvin`s Institutes.1981

McGinn, B. Mysticism. In: H.J. Hillerbrand (ed.), *The Oxford encyclopedia of the Reformation.* Oxford: Oxford University Press, 1996.

McPherson, Thomas . Prayers of the Reformers , 2017

Miles, Margaret P. Theology, Anthropology, and the Human Body in Calvin's "Institutes of the Christian Religion". The Harvard Theological Review. 1981.

Olsen , E Roger. Deification in Contemporary Thelogy. Theology Today 2007.

Ozment, S.E. *Mysticism and dissent. Religious ideology and social protest in the sixteenth century.* New Haven: Yale University Press. 1973.

Parsons , Michel . Praying the Bible with Luther: A simple approach to everyday prayer. 2017.

Niesel, Wilhem. The Theology of Calvin. Grand Rapids. 1980

Oberman, Heiko. Luther: Man Between God and the Devil. 2001

Polhill, E. *the mystical union between Christ and believers considered in its resemblances, bonds, seals, priviledges and marks.* London: Cockerill.1680.

Partee, Charles. The Theology of John Calvin, 2008.

Peterson, Charles William. The Humanistic, Fideistic Philosophy of Philip Melanchthon. Marquette University Publications. 2009

Parker, THL. Calvin`s Doctrine of the Knowledge of God. Eedermans. 1952

Pless, John T. Martin Luther. Preacher of The Cross. Concordia Publishing House. 2013

Ryrie, Alec. Protestantism: The Faith That Made the Modern World.

2017.

Rorem, P. Martin Luther's Christocentric critique of Pseudo-Dionysian spirituality. *Lutheran Quarterly.* 1997.

Slenczka, Notger.Luther's Anthropology. The Oxford Handbook f Martin Luther`s Theology. 2014.

Stauffer, Richard. The Humanness of John Calvin. Abingdon Press. 1971

Sprawl, R .C. and Nichols , Stephen J. edit .The Legacy of Luther Reformation Heritage Books 2016.

Soergel, Philip M. Miracles and the Protestant Imagination: The Evangelical Wonder Book in Reformation Germany.2012

Sedgwick, Peter H. The Origins of Anglican Moral Theology. Ethics in the Later Reformation: William Perkins. BRILL. 2018.

Scotchner, Paul Fredrick. Reformed Foundation for Social Concern. Westminster Theological Review .1978

Sherman, Franklin ed. Martin Luther. The Christian in Society. Luther`s Work. Vol 47. 1971

Trueman, Carl R. Luther on The Christian Life: Cross and Freedom. 2015

Towns, Elmer L. Martin Luther on Sanctification Liberty University. 1969.

Towns, Elmer L. Martin Luther on Sanctification. 1969

Tamburello, D.A. *Union with Christ. John Calvin and the mysticism of St. Bernard.* Louisville: Westminster John Knox. 1994.

Ukachi, Austin C. Martin Luther: A Man of Prayer and Reformation .2017

Van Der Walt, B. J. John Calvin's view of the human being: A Christian philosophical appraisal. 2009.

Vorster, Nico. Calvin on the Created Structure of Human Nature. The Influence of his Anthropology on his Theology. Journal of Theolgy for Southern Africa. 2015.

Wakefield, G.S. 1957. *Puritan devotion: Its place in the development of Christian piety.* London: The Epworth Press.1957 .

Wendel, Francois. Calvin: The Origins and Development of His Religious Thought. London and Beccles, 1963.

Walsham, Alexandra.The Reformation and 'The Disenchantment of the World' Reassessed .Cambridge University Press. 2008

Wooton, David. History: Science and the Reformation. 2017.

Wengert, Timothy .Defending Faith: Lutheran Responses to Andreas Osiander's Doctrine of Justification 1551–1559. 2012.

المراجع: مقالات

Armstrong, Dave. Astrology: Philip Melanchthon’s Enthusiastic Espousal. 2017.

Acocella, Joan. How Martin Luther Changed the World: *Five hundred years after he started the Reformation, his ideas and his ornery personality remain as potent as ever. The New Yorker. 2017*

Breward, I.The Significance of William Perkins. Journal of Religious History. 1966

Elwell, Walter A. Evangelical Dictionary of Theology. 2001.

Ferngren, Gary B. Medicine and Religion: A Historical Introduction, John Hopkins University Press. 2014

Gevitz, Norman. Practical Divinity and Medical Ethics: Lawful versus Unlawful Medicine in the Writings of William Perkins (1558–1602). Journal of The history of Medicine and Allied Sciences. 2012.

George, Timothy. Reading the Psalms With The Reformers.

Houtz, Wyatt. John Calvin on Nicolaus Copernicus and Heliocentrism. 2014.

Jeong, Jin O. How Did Martin Luther and John Calvin Understand Sanctification.2015

Hyatt, Eddie. How Martin Luther Gained the Faith for Supernatural Miracles. Charisma News. 2017.

Mathison, Keith. Luther, Calvin, and Copernicus — A Reformed Approach to Science and Scripture. 2012.

Melton, J. Gordon. Encyclopedia of Protestantism. 2005

Pauls, Merril and Hutchinso, Roger C.Bioethics for clinicians: Protestant bioethics. CMAJ. 2002.

Saunders, Peter. Medicine and The Reformation. Christian Medical Fellowship. 2017.

Sanders, Kyle. Perks of Perkins: Understanding Where Magic and Religion Meet for an Early Modern English Theologian. University of South California. 2018.

Twininga, Matthew. Calvin`s Political Theolgy and the Public Engagement of the Church. Cambridge University Press. 2017. Artice

THOMPSON, William M. Theological Studies VIEWING JUSTIFICATION THROUGH CALVIN'S EYES: AN ECUMENICAL EXPERIMENT . Duquesne University, Pittsburgh 1996

Westminster Dictionary of Christian Theology.1931